العقل.. وسطوته

ج . ب . راين
أستاذ علم النفس بجامعة ديوك

ترجمة

د. محمد الحلوجى

تقديم ومراجعة

د . فوزي جمال الدين

الكتاب: العقل.. وسطوته

الكاتب : ج . ب . راين

ترجمة: د. محمد الحلوجى

تقديم ومراجعة : د . فوزي جمال الدين

الطبعة: **2018**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

الحلوجى ، د. محمد

العقل.. وسطوته / ترجمة : د. محمد الحلوجى

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

285 ص، **18** سم.

الترقيم الدولى: **6 – 712 – 446– 977– 978**

أ – العنوان رقم الإيداع : **5672 / 2018**

العقل.. وسطوته





مقدمة :

العقل هو مُصطلح يستعمل عادة لوصف القدرة على التمييز والإدراك واتخاذ القرار بالاستفادة من بيانات للدماغ البشري وبخاصة تلك الوظائف التي يكون فيها الإنسان واعياً بشكل شخصي مثل الشخصية، التفكير، الجدل، الذاكرة، الذكاء، التحليل، وحتى الانفعال العاطفي يعدها البعض ضمن وظائف العقل البشري.

بالرغم من وجود عدد كبير من الحيوانات تمتلك بعض القدرات العقلية إلا أن مُصطلح العقل عادة يُقصد به العقل المُتعلق بالبشر فقط. كما أنه يُستعمل أحياناً لوصف قوى خارقه، غير بشرية، أو ما وراء الطبيعة.

حجم الدماغ البشري مقارنة بالحيوانات كبير جداً؛ فلدى دماغ الإنسان سطح كبير يُسمى القشرة؛ وما يُزيد من حجم القشرة هو وجود التلافيف؛ فهناك بعض الحيوانات تملك هذه التلافيف مثل الفيلة والدلافين. وهناك قاعدة أساسية؛ وهي أن الحيوانات الكبيرة لها دماغ أكبر من بقية الحيوانات الصغيرة؛ وكذلك بالمثل لدي الإنسان فان دماغ الولد الرضيع يختلف بالحجم عن الرجل البالغ.

يمتلك العقل البشري قوة كبيرة لا يُمكن قياسها، تجعلك تقف مذهولاً من مقدارها، وبرغم قدرة العقل البشري الكبيرة، إلا أنّ الإنسان لا يستعمل إلا 10 % فقط منها، فعلى كل شخص العمل على استثمار

قوة عقله وعدم تركها مُهملة. كما يجب أن يستخدمها الشخص في فهم كل ما يدور حوله، حيث قام العُلماء باكتشاف علم يُسمى بالمرونة العصبية، وهو علم قائم على تغيير نظام عقلك، من طريقة تفكيرك، والتحكم في دماغك، وسيساعدك ذلك على معرفة نقاط ضعفك وتحويلها لنقاط قوة. فالعقل البشري مسئول عن سير حياة صاحبه اجتماعياً، ومهنيّاً.

هُناك عدة طُرق لزيادة قوة العقل وقدراته؛ وذلك بأن تقوم بشيء جديد دائماً، فالقيام بأمر مُختلف عن المعتاد يُغيّر بنية الدماغ، عن طريق خلق مسارات عصبية جديدة تزيد من نسبة ذكائك، فيمكن أن تغيّر من أسلوب عملك، وأن تتناول طعاماً لم تتذوقه من قبل فذلك يعمل على تنشيط دماغك. العب الرياضة بشكل مُنتظم، فذلك يزيد من وظيفة عقلك، ويزيد من تكوين الخلايا العصبيّة لديك، وتكوين خلايا دماغية جديدة عند كل مرة تمارس فيها الرياضة، فالعقل السليم في الجسم السليم. درّب ذاكرتك لتصبح أقوى، فدرّبها على الحفظ بشكل تدريجي، وستلاحظ أنّ قدرتك على التذكر والحفظ أصبحت أفضل مع مرور الوقت. جرّب كل جديد ولا تخف، فالخوف من التجربة سيحجّم عقلك، ويقلل من نسبة ذكائك وتطور دماغك. فكّر بشكل إيجابي، فالتفكير السلبي والتوتر يعمل على قتل الخلايا العصبيّة، ويوقف إنتاج أيّة خلايا جديدة، بعكس التفكير الإيجابي الذي يُسرّع من إنتاج الخلايا، ويُقلل من التعب والإجهاد بشكل كبير. تناول الطعام الصحي، فالدماغ يستهلك أكثر من 20% من الغذاء الذي تتناوله، فذلك يؤثّر على وظائف المخ، فأكثر من الفواكه،

والخضار، وزيت أوميغا 3 الموجود بالسمك، والإكثار من شرب المياه. القراءه غذاء العقل، فهي تعمل على تخفيف التوتر والإجهاد من الواقع الذي تعيش فيه عند لجوئك إليها، وبالقراءة تستخدم الخيال الذي يُعد وسيلة مُهمّة لتدريب العقل. احظَ بقسط كافٍ من الراحة والنوم، فالدماغ يقوم بالتخلص من بعض السموم البسيطة أثناء النوم، كما يعمل على تجديد خلاياه، وأفضل فترة للنوم ليقوم الدماغ بوظيفته هذه، من التاسعة مساءً إلى منتصف الليل. تخلّص من التكنولوجيا حولك، فالتكنولوجيا تجعل العقل كسولاً لا يفكر. ابتعد عن استعمال الحاسبة، فباستخدام عقلك على حل مسائل رياضية بسيطة، تقوم بتنشيط خلاياه. قم بحل الألغاز والأحاجي فالعصف الذهني، يعمل على تنشيط خلايا الدماغ.

أما عن شخصية الإنسان فهناك عدة تعريفات يُمكن تعريفها بها؛ ومنها أنها مجموعة من أساليب التفكير والتصرف واتخاذ القرارات والمشاعر المتأصلة والفريدة لشخص مُعين. وبدأت دراسة وتحليل شخصية الإنسان من اليونانيين القدماء وبخاصة من أبقراط الذي اعتقد أن الاختلاف في الشخصيات بين بني البشر يرجع إلى اختلاف نسب ما وصفه بالسوائل الحيوية الأربعة وهي حسب أبقراط: الدم والمادة الصفراء من مرارة الإنسان والمادة السوداء من مرارة الإنسان والبلغم فعلى سبيل المثال اعتقد أبقراط أن "الشخصية الدموية" تكون ذات صفات متفائلة ومُحبة للمغامرة بعكس "الشخصية البلغمية" التي تكون غير مُبالية.

بعد أبقراط حاول أرسطو تحليل الاختلاف في الشخصيات فقام بتفسيرها حسب قسمات الوجه والبناء الجسمي للشخص فعلى سبيل المثال اعتقد أرسطو أن الأشخاص ذوي البنية النحيفة يكونون عادة خجولين. وقام داروين بتحليل الشخصية كعوامل غريزية اكتسبها المرء من غرائز البقاء الحيوانية أما سيجموند فرويد فقد حلل شخصية الإنسان بصراع بين الأنا السفلى والأنا العليا.

في الوقت الحالي يُعتبر عاملا الوراثة والمُجتمع المُحيط بالفرد من أهم العوامل التي تبني شخصية الإنسان ... كما عرف مورتون الشخصية بأنها حاصل جمع كل الاستعدادات والميول والغرائز والدوافع والقوي البيولوجية الموروثة وكذلك الصفات والميول المكتسبة ... كما يقول شن إن الشخصية هي التنظيم الديناميكي في نفس الفرد لتلك الاستعدادات الجسمية والعقلية الثابتة نسبياً والتي تُعتبر مُميزا خاصاً للفرد وبمقتضاها يتحدد أسلوبه في التكيف والتعامل مع البيئة المُحيطة به؛ ومن هُنا نجد أنه يوجد الكثير من النظريات التي تُحدد شخصية الإنسان؛ ولكنها وإن اختلفت في ظاهرها ولكنها تتفق علي عوامل أساسية في تكوين الشخصية وهي النواحي الجسمية: مما لا شك فيه أن النواحي الجسمية تؤثر في الحالة النفسية وبالأخص في الناحية الانفعالية والمزاجية التي تعتمد في أساسها علي التركيب الكيميائي والدموي ... وهناك أيضاً النواحي العقلية و تنقسم إلي العمليات والقدرات العقلية، فالعمليات العقلية هي كل ما يتصل بالإحساس والإدراك والتصور والتخيل والقدرة علي التفكير والتعلم أي كل العمليات التي يقوم بها العقل لتكوين الخبرات المعرفية، أما

القدرات العقلية فهي الاستعدادات التي يزود بها الفرد وتساعده علي اكتساب الخبرة مثل الذكاء

وأيضاً لدينا النواحي المزاجية والتي يُقصد بها الاستعدادات الثابتة نسبيا المبنية علي ما لدي الشخص من الطاقة الانفعالية مثل الحالات الوجدانية والطبائع والمشاعر والانفعالات من حيث سرعة استثارتها أو بطئها وقوتها أو ضعفها، والدوافع الغريزية تُعتبر هي أبرز نواحي الشخصية؛ كما يعتقد بعض علماء النفس أن الشخصية ما هي إلا نواحي مزاجية فقط؛ ولكن علماء آخرون أكدوا أن هُناك نواحي خُلقية ويُقصد بها العادات والميول وأساليب السلوك المكتسبة وتتكون الصفات الخلقية لدي الفرد نتيجة ما يمتصه من البيئة الخارجية التي تُحيط به سواء عن طريق المنزل أو المدرسة أو المُجتمع وهي أكتر مكونات الشخصية قابلية للتغير والتطور؛ ومعنا أيضاً النواحي البيئية والتي يُقصد بها بيئة جميع العوامل الخارجية التي تؤثر في الشخص من بدء نموه سواء كان ذلك مُتصلاً بعوامل طبيعية أو اجتماعية مثل العادات والنظم التربوية والظروف الأسرية والمدرسية.

وبسبب أهمية العقل البشري الذي وهبه الله لنا تطورت حياتنا وتوسعت حضارتنا؛ ولهذا يُلقي هذا الكتاب الضوء علي مزايا العقل البشري وجزء صغير من قُدراته الخارقة التي لا يعلم عنها أحد كي نصل إلي مقدار العلم والمعرفة التي توصل لها الإنسان بعقله الذي ميزه الله به عن سائر الكائنات الأخرى.

د. فوزي جمال الدين

الفصل الأول

السؤال الرئيسي حول الإنسان

ما نحن بنو البشر، أنت وأنا؟

لا أحد يعرف، فقد عرف الكثير عن الإنسان ولكن طبيعته الأساسية التى تحدوه بالشكل الذي يتصرف به مازالت سراً من الأسرار الغامضة، فالعلم الطبيعى لا يستطيع أن يفسر ما هى حقيقة العقل وكيف يعمل مع المخ،

ولا يستطيع واحد حتى أن يدعي العلم كيف تحدث الصحوة أو الشور، وأين يقع الفكر بين أنواع الطوار الطبعيية؟ إن النظريات الجردة أو الافتراض وحده معدوم في هذه النواحي.

إن هذا الجهل المطبق – حول من يعلم الكثير– منقصة، فلقد وسع العلم الطبيعي حدوده بنجاح في اتجاهات كثيرة، فقد اكتشف القطبين وذرى الأرض وأعماقها وكل عناصر المادة كما أزاح الستار عن تركيب الكواكب البعيدة وأطلق الذرة بقوتها المدمرة من عقالها، وها هو ذا يستكشف التركيب الدقيق للفيروس والطبيعة الغامضة للأمراض الفاتكة، فكيف غاب عنه أن يترك هذا السؤال الرئيسي وهو «أين مكان الشخصية الآدمية في نظام الكون»؟

فمما لا شك فيه أن مؤرخي القرن الحادي والعشرين ستثور دهشتهم عندما يروا أن الإنسان قد ترك مشكلته عن نفسه فترة طويلة بدون أن يركز بحثه فيها فقد استعضنا عن العلم بطبيعتنا بمعتقدات حولها، فحصل الكثير منا ونحن في الصغر أول معتقداته عن الإنسان وأنه مكون من قسمين أحدهما مادي وهو الجسد والآخر لا مادي وهو العقل والروح – وأن السلطان للروح وما الجسد إلا سكنى لها وأداة، وبالطبع لم نتحدثْ عن الروح إلا في أيام الأحد أو إن كان هناك جنازة، وفي باقي أيام الأسبوع فقد استبدلناها بكلمة الروح كلمة العقل لنعني نفس الشيئ، أماوجوه التفرقة الدقيقة بين الاثنين فلم تكن تعنينا.

وسواء كنا في المعبد أو في الشارع فقد كنا نلتقي بنفس هذه الفكرة عن الإنسان ونهضمها.

كان الرأي السائد أن العقل هو في الواقع الذى يتحكم في الإنسان وفي تصرفاته وبالطبع نمت ثقافتنا ومعاهدنا حول عقل الإنسان، ولم يقتصرْ الأمر على العوامل الاجتماعية كالمدارس بل تعداها في الحقيقة إلى كل طرائق حياتنا وعوائدنا وأخلاقنا ومباهجنا وأطماعنا وقيمنا الخلقية كلها قد انبثت على تلك العقيدة التى استحوذت علينا في الطفولة وهى أن للإنسان طبيعة مزدوجة وأن عقله هو المركز الحقيقي لشخصيته.

ويستمر هذا المعتقد المتوارث مع الفرد حتى آخر فترة المراهقة، أما بعد ذلك فلن يبقى إلا مع من تخلفوا عن التأمل أو إتمام التعليم العالي.

وحتى بين الشباب الذين يلتحقون بالدراسات العليا نجد البعض منهم مازال متمسكاً وفاء بمعتقداته الأولى خلال سني دراسته الجامعية وفي بعض التراخى في حياته بعد ذلك.

ولكن الاتجاه العام ينحو بعيداً عن الطبيعة المزدوجة أو الروحية للإنسان، فحين يدرس الطالب العلوم الطبيعية التى تتعلق بالإنسان وأصله وتطوره وحين يعلم الصلة الوثيقة بين السلوك والمخ وحين يرى إلى أي مدى تتحكم الغدد في شخصية الإنسان بالعوامل الكيميائية حينذاك تبدأ معتقداته في التزحزح، وسيجد أن الطفل ينضج حين ينمو مخه وأن هناك اتصال بين وظائف عقلية خاصة وبين مناطق محدودة في المخ، فإذا أصيب تعطلتْ هذه الوظائف وسيبدو أمام ناظريه أن الفكر والمخ يسيران متحاذين حتى ليصل الباحث الصغير إلى التفكير في أن المخ هو مركز التحكم في السلوك، وهذه هى المرحلة الثانية فيما يعتقده الإنسان، والمخ بطبيعة الحال قابل للدراسة بالطرق الطبيعية، وأن الخلايا العصبية التى يتكون منها هى جزء من عالم المادة والطاقة، أما العقل فلا سبيل إليه، فمن أي شيء يتكون؟ وما هوإن لم يكنْ من طبيعة المادة؟ يبدو أنه وظيفة للمخ أي مظهراً من مظاهر المخ وهو يعمل، وعلى هذا نصل إلى أن الإنسان مادة صرفة، وأن العقل ما هو إلا تجلي المخ حين ينشط، وهذا التفسير يعاون على أن نرتب معلوماتنا عن الأشياء في نظام واحد بدل نظامين.

وعلى هذا ينهي الطالب دراسة العلوم الطبيعية وقد تبخر الكثير من معتقداته الأولى عن الإنسان، وقد يحدث هذا التغيير بالتدريج وبدون جلبة وحتى عن غير قصد وفي الواقع أن هذا التحول من معتقد لآخر يكون في معظم الأحوال اتجاهاً مستوراً استجابة لآراء المدرسين والكتب كما قد يكون مبعثه الإيحاء، مثل إيمان الطفولة بمعتقدها القديم عن الإنسان. والحقيقة أننا لا نسمع غير القليل حول مشكلة كياننا.

ولسوء الحظ أن مناقشة المعتقدات عن طبيعة الإنسان الأولى أو جلبته محرمة داخل المدرسة وخارجها، وكانت النتيجة أن ندر أن يخرج السؤال حول العقل والإنسان إلى الضود، وبعض أقسام المجتمع تؤمن بالطبع بالرأي التقليدي وأولها المعاهد الدينية التى تتخذ العالم الروحي أو اللامادي أساساً لتفكيرها، وحين تجهد هذه المعاهد نفسها في تخريج فريق من الوعاظ الشبان وقد غرست في نفوسهم الإيمان بأن العقل أو الروح هى التي تتحكم في حياة الفرد نجد المعاهد الطبية، وقد تكون على مرمى حجر منها، لا تؤمن بشئ إلا بالعمليات الجسمانية الطبيعية حين تعد أطبائها الشبان – حتى طبيب الأمراض النفسية الناشئ يدفع باستمرار لأن يعتمد على الحقنة والمشرط وجهازه الكهربائي في اشتغاله بالمخ لا بالعقل.

ومن الطبيعى أن يكون علم النفس هو ميدان هذه المشكلة، وتعرف علم النفس هو أنه يقوم على دراسة طبيعة العقل أو النفس ولو أن علم النفس قد فقد الاهتمام بالنفس منذ زمن طويل حتى كلمة «العقل» حين يستعملها العامة للدلالة على شئ يختلف عن المخ فقد فقدت حظوتها.

وعلى ذلك فلن يجد الطالب شيئاً عن الروح في كتب علم النفس الحديث ومحاضراتها وقد يجد القليل جداً عن العقل حقيقة مستقلة بذاتها، وبدلاً من ذلك فهو يدرس «السلوك» وعلاقته بالمناطق الموجودة في المخ والطرق المتفرعة منها، وأصبحت العلاقة بين العقل والجسم «موضة» قديمة وأن الرأى القائل بالطبيعة الثنائية التى تجعل العقل له كيانه المستقل وأنه يتفاعل مع المخ وأنه إلى حد ما يؤثر على نشاطه رأى قد عفي عليه الزمن في علم النفس.

ومن بين علماء النفس وفلاسفته نجد أولئك المحامين القدامى عن الطبيعة المزدوجة للإنسان من أمثال ويليام جيمس وويلم مكدوجال وهنرى برجسون وهانز دريس قد اختفوا من على المسرح ولم يحلْ محلهم من يباريهم وأصبحت النظرية التى تبنى الشخصية على أساس الروح موضوعاً في تاريخ علم النفس.

ولكن العجيب حقاً أنه لم يزعمْ أحد أنه أوتى البرهان على أن للعقل أساساً مادياً، فلا توجد هناك نظرية مادية تفسر عمل العقل الواعى، ومن المدهش أن يسلم علم من العلوم برأى عن العقل لم يدعمه دليل إيجابى ولا حتى افتراض لم يجربْ ليفسر هذا الرأي، وهذا لا يكون إلا من شأن العقيدة أو إيمان التسليم، ولكنه أصبح علماً على الدوائر العلمية ومعاهدها كما أن الإيمان بالروح علم على المعاهد الدينية.

ولم يحسمْ إيمان التسليم القائم على غير تحقيق شيئاً بصفة نهائية.

فلقد اختلف المفكرون في أيام جاليليو وكوبريدكس في هل الأرض مركز العالم، أو أنها الشمس؟ وحسمت هذه المشكلة لا برأى مفروض بل بالبحث، وعلى هذا يجب على مفكرى زماننا أن يحسموا بنفس الطريقة مشكلة السيطرة على عالم الفرد هل هو عقله الخاص المجرب أو مخه العضوى؟ فبالبحث وحده تتقرر صحة حكم المخ ولن يجدى في ذلك رأى يفرض، وأى عقيدة مهما كان نوعها لا يمكن أن تكفي في قيادة البشرية.

وبعكس الخلاف السابق في مشكلة الأرض والشمس فإن مشكلة الإنسان هذه لا تحتمل الإرجاء، فعليها سعادة الإنسان وحياته. فالتخبط الحادث الآن في صلاتنا الإنسانية الحالية مرجعه بوضوح إلى سبب رئيسى واحد هو أننا لا نعرف كيف نعامل الناس وعلى أى مبدأ وعلى أى فلسفة إنسانية وعلى أى افتراض لطبيعة الإنسان، فليس لينا من العلم ما يكفي بل كل ما لدينا أفكار وعقائد متضاربة.

خذ مثلاً حفنة من مشاكل الساعة الملحة التى تواجهنا، ما موقفنا من المنهزمين؟ والمنحرفين؟ والأقليات العنصرية؟ وحلفائنا القدامى؟ ومنافسينا في تجارتنا العالمية أو المحلية؟ وموظفينا وسلطاتنا الإدارية؟ والمجرم الذى تثبت إدانته؟ والمتعطل؟ وجيراننا الذى أضناهم الجوع في الوطن وخارجه؟ فلا أحد يعرف الإجابة بصفة مؤكدة، ومن الواضح أن معاملتنا لهؤلاء الناس تتوقف على ما نعتقده حول طبيعتهم، ولكن هذه المعتقدات في أساسها متضاربة مشوشة.

أين هو الطبيب الذى يمكن أن نطمئن إلى علاجه لمريض لا يعرف طبيعة مرضه؟ وكيف يكون مهندساً من لا يلم بطبيعة خواص المواد التى يستغلها وكيف يتسنى لنا أن ندرب الناس ونقيمهم ونقومهم كأفراد أو جماعات ونحن ما زلنا في جهالة عن حقيقة أبسط إنسان؟ ولم يعد حتى ما نجمع على الإيمان به.

وقد قامت منشآتنا الاجتماعية على أساس أن للإنسان عقلاً وروحاً ولكن علم النفس الحديث لا يرى إلا المخ ونشاطه، والهوة بين الرأيين عميقة وأساسية، فثقافتنا مثلاً تفترض أن العقل منفصل عن الجسد المادى بما يسمح بحرية الإرادة وهذه تعنى أن للعقل قوانينه الخاصة وعلى ذلك فهو لا يخضع للقوانين التى تحكم الجسم والبيئة أولاً يخضع لها كلها، فهى تسمح له ببعض الحرية بين قوانين الطبيعة الحتمية وببعض الاستقلال في العمل، ولكن نظرة طبيب الأمراض العقلية للشخصية نظرة تُبنى على قوانين المادة ولا تترك مجالاً للحرية إطلاقاً فما عندهم إلا نظام احد للمسببات ونوع واحد للقوانين التى تحكم العقل والجسد.

لهذا كان من المحتم علينا وعلى المجتمع بصفة عامة أن يعلم إذا كان العقل وظيفة من وظائف المخ أم لا، فبدون حرية الاختيار تنهار فلسفاتنا الاجتماعية، وبدون حرية الإرادة لن تكون هناك أخلاق أو ديمقراطية حقيقية، حتى العلم نفسه لا يمكن أن يصبح استطلاعاً حراً، فإذا كانت الحياة العقلية كلها نتاج فعل قوانين المادة في المخ فلا مناص للخروج على

قوانين المادة في أى تصرف للسلوك الإنسانى فالحرية وهم حينذاك وعلم الأخلاق إن خضع لقوانين المادة أصبح احتيالاً.

والعلاقات الإنسانية الآن في مأزق سيؤدى إلى ما لا يمكن التكهن به من الشقاء والخراب إن فشلنا في اكتشاف طريق أفضل لفهم البشرية وقيادتها فلقد فقدت المعتقدات القديمة كثيراً من سلطانها على النفوس ولم يحلْ محلها جديد محصته التجربة، وحان الوقت للعمل.

وأول ما يجب عمله أن نستعرض مشكلة طبيعة الإنسان.

والمشكلة ليست جديدة، ولقد عرضتها هنا على أنها مشكلة الطالب حين يستقبل الجامعة ولكن المشكلة أصبحت مشكلة الجنس البشرى بأكمله حين وصل إلى مرحلة النضوج العقلى والتشابه بين المثلين وثيق.

ففي العهد الماضى حين كانت البشرية تدرج في طورى الطفولة والمراهقة كان الاعتقاد السائد في العالم أن للإنسان طبيعة مزدوجة فله جسد تحكمه روح أو عقل، من طبيعة غير مادية، ولما وصل النمو الثقافي إلى مرحلة التفكير العلمى المنظم النقاد كما حدث في القرون القليلة الماضية حدث للعالم المفكر في جملته ما يحدث للطالب حين يواجه مرحلته الجامعية، وفقد الإنسان المفكر عقيدته في طبيعته الروحية، وحطمت الاكتشافات الثورية العلمية وخصوصاً في القرن التاسع عشر فيما يختص بعلم الأحياء الصورة المتوارثة عن الإنسان ومكانه في النظام الطبيعى، وفي

عملية تنسيق المكتشفات العلمية في نظام موحد للكون أخرج العقل منه ككيان واقعى مستقل، فلا مكان له في الصورة الآلية الجديدة التى رسمت للعالم.

فإذا دخل العلم الطبيعى خرج الاعتقاد المتوارث في طبيعة الإنسان الروحية وتشبع علم النفس – السيكولوجيا – بالمدركات المادية، وتطورت الآراء المادية عن الإنسانية من مادية فجة إلى نظريات أساسها علم الطبيعة الحديث يسود فيها الأساس المادى ولم يعد مسموحاً في العلوم الطبيعة بأى شيء كان لحقيقة غير مادية كان الناس يسمونها الروح، وكبرت هذه الناحية إلى حد أن أصبح الآن أولئك العلماء القلائل الذين يؤمنون بالروح موضع الدهشة من قرنائهم إذا أعلنوا عن هذه العقيدة.

ولكن هناك بعض الخطأ في هذه الصورة التى تكونت في القرن التاسع عشر، فلقد تجاهل القوم وهو يضعون هذه الصورة العلمية للإنسان بعض الظواهر النادرة في طبيعة الإنسان وتركوها كالعادة لأنها لا تتناسق مع بقية الصورة، وفي الواقع أن إدخالها في الصورة كان سيغير الطابع برمته.

هذه الظواهر هى أول قصة هذا الكتاب، ولقد تجاهلها العلم الطبيعى المتشدد ببساطة لأنها كانت قليلة ونادرة وصعبة التحقيق.

ولكن علماء قلائل حفزتهم شجاعتهم على قبول التحدى واستجلاء طبيعة هذه الظواهر والمزاعم التى أحاطتها، وكما سترى فقد أحدثت النتائج انقلاباً.

وهذه الظواهر المنوه عنها هى ما يسمى «بالظواهر الروحية» وأصبحت دراستها تسمى بالمباحث الروحية، وهم يطلقون عليها الآن في الدوائر الجامعية الأمريكية – الباراسيكولوجى – أو ما وراء علم النفس أى علم الظواهر العقلية التى تخرج عن نطاق المبادئ المعترف بها.

ولقد قامت جمعيات لا أكاديمية «أى البعيدة عن الدوائر العلمية الجامعية» في مختلف البلدان لتشجيع هذا البحث، وأقدم هذه الجمعيات هى جمعية المباحث النفسية التى أنشئت في إنجلترا في عام ١٨٨٢، وبدأت هذه البحوث وظلت عدم أعوام بعد ذلك تقوم بعيداً عن المعامل الجامعية وتحت إشراف هذه الجمعيات فقط ولقد كان عمل هؤلاء الرواد هو الذى وجه الأذهان إلى إمكان دراسة طبيعة الإنسان الأساسية دراسة علمية.

والقصة التى أمامنا في هذا الكتاب هى قصة هذا الفرع من البحوث وهى قصة بحث ناقص رائد تضاربت فيه الأقوال مازال يقرع أبواب الهيئات العلمية الرسمية المتحفظة مطالباً بالاعتراف به، وتدور القصة حول نفر من الرواد المتفانين المبعثرين في أماكن شتى «أى هنا نقصد الولايات المتحدة» وفي الخارج والذين عملوا طوال السبعين سنة الماضية وما وصلوا إليه حول الإنسان مما ييسر لنا أن نرى المكان الحقيقى للإنسان في ناموس الوجود، وتقص علينا التجارب التى أجريت والأدلة التى نتجت وتقلب

البحث بين الفشل والنجاح والصعوبات التى لقيها والانتصارات التى أحرزها ومعنى هذه النتائج والمشاكل التى مازالت معلقة، والحكم الأخير يجب في النهاية أن يترك للقاريء ولكن لا يفوتنا أنه أصبح لدينا ثروة كبيرة من المكتشفات.

وفي الفصول القادمة سنعنى بكثير من الألغاز، والباحث العلمى يقبض على الظواهر التى لا يمكن تعليلها كما يقبض على كنز انفتح له فجأة.

وكلما أوغل اللغز في التعمية والغموض كلما فتح لنا سبل الهداية حتى نصل إلى فهمه، والنتيجة الموعودة لهذه الألغاز التى نعالجها هنا هى أنها ستقودنا إلى اكتشاف مجالات أوسع وأرحب لسيطرة العقل الإنسانى المتوغلة في كيان الزمان والمكان والمادة التى نسميها الوجود.

الفصل الثانى

أول الخطى في طريق الإجابة: التلباثى

انتقال الفكر

كانت ظاهرة انتقال الفكر أولى القدرات النفسية التى درست.

وكان الاستنتاج المنطقى أنه إذا كان من الممكن أن تنتقل الفكرة من عقل إلى آخر بدون استعمال الحواس فلابد أن للإنسان قدرات عقلية تزيد على مجرد آلية المخ،

وعلى ذلك فدليل انتقال الفكر كافي لأن يدحض المادية ونظريتها الجامدة عن العقل، وفي فترة الاضطراب الفكرى التى خلفها القرن الماضى كانت الأمل الباقى، وانصب البحث عليها بنشاط دون غيرها من الظاهر في نهاية القرن الماضى.

والاعتقاد في انتقال الفكر قديم قدم الإنسانية، ويمكن الافتراض أنها كانت معروفة في الدهور الأولى نظرا لأن قراءة الفكر كانت تنسب إلى الآلهة، وقد كانت التلباثى لها أهميتها في عهد الإغريق القدماء لدرجة أن ديموقراط وضع لنا نظرية وهناك أمثلة كثيرة على وجود ما يبدو أنه اتقال فكر بين بعض الناس وهى توجد في كتب الأدب القديم، وخصوصاً المتعلقة بالدين وبمنشأ الطوائف.

وهذه الأمثلة لا تعدو أهميتها الأهمية التاريخية، وهى ليست من قوة الأثر وشدة الحجة مثل كثير من الحالات الحديثة التى يمكن الاعتداد بها، ولكنها على أى حال توضح الحقيقة في أن الاعتقاد في التلباثى جزء من الثقافة الموروثة للبشرية.

وكانت أولى التجارب في التلباثى المتصلة بالتنويم المغناطيسى، ففي أثناء تنويم بعض الوسطاء اكتشف بعض المجرين بعض النتائج التى يمكن إرجاعها لانتقال الفكر بين المنوم والوسيط، وكان من الطبيعى الافتراض بأن هذه الظاهرة هى مظهر من مظاهر النوم المغناطيسى نفسه وعلى هذا الافتراض أجريت عدة تجارب، وخرجت من دراسة لتنويم عدة أنواع من التجارب على التلباثى.

فمثلا اكتشف الطبيب الفرنسى الدكتور . أزام أن إحدى مرضاه يبدو عليها أن تستجيب للأفكار غير المنطوقة حينما تكون هذه المريضة تحت التنويم المغناطيسى، فقام بإجراء بعض التجارب ليقرر هل تشعر هذه المريضة بإحساسه حين يتذوق بعض الأشياء، فاتخذ لنفسه مكاناً لا يمكن أن تراه فيه الوسيطة ووضع في فمه مادة لا رائحة لها كملح الطعام، وعلى الفور أعلنت الوسيطة أنها أحست بنفس الطعم وأعلنت اسمه الصحيح، ولقد قرر الدكتور أزام أن وسيطته استجابت بدقة لعدة مواد لا طعم لها أجريت عليها مثل هذه التجربة.

واكتشف مجرب آخر أن الشعور بالألم يمكن أن ينتقل إلى الوسيط بنفس الطريقة فقد لاحظ عفواً أن الوسيط يتصرف في بعض الأحيان كما

لو أنه شعر بآلام المنوم، وأجريت الجارب على وخز المنوم في عدة أماكن من جسمه ثم سؤال الوسيط عما يشعر به وطبقاً لما ورد في هذه التقارير كان الوسطاء يجيبون بأنهم شعروا بالألم ويحددون موضعه حتى ولو كان المنوم في غرفة أخرى لا يمكن أن يراه فيها النائم.

وقد قام طبيب الأمراض العقلية الذائع الصيت الدكتور بيير جانيه من جامعة السوربون ببعض هذه الاختبارات كما قام أدموند جورنى من جامعة كمبريدج– وهو أحد مؤسسى جمعية المباحث الروحية القائمة حتى الآن– بالبعض الآخر.

وكانت أبرز التجارب علانية تلك التى كانت تقوم على التنويم من بعد، وقد قام كثير من الأطباء الفرنسيين ومنهم الدكتور جانيه نفسه بإحداث التنويم المغناطيسى على وسطائهم من مسافات بعيدة يستحيل معها أى اتصال بينهم بالحواس، وفي سلسلتين من التجارب التى أجراها جانبه، كانت أنجحها التجربة التى استطاع أن ينوم ثمانية عشر من خمس وعشرين تنويماً تاماً في الوقت المحدد وفي أربعة أخرى نجح جزئياً، وقد كان التنويم في أوقات غير منتظمة وعلى غير توقع.

ورغم هذه التجارب الناجحة فلم يكنْ لها أثر في وقتها، وقد امتنع عن نشر تقرير عنها ربما خوفاً من انتقاض زملائه عليه، وكانت أبعد من ذلك أثراً وإن كانت أقل إثارة تجارب التنويم بالتلبانى التى أجراها الأستاذ هنرى سيدجويك من جامعة كمبريدج وزوجته.

ولم تكتف أسرة سيدجويك بالإعلان عن نتائجها بل قادت تلك التجارب بطرق أدق عما كان معهوداً في مثل هذه التجارب حتى الآن فكان بعض هذه التجارب يجرى والمرسل في غرفة والمستقبل في غرفة أخرى، وكان موضوع التجارب للتلبانى أعداد مكونة من رقمين وكانت هذه الأرقام تسحب بغير نظام بواسطة المنوم الذى كان يقوم بدور محطة الإرسال وكان على النائم الذى يقوم بدور محطة الاستقبال أن يعرفها.

وميزة هذه الأرقام المسحوبة خبط عشواء أنه يمكن إخضاع تجاربها للتحليل الرياضى وبذلك تسهل مقارنتها بالإجابات التى تمليها الصدفة وحدها ولكن كان عدد الإجابات الصحيحة ملفتاً للنظر أى أنه كان أكبر من تلك التى تمليها الصدفة، وعلى ذلك فقد استنبط هؤلاء المجربون من تلك التجارب دليلاً على التلبانى.

وكان استعمال قوانين الصدفة في هذه التجارب تقدماً كبيراً في طرق الاختبار ومن المؤكد أنه لولا استعمال طرق القياس الرياضية لكان الكثير من هذ التجارب عرضة للتعصب في تفسيره حتى لا تستطيع التلبانى أن تقف على أقدامها بثبات، والفضل في استعمال طرق التحليل الرياضية والاستفادة من قوانين الحظ يرجع لعالم الفسيولوجيا الفرنسى ريشيه الذى سبق أسرة سيد جويك في تطبيق قوانين الصدفة على تجارب التلبانى وإن كانت تجاربه لم تخضعْ للتحكم الدقيق الذى أظهرته الأسرة المذكورة.

وقد أدخل ريشيه استحداث آخر في تجاربه وهى أنه لم يكنْ يستعمل التنويم في بعض تجاربه وقد وجد أن التنويم ليس ضرورة

لنجاح انتقال الفكر، وقد أجريت عدة تجارب على التلبانى في حالة الصحوة العادية في الربع الأخير من القرن الماضى وما أسرع أن اتضح أن التلباثى والتنويم المغناطيسى ليس من الضرورى أن يكونا عن صلة، وأن التلباثى عملية مستقلة يمكن أن تحدث في حالة التنويم أو بغيرها، بل إن حالة التنويم نفسها لم يكنْ من المؤكد فائدتها لهذه العملية.

وقد كان الربط بين التنويم والتلبانى خطأ أفاد الباراسيكولوجى • علم ما وراء النفس• فقد نقل مشكلة انتقال الفكر إلى حيز الدراسة التجريبية.

وحين جاء الوقت الذى ظهر فيه أنهما يختلفان كانت التلباثى قد استخلصت لها مكاناً في البحث ثم انسابات البراهين على التلبانى من بلدان عدة، فكثير من التجارب قام في إنجلترا وبعضها في أمريكا ومقدار كبير في القارة الأوروبية وخصوصاً في فرنسا.

ولكن كانت هناك تقارير من السويد وبولندا وألمانيا وروسيا عن دراسة تجريبية للتلبانى.

وبدأت التجارب تتغير عندما دخلت فيها المعادلات الرياضية الخاصة بالحظ، وعلى ذلك فقد استعمل كثير من المجربين كروت اللعب «الكوتشينة» أو أرقامها لأنه كان من المعروف معادلة الحظ بالنسبة للكروت فكان من السهل تقدير قيمة الأجوبة الناتجة من التلبانى وعلى أى حال فقد استمرت الطريقة على حالها فكان المرسل ينظر في الكارت

المستقبل يحاول أن يدل عليه، وفي التجارب التى خضعت للتحكم الدقيق كان طرفا التجربة موضوعات في مكانين منفصلين حتى لا تكون بينهما وسيلة للتفاهم بواسطة الحواس.

ولكن بعض الباحثين استعملوا طرقاً أخري، فقد كان على المرسل أن يخطط رسماً ويركز انتباهه فيه وعلى المستقبل أى حاول أن يستعيده بما يمكنه من الدقة، وبالطبع لم يكنْ هناك فرصة للتقدير الكمى ولكن كانت الأجوبة الصحيحة تعلن بواسطة مقارنة الرسمين وهذا هو النظام الذى اتبعه الأستاذ أوليفر لودج ومعاونوه في الربع الأخير من القرن الماضى حينما كان لودج أستاذاً حديثاً في علم الطبيعة في جامعة ليفربول.

واستعمل الأستاذ النابه جلبرت مورى من جامعة اكسفورد طريقة أخرى فقد كان هو نفسه المستقبل لرسائل يبعث بها أعضاء جمعية المباحث الروحية وخصوصاً حرم الأستاذ سد جويك، وكان يفضل أن يركز المرسل انتباهه في أشياء لها معنى ولون، خلاف الكروت والأرقام في شيء مثل حادثة تاريخية أو منظر تاريخى، ولقد كان نجاحه وخصوصاً إذا كان المرسل ابنته شيئاً لا يمكن الخلط فيه حتى أنه لم تعد هناك حاجة للتقدير اليراضى لمثل هذه التجارب.

وكان هناك نوع آخر من تجارب التلبانى، ولم يكنْ النجاح احتكاراً لطريقة أو لمجرب دون آخر.

ولما انتشرت التجارب وتنوعت ظهر في كثير من الناس رجالاً ونساءً وشيوخاً وشباناً عاديين ومختلى الأعضاء، جهلة ريفيين وأساتذة نوابه من الجامعات، ظهر دليل على وجود هذه القدرة لديهم، وكان من نجوم هذه التجارب المبكرة اللامعين طفل في الثانية عشرة وسيدة عجوز في السبعين، كما تساوى الفلاح البسيط مع أستاذ الجامعة.

واستقبل العلماء الضيف العلمى الجديد وهو التلباثى أسوأ استقبال فالمكتشفات الطريفة الغريبة من النادرالترحيب بها، وفي عام ١٨٧٦ حينما حاول الأستاذ «الذى منح لقب سير بعد ذلك» ويليام باريت أن يعرض بعض تجاربه أمام الاتحاد البريطانى لتقدم العلوم، فاستقبلت رسالته بالسخرية ورفض الاتحاد أن ينشرها.

ومن الغريب حقاً لا تجد اسماً لعالم من علماء النفس بين أولئك المجربين الأوائل «وجانيه كان طبيب عقلى»، ولكن اختفاء أسمائهم في هذه التجارب الأولى للتلباثى يقابله المثل في التنويم، فعلم النفس – السيكولوجى – كمهنة، لم يكنْ لها يد ولم تعر إلا اهتماماً تافهاً لأحداث الرواد في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وكان من النادر في ذلك الوقت الاعتراف بعلم النفس ذاته كعلم وكان مركزه في منتهى الحرج.

وكان مستواه المشكوك فيه كفيلاً بصد أى محاولة جريئة لارتياد الأمور المشتبهات، وحينما نتذكر أن عالم النفس – السيكولوجى– وقف بمنأى عن المشاكل العلمية في ميدان الأمراض العقلية حتى وجه جانيه وفرويد وبعض أفراد المهنة الطبية الانتباه بقوة إلى هذه النواحى يمكننا أن

نقدر موقف التردد الذى وقفه العلم الوليد – السيكولوجى – في ذلك الأوان، فقد اكتفي بدراسة المواضيع التى لا ضرر منها تاركاً المواضيع الكبيرة والتى هى موضع الجدل وشأنها.

وقد كان وليام جيمس من أبرز الشاذين عن هذا الاتجاه، فمع أنه لم يكنْ مجرباً بنفسه فقد وقف بما عرف عنه من صراحة مع أبحاث التلبانى التى كانت تجرى في وقته، وعمل الكثير ليشجع أولئك القائمين على هذه الأبحاث.

وبعد ذلك جاء ويليام مكدوجال الإنجليزى واعترف بأثر ويليام جيمس فيه وكان هو نفسه أبرز أبطال علم ما وراء النفس – الباراسيكولوجى – بين علماء النفس في القرن العشرين، وجاء بعدذلك سيجموند فرويد، س.ج، ويونج وبعض أطباء العقول الأفذاذ فخذوا حذوهم في الانضمام إلى تلك الفئة المختارة من أنصار التلبانى، ولكن في القرن التاسع عشر وقف ويليام جيمس وحده وجاءه من علماء النفس النقد بدل التأييد، فاثنان من علماء النفس الهولنديين هما أ. ليهمان. ف. س. س هانس انتقدا التجارب التى أجرتها جمعية المباحث الروحية وقدما اقتراحاً بأن النتائج التى حدثت كانت نتيجة للهمس اللا إرادى من المرسل وهو يركز انتباهه في أرقامه أو كروته، وافترضا أن لهذا الهمس أحس به العقل الباطن للمستقبل.

ولكن الأستاذ ليهمان اقتنع بعد الجدل الذى أعقب تفسيره أن هذا التفسير لا يمكن أن يبرر تفسير كل الأدلة التى حصلت عليها التلبانى.

وهذا الإقرار الكريم جدير بالإشادة فمن النادر أن يحدث مثل هذا في موضوع جدلى.

وكان الاتجاه العقلى لهذه الأيام ضد التلباثى وبقوة، فمن النادر أن يوجه العلم الطبيعى انتباهه لشيء لا يحمل طابع المادية، فالنظرية الآلية في علم الحياة للدكتور جاك لويب والمسلكية في علم النفس للدكتور جون. ب. واطسن مضافة للنظرية الآلية المبسطة للوجود التى أذاعتها مؤلفات العلماء من أمثال أرنست هيكل في كتابه «لغز الوجود» تبرز اتجاه الفكر العلمى في العشرين عاماً الأولى من القرن العشرين.

فقد كان على عالم النفس الذى يريد أدلة على التلباثى أن يتذرع بشجاعة نادرة، ولم يفعل ذلك أحد، فقد أجرى الدكتور جون. أ. كوفر من قسم علم النفس في جامعة استانفورد بعض تجارب التلباثى حوالى عام ١٩١٥، وحصل على دليل يثبت وجود القدرة على التلباثى بين طلبة الجامعة الذين اختبرهم، ولكن كوفر تراجع عن أن يعترف بما حصل عليه من مكتشفات وحين أبرز آخرون معنى ما حصل عليه من نتائج حينما راجعوها آثر هو أن يترك المعنى يستقر في النفوس على أنه فشل في الحصول على أى دليل فإذا روجع في ذلك آثر السكوت، وحتى في بعض الأوقات التى لم تكنْ فيها الأخطار بذلك القدر كان هناك بعض علماء النفس الذين آثروا ألا يعرضوا أنفسهم للمخاطر بنشر الأدلة التى تؤيد التلباثى.

وتقع مسئولية هذه الحالات على المهنة نفسها كما تقع على الأفراد بذواتهم.

وابتدأ الاهتمام بالتلباثى يتزايد بعد ١٩٢٠، وهو في هذا يحذو حذو الاهتمام بعلم الأرواح الذى تأثر به بدون شك، فقد كان الهلاك الهائل والحزن الشامل الذى حدث في الحرب العالمية الأولى وما تلاها من عدم استقرار واهتزاز في القيم، من المسببات التى لاشك فيها في تحويل أفكار الناس، نحو احتمال وجود قوى لا يعرفها العلم الطبيعى، فأحس أناس لا حصر لهم بالحاجة إلى تفسير للحياة والموت أعم وأشمل من ذلك التفسير المادى وقد أجريت تجربة جماعية للتلباثى بواسطة الراديو من محطة إذاعة زينيت بشكاغو عام ١٩٢٣ وبعد ذلك بقليل أجرت الإذاعة البريطانية تجربة أخرى وبعد ذلك أجرت مجلة سينتفك أمريكان برنامجًا للاختبار الشخصى في التلباثى كما كان هناك عدة مظاهر أخرى لاهتمام الرأى العام.

فقد أجريت أبحاث كثيرة قام بها أفراد، فالمهندس الفرنسى رينيه واركوليه والطبيب الألمانى الدكتور كارل بروك ومدرس العلوم الأستاذ رودلف بدتيشنر والكاتب الأمريكى الذائع الصيت ابتن سنكلر كلهم أجروا تجارب على التلباثى وأضافوا أدلة مهمة جديدة للمحصول الكبير الموجود من الأدلة، وفي معظم هذه التجارب كان المرسل يركز انتباهه في شيء أو رسم لشيء كهدف، كما كان المستقبل، وفي معظم الأحيان كان في غرفة أخرى أو على مسافة أبعد من ذلك يحاول أن يرسم الشيء أو أن

يصفه بالكلام، وفي بعض تجارب سنكلير الممتازة كان المستقبل زوجته وكانت على بعد أميال من المرسل ولقد كان تأثير تجارب سبكلير على ويليام مكدوجال وألبرت اينشتين كافياً لدرجة أن يطلبا من الهيئات العلمية أن تعير سمعها لكتاب سنكلير «الراديو العقلى» كما كان للمجربين الآخرين من يناصرهم فقد أثنى هانز دريش على أبحاث تيشنر الثناء الجم، كما قدم جاردنر مير في ترجمة من كتاب فاركولييه «تجارب في التلباثى» إلى القراء في أمريكا.

وبين ١٩٢٠ –١٩٣٠ كانت هناك تجربتان جامعيتان هامتان في التلباثى وأجريت هاتان التجربتان في معامل علم النفس، واحدة في أمريكا والأخرى في أوروبا، وكل منهما قد أدخلت معالم جديدة في أبحاث التلباثى وكلاهما تستحق الذكر لأنهما ليست لهما شهرة بين الجمهور.

وكلتا التجربتين قد أجريت بعلماء شباب تحت رعاية الكبار من العلماء الذين برزوا في الميدان عنهم، والتجربة الأوروبية أجراها الدكتور هـ. ج. ف. و. بروجمانز تحت رعاية الأستاذ ج. جيمانز في جامعة وننجن في هولندا، والتجربة الأمريكية أجراها الدكتور ج. هـ استابروك في جامعة هارفارد تحت رعاية الأستاذ مكدوجال وكان حديث الانتقال من جامعة أكسفورد إلى هناك.

والتجارب الهولندية أجريت على وسيط واحد هو طالب في الجامعة وجد أن له قدرة خاصة واستعملت طريقة فذة كما أحيطت الاختبارات باحتياطات معقدة، فقد عصبت عينى الوسيط وأجلس إلى مائدة، وقد

وضع على المائة أمامه لوحة كلوحة الشطرنج بها ٤٨ مربعاً لكل مربع رقم أو حرف يميزه، ووضعت ستارة كثيفة بين الوسيط وهذه اللوحة ومد ذراعه الأيمن خلال الستارة واستقر على اللوحة، وفي حجرة أعلاه جلس المجرب ناظراً من ثقب في أرضية الغرفة يقع فوق اللوحة مباشرة، وقد أغلق الثقب بلوحين من الزجاج بينهما هواء، وكان المجرب يمكن أنيرى أيدى الوسيط ولكن لا يرى الوسيط نفسه.

وأجريت محاولة كالآتى: – من حقيبة مليئة بالحروف من الألف إلى الياء وحقيبة أخرى مليئة بأرقام من واحد إلى ستة يسحب المجرب عفواً أى حرف وأى رقم ثم ينظر في ثقب الأرضية ويتجه ببصره إلى اللوحة محدداً المربع المطلوب كى يؤشر على المربع، ويطلب من الوسيط أن يحرك يده في حرية وحين يحس أنه حدد المربع المطلوب ينقر عليه نقرتين، من بين ١٨٧ محاولة نجحت ٦٠.

وعلى أساس قانون الحظ كان المفروض أن تنجح ٤ محاولات، ولم يكنْ هذا النجاح الذى يلغى أى دخل للحظ في تفسيرها فقط، بل كانت هناك اكتشافات تستدعى الاهتمام خارج نطاق مشكلة حدوث التلباثى، فمثلاً وجد أن الوسيط ينجح أكثر لو كان المجرب في حجرة أعلاه لا معه في نفس الحجرة، وكانت مرات نجاحه أكثر إذا أعطى قليلاً من الكحول، ثم وجد اكتشاف مهم لم يكنْ المجرب يبحث عنه ذلك أن الوسيط فقد قدرته على النجاح، وقد عللت هذه النتيجة بقلق الوسيط على دراساته.

وفي تجربة جامعة هارفارد استعملت الكوتشينة العادية وكانت غرفة المجرب وغرفة الوسيط في نفس الدور وبينهما باب مزدوج بدل الثقب المزدوج ذى الغطائين الزجاجيين واتخذ استابروك من طلبة الجامعة وسطاء في أغلب الأحيان، وقبل التجربة كان استابروك يقوم ببعض ألعاب الحيل بالكوتشينة أمامهم كنوع من الترفيه الذى يحمسهم للتعاون في التجربة وهذه نقطة مهمة وهى محاولة المجرب أن يجعل التجربة مشوقة.

وقام استابروك بنفسه بدور المرسل وكانت طريقة التجربة كالآتى: فحين يقطع استابروك الكوتيشنة بعد أن يفنطها يعطى إشارة بواسطة مصباح كهربائى تدل على أنه مستعد ثم ينظر في الكارت الذى ظهر من القطع وعلى الوسيط حينئذ أن يعين الكارت الذى يفكر فيه استابروك، وفي كل مرة كان يجرب عشرين كارتًا، وبعد ثلاث وثمانين محاولة من هذا النوع حسب استابروك حصل عليه من نتائج فوجد أن مجال الحظ في نتائجه لا يعدو واحداً في المليون.

كما وجد استابروك أيضا أن وسطائه ضعفت قوة إصابتهم، فقد كانت معظم الإجابات الصحيحة في أول التجربة ثم يتوالى الفشل حتى يتم العشرين كارتاً، وزيادةعلى ذلك فحين كان الوسطاء يستحضرون لتجربة مكررة عليهم ويوضعون في غرفة أبعد عن المرسل من الغرفة الأولى، فإن نتائجهم الأولى تكون أعلى من متوسط المرة الأولى، ولكنهم ينزلون عن المتوسط كثيرًا في نهاية التجربة، وكانت نتيجة التجربة الثانية أقل من التجربة الأولى، ويذكر استابروك أنه كان يحتاج لاستعمال مزيد من الإغراء

لاستدراج الطلبة للتجرة الثانية وربما كان عدم إقبالهم هو الباعث على هبوط النتيجة.

وأهم ما يمكن أن تضيفه تجارب هارفارد في ذلك الوقت هى أنها أوضحت وجود التلباثى بين خليط من الشباب أخذ بغير اختيار.

ولم تعترفْ مهنة علم النفس بهذه الأحداث، وحتى دوريات علم النفس لم تنشرها وثبط هذا من عزيمة المجربين فلم يستمر أى معمل من المعملين في هذه البحوث على التلباثى بعد ذلك، وهذان المثلان يوضحان بجلاء كيف أن المستكشف وبين يديه فعلا اكتشاف مهم يمكن أن يقف عن السير في طريقه بقوة رأى أصحاب مهنته، وما حدث كان نتيجة مباشرة لعداء كثير من علماء النفس لأى زعم يفترض وجود عامل غير مادى في الإنسان.

وقد أمكن بذلك إثبات حالة جيدة للتلباثى مطابقة لجميع مواصفات البحث السائدة في علم النفس – السيكولوجى– فقد أمكن إثبات حصول المعرفة بدون الاعتماد على الحواس، وفي الواقع لم توجه انتقادات لهذه الأبحاث مما يبرر رفضها ولكنها فقط أهملت.

وحين ننظر الآن عبر الماضى إلى تلك التجارب نجد من الصعب تصديق كيف أن العقل العلمى الوقور ينظر بغير اكتراث إلى ذلك التحدى الذى قدمته أبحاث استابروك وبروجمان وكل ما يمكن المرد أن يستنتجه هو أن العلم يصبح أعمى إذا كان في البصر صدمة لانبساطه وسروره، فللعلم

ضعفه البشرى ومن المدهش أن ما كان سبباً في عدم تقدير علم النفس لظاهرة التلباثى هو نفسه الذى يثير شغف الباحثين، فلم تكن التلباثى تنسجم مع الصورة المادية للوجود، وكان علماء النفس يحاولون تفسيراً للعقل بالتكافل بين نشاط الروح والمادة، وكان هذا ممكناً فقط إذا كان الإدراك مقصوراً على الحواس التى تطيع قوانين المادة في عملها، وأما الإدراك خارج نطاق الحواس فلم يكن له محل في حركة الجهاز العصبى، ولم يكن ذلك مستساغاً أمام التفكير الجامد وعلى ذلك فقط طرح جانباً.

ولقد كانت هناك محاولات حتى في أيام الإغريق القدماء لتطبيق نظريات المادة على التلبانى، فقد كانت هناك نظرية الموجه والكرات التى اقترحها ديموقراط، وهناك مقابل لهذه التفاسير في عصرنا الحديث مما يتمشى مع علم الطبيعة الحديث، واقترح السير ويليام كروكس موجات مخية هى العامل في انتقال الفكر «وهذه الموجات المخية تختلف عن الموجات التى تدرس الآن وهى موجات كهربائية في المخ ولكن الموجات المفترضة كموجات الراديو»، وعبر عالم الطبيعة الألمانى الأستاذ و. استوالد عن رأيه في هذه الظاهرة فقال: إن هناك طاقة روحية هى التى تعمل في التلباثى، وأن هذه الطاقة نوع آخر من أنواع الطاقة الطبيعية، واقترح طبيب الأمراض العصبية والعقلية السويدى الجنسية الدكتور أوجست فوريل نظرية مبنية على انتقال الإلكترونات كسبب للتلباثى.

ولكن دارسى التلباثى رفضوا هذه النظريات كلها منذ البداية ومن أوائل السابقين في دراسة التلباثى علماء العلم الطبيعى مثل سير ويليام

أوليفر لودج والسيدة سيد جويك، ولكن واحداً من هؤلاء لم يقبل التفسير المادى، وحتى كروكس نفسه والذى كان من أقرب الناس صلة بمشاكل الباراسيكولوجى لم يأخذْ تفسيره الخاص عن الموجات المخية مأخذ الجد.

وكان الموقف في عام ١٩٣٠ بالنسبة لمن كانوا يعرفون الدليل هو أن التلباثى كانت استثناءً يتحدى التفسير المادى الذى كان مستحوذاً على العقل العلمى في ذلك الوقت فأما أنه كان هناك خطأ متغلغل في جميع الأدلة على التلباثى، أو أن هناك نظاماً جديداً للحقيقة دخل العلم الطبيعى نظاماً لم يميزه حد من قبل، وظهر أن النظرية القائمة على النشاط المخى لا يمكن أن تقف أمام الدليل على هذا الإدراك الخارج عن الحواس، وهكذا حدثت خطوة لم تكنْ الأخيرة ولكنها نحو الأمام، ونجحت هذه الخطوة في تحدى النظرية المادية.

الفصل الثالث

الخطوة الثانية .. الإدراك الخارج عن الحواس والمادة

كان لظاهرة التلباثى «أى انتقال الفكر» ما يشبه الأخت وهى ظاهرة الجلاء البصرى أو الرؤية عن بعد «كليرڤويانس» وكان الجلاء البصرى من أوائل المزاعم الروحية التى بحثت علمياً،

فالإدراك بطريقة الجلاء البصرى هو الإحساس بالأشياء أو الحوادث بدون تدخل الحواس في حين تعرف التلباثى بأنها الإحساس بأفكار شخص آخر وبدون تدخل الحواس أيضاً، ومع أن كلمة «الكليرڤويانس» تعنى الجلاء البصرى إلى أنها في الحقيقة لا دخل لحاسة الإبصار فيها، فالتأثر بالجلاء البصرى قد يكون في صورة ذهنية بصرية كما يكون بصورة ذهنية أخرى، فكل فهم مباشر لأشياء خارجية هو جلاء بصرى وإن لم تتدخلْ فيه الحواس.

ويمكن أن نفسر ما تعنيه هذ الكلمة بإعطاء مثل على الجلاء البصرى الذاتى، فمثلا من التخيلات التى رأتها طفلة صورة أمها مريضة ترقد في منزلهم وكانت الطفلة في العاشرة من العمر وكانت تسير في إحدى حوارى الريف تقرأ كتاباً في الهندسة وفجأة اختفت المعالم حولها ورأت أمها ترقد كالميتة على الأرض في إحدى غرف منزلهم التى لا تستعمل وكانت

الصورة في منتهى الوضوح، حتى لقد لاحظت الطفلة منديلاً مطرزاً بالدنتلا موضوعاً على الأرض على مسافة قصيرة من أمها ولقد كانت التجربة في نظر الطفلة حقيقة لدرجة أنها بدلاً من أن تذهب تواً إلى بيتها ذهبت إلى منزل الطبيب وأقنعته بالذهاب إلى منزلهم، ولم تكنْ الطفلة تستطيع أن تشرح له أسباب تصرفها لأنها غادرت المنزل في هذا اليوم وأمها في أحسن صحة وكان المفروض أن تكون أمها خارج المنزل في ذلك اليوم، وحينما وصل الطبيب والبنت إلى المنزل وجدا الأب داخلاً، ولما رأى الطبيب اندفع متسائلاً: «من المريض» فأجابت الطفلة على الفور بأن أمها مريضة وقادتهم تواً إلى الغرفة التى لا تستعمل وهناك وجدت أمها تماماً كما رأتها في خيالها وكان المنديل المطرز بالدنتلا يقع قريباً منها، وقد وجدت الأم تعانى نوبة قلبية، وأكد لهم الطبيب أنه لم يكنْ وصل في هذا الوقت لقضت عليها النوبة، وبعد مرور الحادثة اكتشف الأب أن الأم سقطت صريعة النوبة بعد خروج الطفلة من المنزل ولم يكنْ أحد من الخدم يدرى بما حدث عن هذا المرض المفاجئ، ولم ير أحد الحادثة وهى تقع وعلى ذلك فلا مجال للتلباثى «أى انتقال الفكر» في تفسير هذه الحادثة، ورؤية الطفلة لمسرح الحادثة يبدو أنه جلاء بصرى وإدراك بدون حواس لحادثة واقعية،، ولكن طلباً للأمان في المستحسن أن يعتبر هذا الدليل الغير تجريبى الراذع على أنه على سبيل التنبيه لا على سبيل القطع.

وحالات جلاء البصر الذاتى كثيرة الحدوث كحالات التلباثى تقريباً، ولكن في البداية لم يكنْ الجلاء البصرى مغرياً للبحث كالتلباثى، وفي الواقع أن إنجلترا وأمريكا حيث أجريت بعض الأبحاث على التلباثى تجوهلت

ظاهرة الجلاء البصرى، ولكن رغماً عن ذلك فقد أجريت بعض التجارب العرضية التى توصل إلى الطريق الذى نسير فيه فمن المجدى أن نذكر طرفاً عن تجارب الجلاء البصرى الأولى.

وكان الجلاء البصرى، مثله مثل التلباثى، يظن في الابتداء أنه متوقف على التنويم وقد قابلت مسمر «مكتشف التنويم» حالات في الجلاء البصرى في وسطائه وهم تحت التنويم فقد كتب مسمر عن مثل هذه الحالة فقرر: «في بعض الأحيان والوسيط في حالة التنويم «سومنا بيوليزم» يمكن أن يرى بوضوح الماضى والمستقبل ومن الحوادث التى يرويها اكتشاف كلب ضائع يملكه الوسيط أثناء التنويم، فقد كانت الوسيطة مكسورة الخاطر لفقد كلبها الصغير، وفي يوم من الأيام – تبعاً لما قرره مسمر– حينما كانت الوسيطة تحت التنويم نادت على وصيفتها وطلبت منها أن تبحث عن شرطى الدورية في ركن من الشارع، وحينما حضر طلبت منه أن يذهب إلى شارع على مسيرة ربع ساعة من منزلها، وهناك – كما أخبرته – سيجد امرأة تحمل كلبا فعليه أن يطلبه منها لأنه ملك للوسيطة فأطاع الشرطى ووجد امرأة تحمل كلباً صغيراً أحضره معه للوسيطة التى تعرفت عليه.

وقد استغل أتباع مسمر ما يظهر من القدرة على الجلاء البصرى في الوسطاء المنومين في تشخيص الأمراض، كما كانت هناك حالات انتقال مكانى «سفر» للجلاء البصرى وكان بعضها أقرب إلى النوع التجريبى، فمثلا قرر السير وليام ياريت عالم الطبيعة الإنجليزى والدكتور الفرد باكمان

وهو طبيب سويدى وكثير غيرهم أنه كان في مقدورهم أن يطلبوا من الوسيط وهو تحت التنويم أن يرسل بفكره إلى مكان بعيد يحددونه له ثم يرجعه ليحدثه عما يحدث هناك أو عما رآه من أشياء يمكن التأكد منها بعد ذلك، وكانت المعلومات التى يحضرها الوسيط غير معروفة للحاضرين التجربة وعلى ذلك فقد كانت من قبل الجلاء البصرى لا من انتقال الفكر.

وهناك نوع آخر متجارب الجلاء البصرى على الوسطاء تحت التنويم فقد كان الأستاذ ريشيه يأخذ عفوا ورقة من الكوتشينة يم يضعها في ظرف كثيف ثم يطلب من الوسيط ليونى أن يعينها، وقد اقتنع ريشيه بقدرة ليونى على التعرف على الكارت حتى ولو لم يكنْ أحد من الحاضرين يعرفه، وفي الختام انفصل الجلاء البصرى أيضا عن التنويم فلقد كانت الصلة كما في حالة التلباثى عارضة. وبمرور الزمن جاءت الحالات تترى على ظهور الجلاء البصرى لأشخاص كانوا في حالة الوعى الكامل، ومن التجارب التى أجريت من هذا النوع تجارب أجراها نعوم كويتك في روسيا والدكتور رودلف تيتشنر في ألمانيا والآنسة إينا جيفسون في إنجلترا وايتن سنكلر في أمريكا وفي بولندا أيضاً كانت هناك دراسة لحالات الجلاء البصرى الفذة التى كان يؤديها استيفان أوسويكى. وفي كل هذه الاختبارات خلاف الآنسة جيفسون، كان على الوسيط أن يصف أو يعيد رسومات أو أشياء أخرى مادية كانت تخفي عنه تماماً ولم تكن معلومة للحاضرين، أما في تجارب مس جيفسون فقد كان على الوسيط أن يستعرف على كروت الكوتشينة.

وفي كل حالة كان المجرب مقتنعاً أن الحظ وحده لا يكفي في تعليل النتائج وأن ليس لها من تعليل خلاف الجلاء البصرى، وفي حالة الآنسة جيفسون كان من الممكن تقدير النتائج بطريقة إحصائية أما في اختبارالت أوسويكى فإن النتائج الناجحة التى قررها تيودور بسترمان من جمعية المباحث الروحية فلم تكن في حاجة إلى التقدير الرياضى، وفي أحد هذه التجارب أخذ بسترمان محبرة وكتب على الورقة الخارجية «حبر سوان» كل كلمة من الاثنين في جهة من الزجاجة ووضع خطا أزرق تحت كلمة وخطأ أحمر تحت الثانية ثم أخذ الورقة وطواها مرتين ووضعت في ثلاثة ظروف سميكة وأغلق كل ظرف بإحكام ووضع عليه علامة تفضح أى محاولة للفتح وقد نجح أوسويكى على ثلاث مرات في وصف يكاد يكون كاملاً لما استوته الخطابات وكان بسترمان نفسه لا يعلم شيئاً عن وقت التجارب.

وهناك نوع آخر من اختبارات الجلاء البصرى يندرج تحت اسم السيكومترى «أى قراءة الأثر» وهى تسمية غير صحيحة، وفي هذا النوع من الاختبار يعطى الوسيط شيئاً له تاريخ خاص وعلى الوسيط أن يعبر عن تاريخ هذا الشيء ومن الحالات المشهورة من هذا النوع واحدة رواها الدكتور جوستاب باجنستشر وهو طبيب من مكسيكو الذى أجرى تجارب على امرأة مكسيكية تدعى السنيورانز، وقد أجرى بعد ذلك الدكتور ولتر فرانكلين برنس من جمعية المباحث الروحية الأمريكية دراسة لهذه السنيورة فكانت مطابقة لنتائج باجنستشر وقد أجرى الدكتور يوجين أوستى من باريس والأستاذ أوسكار فيشر من براغ وغيرهم تجارب على السيكومترى واعتبروا النتائج كأنها جلاء بصرى.

وكل واحد من ذوى الجلاء البصرى استعمل طريقة خاصة، فقد كان وسيط الأستاذ فيشر عالماً من الأعلام وكان مثل أوسويكى مشهوراً، وكان اسمه رفاييل شيرمان، ولأنه كان من عادته أن يستعمل مخطوطاً باليد ليركز انتباهه عليه فقد أطلق عليه «مخرج الخطوط» وكما ورد في التقارير عنه فقد كان شيرمان يفصح في الاختبارات عن حقائق لا يمكن الوصول إليها من القراءة العاية للخطوط، فمثلاً أعلن عن مكان وسلوك كاتب أحد الخطوط.

هذه هى أنواع الأدلة التى تويد الجلاء البصرى، وفي عام ١٩٣٠ كانت أدلة أكثر وأقوى في صالح التلباثى عنها في صالح الجلاء البصرى، فقد كان هناك حالات للجلاء البصرى ذات أثر ووصل عدد من الباحثين العلميين إلى نتائج في صالحها ولكن عددهم كان أقل من أولئك الذين يسلمون بالتلبانى.

ولكن الجلاء البصرى لم تستمرْ التجارب فيه بنشاط – مع أن تجارب الجلاء البصرى أسهل من مثيلاتها على التلباثى، فهناك شخص واحد للتحكم فيه، أما في تجارب التلباثى فهناك شخصان المرسل والمستقبل كما أن الحاجة تدعو إلى التمحيص في اختيار الشخصين الصالحين، ولكن كان الاهتمام بالتلباثى أقوى فتغلب على هذه الصعاب.

وكان من السهل أن يتضح أن انتقال الفكر ظاهرة خارج نطاق علم الطبيعة، فاتصال العقل بالعقل فيها كان يبدو أنه فوق الأسس المادية التى تحكم الاتصال بالحوادث، أما الجلاء البصرى فقد كان لابد فيه من

الاتصال بالمادة، فالتفاعل بين العقل والشيء المدرك كان لابد من افتراضه حتى تصبح الظاهرة مفهومة، فالجلاء البصرى كان كأنه حاسة جديدة فوق الحواس المعروفة الأصلية ترتفع فوق الحواس كما هو الحال في التلباثى، وعلى ذلك فقد وجد الذين يبحثون عن الظواهر الخارقة للعقل، في التلباثى، بغيتهم المنشودة من حيث المعنى وما تؤدى إليه.

وحين بدأ العمل في جامعة ديوك في عام **١٩٣٠** كانت التلباثى والجلاء البصرى بنفس الأهمية لدينا ولكن هذا الاتزان في الاتجاه نحو الاثنين لم يدمْ طويلاً، ففي بدء الأبحاث اتخذ الجلاء البصرى القياد واستمر فيه، وفي أول تقرير خرج من جامعة ديوك في عام **١٩٣٤** كانت فيه تجارب على الاثنين ولكن كمية تجارب الجلاء البصرى أرجح بكثير، وفي السنين التى تلت ذلك عندما انتشرت هذه الأبحاث من جامعة ديوك إلى معاهد أخرى استمر الجلاء البصرى آخذاً القياد. ونتيجة لهذا التقدم فالأجدر أن نتكلم الآن عن الجلاء البصرى أولاً ثم نعود للكلام على ما حدث في التلباثى من تقدم.

وكانت التجارب على الجلاء البصرى في منتهى البساطة – أو على الأقل في طريقة إدارتها وحاولنا أن نبسط الاختبارات وأن نقرب معاييرها لدرجة لا تحتاج في إجرائها إلا إلى القليل من الانتباه، وكان التعرف على الكروت المخفية هو أحسن طريقة للاختبار مع تبسيط رسم الكوتشينة وكانت الكوتشينة الجديدة مكونة من **٢٥** كارتاً وكل خمس منها تحلم الرموز التالية النجمة، المستطيل، الصليب، الدائرة، والخطوط المتموجة

وقد حدث تعديل طفيف على هذه الرموز بين وقت وآخر وسميت بكارتات خارج الحواس.

وكاختبار ابتداذى للجلاء البصرى اتبعت هذه الطريقة في الغالب، فبعد أن تعرض مجموعة الكروت على الوسيط ويفهم الغرض من الاختبار، كانت تفنط ثم توضع ووجوه الكارتات إلى أسفل على المائدة أمام الوسيط «وسنذكر بعد ذلك الاحتياطات التى كانت تتخذ ضد استعمال الرموز الحسية للحل» وكان المجرب يجلس أمام الوسيط ومعه ما يسجل عليه النتائج، وكان على الوسيط أن يتعرف على الكارت الأعلى وحينما يذكر الشكل على الكارت فكتب الإجابة ويزاح الكارت، ولكن لا ينظر إليه، ثم يسحب الكارت الثانى ويتعرف عليه ثم يزاح وهكذا حتى تنتهى جميع الكروت، ثم تراجع الكروت التى في المجموعة على الأجوبة المسجلة لمعرفة مقدار النتائج الناجحة.

وكان التشجيع يقدم للوسيط ما أمكن ثم تنفنط المجموعة وتعاد التجربة وحسب قوانين الحظ فإن الأجوبة الصحيحة تبلغ في المتوسط خمسة في الخمسة والعشرين، فإذا أصاب الوسيط نجاحاً أكبر من ذلك كانت الأجوبة الصحيحة الزائدة تسجل بواسطة مسطرة خاصة تسمى «الانحراف العيارى» وهذه المسطرة التى كانت كثيرة الاستعمال قبل ذلك في كثير من العلوم كانت تدل على النتائج الزائدة عن تقدير الحظ وحده، فإذا أعطى الوسيط أربعة اختبارات وأحرز في كل واحدة ٧,٥ نجاح أى

بمجموع ٣٠ نجاح أو الانحراف العيارى يزيد عشرة بنوط عما كان يمكن أن يأتى الحظ وحده في مرة واحدة من مائة وخمسين.

وبالطبع كلما استمر المتوسط لعدة تجارب كلما كان ذلك من الأفضل فإذا أجريت ثمان تجارب لكان المتوسط ٦,٥ ليلعب الحظ دوراً واحداً في مائة وخمسين، وهذا المتوسط يعطى ٥٢ إجابة ناجحة أى ١٢ فوق الأربعين وهى المتوسط الذى يأتى به الحظ، وفي العادة فإنه إذا كانت النسبة ١٠٠ إلى ١ فهى معترف بها في العلوم الطبيعية كإنذار ضد النتيجة في أن ليس الحظ هو السبب فهى في العرف الفنى غير ذات معنى من الناحية الاحصائية وهذه الكلمة وهى «ذات مغزى» ستستعمل كثيرا في هذا الكتاب، وهى تعنى ببساطة ما اتفق عليه عامة المشتغلين بالعلوم أى أن هناك ما يبرر اعتبار أن النتائج تحتاج لشيء غير الحظ ليفسرها أو يبررها والخلاصة أنها يمكن الاعتماد عليها.

ومن الطبيعى أنه في بحث مازال في دور الاستطلاع كالجلاء البصرى فقد ربنا ألا نترك شيئاً للحظ في أعمالنا الرياضية، فكان من المحقق لدينا أن الجمهور ينظر بعين الشك والريبة للاحصائيات وهى ما بقى من الأيام التى كانت تقسم فيها الأشياء الوهمية إلى مكذوبة وأكذوبة ملعونة وإحصائية وعلى ذلك فقد حرصنا على أن نكون بمقربة من الخبراء الرياضيين منذ البداية، وكنا نحصل منهم من وقت لآخر على الموافقة على ما نتبعه من طرق رياضية «انظر الفصل العاشر» ولم يشذْ أحد من بين الرياضيين على الموافقة التى حصلنا عليها.

ولنعد الآن لما حصلنا عليه من النتائج، وأحسن الذين أحرزوا نتائج فردية مرت عليه كوتشينه خ. ا. ا «خارج إدراك الحواس في عام ١٩٣٤، وكان متوسط هذا الرجل ٨ إصابات في كل ٢٥ أى بزيادة ٣ عن المتوسط المتوقع من كل كوتشينه، وقانون الحظ أو الاحتمالات ينص على احتمال ١٠٠ إلى واحد على أن يصل واحد من الناس إلى هذا المتوسط وهو ٨ في ثلاث مرات متعاقبة بفعل الحظ وحده، ولكى نثبت احتمال حصول شخص من الأشخاص على متوسط ٨ في ٧٠٠ مرة يقتضى عدداً يحوى من الأرقام ما يملأ فقرة بأكملها، وهذه الإصانات التى عملها هذا الشخص وحده لها من المغزى ما يجعلنا نخرج الحظ من الموضوع إطلاقاً، مهما كانت نتائج غيره من الوسطاء، ومهما كانت أخطاؤهم، فإنها لم تستطعْ أن تقضى على ما آتاه هذا الرجل.

ومع ذلك فقد نشرت جميع النتائج، وفي الواقع فإنه ورد في تقرير سنة ١٩٣٤ بصفة خاصة كل النتائج التى حصلنا عليها حتى يكون من الواضح إننا لم تختزْ بعض النتائج دون غيرها، فلم يكن الاختبار سبيل في تأويل ما حصلنا عليه من النتائج.

وكان المتوسط العام ٧ نقط في كل ٢٥ وقد أدخل في الحسبان بعض النتائج التى كان من شأنها انخفاض الرقم، وبعض الاختبارات أجريناها بصفة مبدئية على أشخاص لم يكنْ من المعروف أن عندهم أى مقدرة على الإدراك خارج الحواس خ. ا. ا وقد أدخلت هذه برغم أن بعضها كان في مستوى إصابات الحظ أى خمسة وبعضها نزل عن هذا

المستوى وكان معظم الاختبارات مع مجموعة مختارة من الوسطاء الذين أظهروا في الاختبارات المبدئية أن إصاباتهم تتراوح في المتوسط بين ٦، ١١ من ٢٥ نقطة، ولكنا مع ذلك أدرجنا متوسط الأشخاص الذين رفضنا أن نتابع معهم التجارب في البيانات التى أحصيناها، وعلى ذلك فيكون المتوسط العام وهو ٧ نقط من ٢٥ في تجارب عددها ٨٥٠٠٠ بكوتشينه خ.ا. ا والحصول على هذا المتوسط في مجموعة كبيرة من التجاربة كهذه معجزاً في الدلالة على الإدراك خارج الحواس، ومن الدلالات ذات المغزى في المقاييس الرياضية التى لا تترك مجالاً للشك في أن شيئاً ما خلاف الحظ كان يحدث في هذه التجارب، ولقد كان يكفي أن تجرى ست تجارب بمتوسط ٧ فقط لكى تكون «ذات مغزى» فما بالك وعدد التجارب التى وصل فيها المتوسط إلى ٧ هى أكثر من ٣٤٠٠٠ مما يوحى بأكثر من النسبة بين ٣٤٠٠٠، ٦ ويمكن قياس الحظ بطرق أخرى أيضاً فحينما وجدنا لأول مرة ٩ إصابات متتالية تحدث في اختبار للجلاء البصرى علمنا أننا لا نتعامل مع الحظ وحده فقط، وبعد ذلك بأيام قلائل استطاع نفس الشخص أو الوسيط الحصول على ١٥ إصابة صحيحة متتالية وبعده أحرز شخص ٢٥ إصابة أى أحرز نتيجة الكوتشينة بالكامل، هذه النتائج الرائعة كانت نادرة ولكنها حين وقعت أزالت كل شك بقى في نفوسنا من انطباق أى نظرية للحظ عليها.

ومن الواضح أنه في كل تجربة يتوقف كل شيء على الاحتياطيات التى تتخذ، وحتى الآن لم أشرح إلا الشروط التى تلزم للاختبارات المبدئية عن الجلاء البصرى، وكان علينا بالطبع أن نتأكد من عدم استعمال أى

رموز حية للتأثير في النتيجة، وكانت أولى الخطى أن نجعل بين الوسط والكوتشينة ستارة كثيفة، وفي بعض الأحيان كنا ننقل الكروت إلى غرفة أخرى أو إلى مبنى آخر، وفي بعضها الآخر كنا نضع الكارتات في مظروف كثيف مصمغ وعليه أرقام سرية وفي بعض الاختبارات الأخرى كان تظل الكوتشينة بحالها في صندوق أثناء التجربة وهناك أساليب أخرى من الاحتياطات كانت تجرى في التجارب الخاصة.

كما كانت هناك تغييرات في طرق رصد النتائج فكانت النتائج التى يفصح عنها الوسيط ترصد بجوار أصل الكارت، ثم وجدنا أنه من الأوفق أن ترصد النتائج منفصلة عن الكروت منعا لحدوث خطأ.

وكانت بعض الاحتياطات في منتهى الغرابة فخذ مثلا تجربة برات وودرف التى أجريت في جامعة ديوك في عام ١٩٣٨ -١٩٣٩، فهاك قليلاً من الاحتياطات: اثنان من المختبرين كانا باستمرار حاضرين.

وكان كل واحد منهما يرصد النتائج مستقلاً عن الآخر وفي ورقة عليها رقم مسلسلى تحمل أختاماً رسمية للعمل، ثم توضع هذه الأوراق بعد تسجيل النتائج عليها في صندوق مغلق قبل فحص مجموعة الكوتشينة الأصلية، وكان مفتاح هذه الصناديق مع شخص واحد فقط هوأمين المكتبة المكلف بحفظ النتائج، وكانت هناك احتياطات أخرى أملاها التوتر والقلق الذى أحاطا بنا في سنوات الجدل التى أعقبت نشر تقرير سنة ١٩٣٤، ولمجرد أثقال التجربة بالاحتياطات كنا نلجأ إلى أساليب لا يحتمل أن تفرض

على تجربة أخرى، ولا أعلم واحدة مثلها في علم النفس – سيكولوجى – وسنثقل على القراء جداً لو ذكرنا كل تفاصيل التجربة.

كانت الكوتشينة تخفي وراء لوحة خشبية أثناء الاختبار، وكان الوسطاء يلتقطون بدون اختيار ومنهم عالم نفسى كان يشك في هذه الظاهرة، وكان المتوسط في هذه المجموعة ٢ و٥ أى ليس مرتفعا عن المتوسط وهو ٥ بكثير، ولكن هذا المتوسط يمثل ٤٨٩ إصابة ناجحة فوق المتنظر في ٢٤٠٠ ولاشك أن لهذا مغزاه، حسب ما يقوله علماء الرياضية لا يمكن أن يحدث هذا بالحظ وحده إلا في حالة من مليون لمثل هذه المجموعة.

ولكن الاحتياطات المعقدة لها ثمنها، فقد لاحظ المحربون الذى عملوا طويلاً في هذا الميدان أن التجربة كلما تعقدت وثقلت وبطؤ سيرها كلما نزل مستوى الإصابات، فالاحتياطات نفسها مما توزع الانتباه ومما لاحظ برات وودرف أن الإصابات الناجحة قل عددها بشكل ملحوظ بالنسبة للوسيط العادى مع أن ظروف التجربة لم تتغيرْ، وقد أرجعوا ذلك إلى فقدان جدة التجربة أى أن التجربة أصبحت مملة بالنسبة للوسيط.

ولأى إنسان أن يقنع نفسه بأن جميع الافتراضات التى يمكن أن تفسر هذا قد درست بعناية إذا رجع إلى التقرير المنشور عن تجارب برات وودرف في مجلة الباراسيكولوجى «ما وراء علم النفس» في عام ١٩٣٩.

ومن الأثر الشائع أن قضية الجلاء البصرى لم يكسبها إلا جامعة ديوك حين وقفت بأبحاثها إلى جانبها، ولكن هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة، فالتجارب التى أجريت في جامعة ديوك يمكن تجاهلها دون أن يغير ذلك من النتيجة، صحيح أن أكثر التجارب أجريت في جامعة ديوك ولكن هناك الكثير الذى أجرى خارج معامل الباراسيكولوجى في جامعة ديوك.

فحين كانت التجارب الأولى تجرى في جامعة ديوك كان أحد علماء النفس الشبان من الألمان واسمه الدكتور هانز يندر يجرى مجموعة من التجارب على الجلاء البصرى بواسطة الحروف الهجائية، وقد وصل إلى النتيجة التالية وهى وجود القدرة على الجلاء البصرى في التعرف على الخطابات المخفاة عن أعين طالبة في الجامعة كان يتخذها وسيطة.

وقد استعملت كوتشينة ا.خ.ا في كل مكان وباستثناء التجارب التى أجراها الباحث الإنجليزى المستر خ. ن.م ينزيل والذى استعان في اختباراته بآلة كهربائية من اختراعه فقد لعبت كوتشينة ا.خ.ا ودار في كل البحوث المتعلقة بهذا الموضوع وقد استعان الباحثان وهما العالم النفسى الدكتور س. ر. كاربنتر وزميله عالم الرياضة الدكتور هـ. ر. فالن من جامعة يارد بكوتشينة ألوان بها خمسة ألوان وفي مجموعة مكونة من ٢٥ للمقارنة في النتائج من كوتشينة ا.ح. أ برموزها المرسومة عليها وحصلا على نتائج عالية المغزى وبنفس النسبة في الكوتشينتين.

كما أدخلت أساليب جديدة بعضها ابتكر في جامعة ديوك والبعض الآخر في أماكن أخرى، فقد حدث أن الدكتور برات وهو من جامعة ديوك

كان يجرى أبحاثاً مع الدكتور جاردنر مورفي في جامعة كولومبيا فابتكر أسلوباً جديداً أطلقا عليه «المقارنة باللمس المستور« وقد حصل على نتائج ذات مغزى وهو يعمل في نيويورك تبعا لهذا الأسلوب، وفي هذه الطريقة كان المجرب يحمل الكوتشينة في يده ويقف أمام حاجز سميك بينه وبين الوسيط ليس فيه إلا ثغرة يبدو منها مؤشر يعمل بيد الوسيط ويشير إلى رسم من الرسوم الخمسة الموجودة في الكوتشينة والتى يعمل فوقه المؤشر، فالوسيط لا يرى الكوتشينة أصلاً وإنما المجرب هو الذى يضع الكوتشينة مقلوبة فوق يده فإذا أشار المؤشر نقل الكارت إلى المائدة ووجهه إلى أسفل وهكذا حتى تنتهى الكوتشينة – وعلى ذلك فقد كان من المستحيل على الوسيط أن يرى الكوتشينة من أى ركن.

وقد كان السؤال عن أى الطرق أفضل، ذائعاً، من ١٩٣٠– ١٩٤٠ وقد قام ج. ل. برات والدكتور و. جورج من كلية توركيو بالميسورى بمقارنة طريقة التغيير عن النتيجة بالكتابة أو اللام وطريقة التعبير عن النتيجة بالإشارة إلى كرت بيانى وقد وجدا أن الطريقتين تؤديا نفس الغرض.

ولم يكنْ النجاح في هذه التجارب عالمياً، ولكن الفشل يمكن أن يفيدنا جداً، ومن النتائج التى اكتشفت في السين المنوه عنها أن التجارب الجماعية كانت أكثر فشلاً من التجارب الفردية، فقد قام الدكتوران فرنون شارب، س. س كلارك من جامعة نيويورك بمقارنة الاختيارات على الفصول بالاختبارات الفردية فوجدا كما وجدنا نحن في جامعة ديوك أن

الاختبارات الفردية تعطى نتائج أعلى وفي الاختبارات الجماعية لم ترتفعْ بنتائجها إلا قليلاً عن المتوسط المنتظر من الحظ وحده وفي جامعة كولومبيا قام أريست تيفس والدكتور جاردنر مورفي بمجموعة من اختبارات ا.ج. أ فكانت النتيجة كنتيجة الحظ، وعند تحليل النتائج بعد ذلك وجد أن الشخص الذى يعطى إصابات عالية في مجموعة من الاختبارات يعطى إصابات عاليه أيضا فيما يتلوها من اختبارات بعكس الشخص الذى يعطى نتائج منخضة فإنه يستمر في إعطاء النتائج المنخفضة، وهذا الاختلاف المنتظم أقنع ميرفي وتيفس أن هناك أثراً لشىء خلاف الحظ يعمل وأن الجلاء البصرى هو التحليل الوحيد المعقول.

وقد كان النجاح في الحصول على الجلاء البصرى وليد إعادة النظر مرة أخرى على النتائج وأكبر اختبار أ.خ. ا قام به فرد حدث في جامعة كولورادو، وهو أضخم عمل في الباراسيكولوجى وقد أدته عاملة نفسية شابة هى الآنسة دوروثى مارتن تعاونها عاملة رياضية هى الآنسة فرانسيس ب. ستربيك وقد استغرق البحث ثلاثة أعوام.

فقد اختيرت مارتن وفرنسيس عدداً كبيراً من الطلبة الذين تطوعوا كوسطاء ولكنهما أخيراً استقرتا على شخص واحد ممتاز كان في شرخ الشباب، فلم يكنْ هذا الشاب يقتصرعلى الحصول على مستوى إصابات أعلى من غيره ولكنه كان يتحسن على الحصول على مستوى إصابات أعلى من غيره ولكنه كان يتحسن على مدار السنة ولو أن متوسطه كان ينخفض في كل عام عن العام السابق، وقد أجريت التجارب بكوتشينه

ا.خ. ا لعدد من الاختبارات هو ١٢٠٠٠ منها ٢٥٠٠ على شخص واحد، وهذا عدد ضخم حقاً من التجارب خصوصاً إذا علمنا أنهما كانتا تراجعان النتائج مرتين على الكوتشينه بعد إصابات الوسيط ثم تقلبان نظام المراجعة حتى تستطيعا التحكم في نظرية الحظ، ولقد اقتضت مجموعة واحدة من التجارب من مراجعة ٣٠٠٠٠٠ وحدة من التفاصيل.

ولكن كانت هناك نتائج مثيرة، فقد حصل الوسيط على متوسط ٦,٨٥ نقطة في مجموع التجارب التى أجريت عليه وعددها ٣٥٠٠، وكان المتوسط لمجموع التجارب وهى ١٢٠٠٠ هو٥,٨٣ على حين كان قلب نظام المراجعة يؤدى إلى متوسط في الإصابات يعادل ٤,٩٨ وهى قريب من متوسط الافتراض النظرى وهو ٥، ومتوسط الجلاء البصرى الذى يصل إلى ٥,٨٣ له مغزى كبير جدًا، وأن الرقم الدال على احتمال الحظ فيما يصل إلى مستوى الأرقام القليلة، وكذلك التجارب الفردية التى أجريت على الشاب، وأنه لمن المضحك لو أدخلنا اعتبار الحظ أمام هذه الأرقام.

ويزيد قيمة هذه النتائج أن اختبارات ا.خ. ا في جامعة كلورادو وكانت من أقسى الاختبارات المعروفة على الوسيط، وقد أطلق عليها ا.خ. ا أى إلى النهاية فقد كانت الكوتشينه تفنط عدة مرات ثم توضع على المائدة ووجهها إلى أسفل ولا تمس طوال التجربة وعلى الوسيط على أن يعين الكارتات بالترتيب وهى موضوعة لا تتحرك حتى ينتهى من إجابته

الخامسة والعشرين، وبعد إجراء بضع تجارب مبدئية كان الوسيط يعزل عن الكوتشينه بستار كثيف. وقد أجريت معظم الاختبارات بهذا الأسلوب.

وقد يحدث أحياناً أن يخطىء بحث صغير بقدر كبير من التقدير، وهذا ما حدث في البحث الذى أجراه ذات مساء الدكتور لوسيال وارنر ومساعدته السيدة ملدرد ريبل، وقد سبق هذا البحث خبرة سنوات جعلت إجرائه في ليلة واحدة ممكنا، فقد أدت التجارب الأولى للدكتور وارنر إلى اكتشاف الوسيطة الممتازة الذى أجريت عليها التجربة، وفي هذا المساء اتخذ المجربان غرفة علوية في منزل خاص وتركت الوسيطة في غرفة سفلى ولم تكن الغرفتان فوق بعضهما مباشرة وكان هناك نظام للتراسل في اتجاه واحد وهو عبارة عن مصباح كهربائى في غرفة المجربين تضيئه الوسيطة لتعلن أنها مستعدة للعمل، وكان المجربين يفنطان الكوتشينه عدة مرات ثم يستخرجان كارت لا يريانه ويضعانه مقلوبا على المائدة حتى إذا أضاءت الوسيطة المصباح قلبا الكارت ثم سجلا الإصابة، ثم تتكرر المحاولة.

وقد أعيدت المحاولة ٢٥٠ مرة بدون توقف، وهذا معناه أن الكوتشينة الكاملة استعملت عشر مرات، وكان كل كرت يعاد إلى المجموعة بعد قراءته ثم يعاد تفنيط الكوتشينة، وبدلاً من الحصول على ٥ نقط في الخمسة والعشرين وهو المتوسط حصلت الوسيطة على متوسط ٩,٣، وهذا المتوسط المرتفع ولو أنه في تجربة قصيرة إلا أن مغزاه كبير جداً ويتطلب من الاحتمال الرياضى رقماً يعادل عدة ملايين لواحد، وكان الدكتور وارنر قد صمم كما صمم الدكتور برات وودرف أن يقوم بهذه

التجربة ليلاقى كل النقد الموجه إلى ا.خ. ا. ولم يجدْ أحد حتى الآن أى نقطة ضعف خطيرة في هذه التجارب.

ولقد ذكرت حتى الآن طرفاً من التجارب التى تثبت الجلاء البصرى أخذت فيه قليلاً مما أجرى في جامعة ديوك وقليلاً من الكثير الذى أجرى خارجها بعد عام ١٩٣٤، ولو حاولت أن أذكر كل شيد لذكرت أولئك الذين أجروا التجارب على الجلاء البصرى ولكن لم يحصلوا على نتائج ذات مغزى، وكان هناك عدد من هؤلاء الفاشلين وخصوصاً في حالات قلة الدراية بالمشاكل المعروضة وبالاشتراطات المطلوبة في مثل هذه التجارب، وهناك أيضاً عدد ضخم من الأدلة التى تؤيد الجلاء البصرى ولكن لم يحصلوا على نتائج ذات مغزى، وكان هناك عدد من هؤلاء الفاشلين وخصوصاً في حالات قلة الدراية بالمشاكل المعروضة وبالاشتراطات المطلوبة في مثل هذه التجارب، وهناك أيضا عدد ضخم من الأدلة التى تؤيد الجلاء البصرى التى لم يجرؤ أصحابها على نشرها خوفا من رد الفعل المعادى في دوائر علم النفس.

واعتقد الآن أن ما قد قيل يكفي لأن يضع الجلاء البصرى في موقف قوى، وأن البحوث التى أجريت وأهمها ما أجرى بين ١٩٣٠ – ١٩٤٠ قد وضعتها في موقف أحسن بكثير مما كانت عليه التلباثى والجلاء البصرى قبل هذه السنوات العشر.

وكان إثبات الجلاء البصرى هو الخطوة الثانية في حل مشكلة الإنسان التى استعرضناها في الفصل الأول، وقد أوضحت الأبحاث أن

العقل يمكن أن يتفاعل بطريقة مباشرة «خارج الحواس» بالمدركات المادية وأنه يستطيع أن يفعل ذلك بالرغم من جميع الحواجز المادية التى تقف في طريق الاتصال عن طريق الحواس.

والآن نعود إلى النقطة التى تركنا فيها التلباثى في عام ١٩٣٠، وكانت هناك أسباب وجيهة لترك هذا الفراغ من المباحث لنعالجه مستقبلاً.

وكان السبب يرجع إلى أن التلباثى كانت في محنة في ذلك الوقت وكان من الصعب الدخول في تعقيداتها مع القيام بأبحاث الجلاء البصرى في نفس الوقت أيضاً.

وكانت الحقيقة البسيطة أننا اكتشفنا في عام ١٩٣٠ أن الاختبارات الموضوعة للتلباثى لم تكنْ تختبر التلباثى، فلم يكن في الواقع هناك دليل واحد غير غامض أو ملتو في صف التلباثى، وكانت الأحداث التى أجريت تساهم في التدليل على أن هناك طريقة للحصول على المعلومات خلاف طريق الحواس، ولكن ظروف التجارب لم تكنْ تسمح بإعطاء تعليل واضح عن هذه الإدراك هل هو تلباثى أم جلاء بصرى؟

وكان الموقف هكذا فكان في كل هذه التجارب كارت أو رسم أو مرئى من أى نوع ينظر إليها المرسل، وحقيقة كان الوسيط يعطى التعليمات بتمحاولة الوصول إلى أفكار المرسل، ولكن لم يكنْ هناك أى طريقة لإثبات إلى أى مدى اعتمد الوسيط على أفكار المرسل وحدها، وإلى أى مدى اعتمد على جلائه البصرى.

ولكن في تجارب الجلاء البصرى فقد أمكن إخراج التلباثى، فقد استطعنا بواسطة استعمال الكارتات التى لا يعرفها أحد أن نخرج التلباثى.

وقد لا تصدق الآن أنه لم يكنْ يرى أحد أنه من الضرورى إخراج الجلاء البصرى في تجارب تجرى عن التلباثى، فقد كان الجلاء البصرى– في عقول أولئك الباحثين عن أدلة على التلباثى – احتمال بعيد يمكن بسهولة تجاهله.

ونظرا لأن بعض الباحثين في ميدان التلباثى والمهتمين بها كانوا من القادة المعلمين في أمريكا وأوروبا فإن من المستغرب أن أحدًا خلال نصف قرن من الأبحاث لم يتحدْ كفاية الأساليب المتبعة في التلباثى، ومن المشكوك فثيها أن يوجد في العلم مثل حسن من هذا على الأثر الماكر الذى يمكن أن يحدثه الاهتمام المتحزب على القدرة النافذة على الحكم على الأشياء، ولو كانت الأفضلية للجلاء البصرى على التلباثى لخدمت هذه التجارب نفسها في التدليل على الجلاء البصرى، وهكذا إن لم تكنْ حذرين حريصين فيسغلبنا الضعف فلا نجد إلا ما نحن نبحث عنه.

وعلى ذلك فبعد نصف قرن من الأبحاث على التلباثى أمكن الوصول إلى اختبار جديد ومن حسن الحظ أن التعديل المطلوب كان في غاية البساطة، فقد كان كل المطلوب حتى نفي بالاشتراطات الجديدة أن نطلب من الوسيط أن يفكر في موضوع غير موجود، ويمكن استعمال كوتشينة ا.خ. ا إذا نحينا الكروت جانباً.

فلم يكن هناك سجل للفكرة موضوع الانتقال إلا بعد تسجيلها، فبدلا من أن نأخذ كارتات الكوتشينة واحداً واحداً كان المرسل يفكر في الكارت عقلياً حين يعطى المستقبل إشارة الابتداء، وكان على المستقبل أو الوسيط أن يتعرف على الصور التى في ذهن المرسل وبعد أن يستقر على رأى كان عليه أن يسجلها على ورقة الإجابة، أما المرسل فلم يكن ليسجل الصورة التى فكر فيها حتى يرسل الوسيط إشارته بالبدء في صورة أخرى، وعلى ذلك فلم يكن في وقت حدوث التجربة يوجد موضوع للجلاء البصرى لتلبسه إلا إذا أدخلنا في اعتبارنا النشاط المخى المصاحب للتفكير في الصورة المرسلة.

وكان المرسل والمستقبل يجلسان في بدء التجارب في حجرة واحدة ولكن بعد ذلك أبعدا عن بعضهما فوضعا في غرفتين منفصلتين ثم في مبنين منفصلين ثم في منطقتين جغرافيتين منفصلتين.

وكان عل المرسل أن يفكر في الرموز المصورة بطريقة لا نظام لها حتى لا يستطيع الوسيط أن يستنتج أن هناك تسلسلا خاصا، وقد أمكن الوصول إلى طريقة لتغيير الرموز حتى لا يكون للعادة الشخصية في اختيار تسلسل خاص لها يكون في تكراره أثر في النتيجة.

وقد كانت نتائج التلباثى متقاربة إلي حد كبير مع مثيلاتها للجلاء البصرى، وقد أمكن إجراء عدة تجارب علي التلباثي وحدها في جامعة ديوك وكانت النتائج ذات مغزي كبير. وحين وصلنا في عام ١٩٣٤ إلي أن نكون في موقف طيب بالنسبة لحدوث الجلاء البصري كنا قد اقتنعنا أن

قضية التلباثي قضية سليمة. وكان هذا الاقتناع مبنيا كله علي نتائج التجارب الجديدة وكانت التلباثي يعوزها بعض الشيء الدليل الموجود للجلاء البصرى، ولكن الأدلة كانت متشابهة إلي حد كبير في النوع لدرجة أن الأبحاث في الميدانين كانت تعزز بعضها.

وفي كل مناسبة تسنح كنا نقارن بين القدرتين فإذا وجدنا وسيطاً مرتفع الإصابات في نوع جربنا عليه النوع الآخر، وكان الغالب أن الوسيط يمكن أن يتحول من نوع إلي آخر بدون تأثير يذكر في نسبة إصاباته الصحيحة، حتي التغيرات اليومية التي كانت تحدث لنفس الشخص في نتيجة الإصابات كانت تنعكس علي متوسط التلباثي كما تنعكس علي متوسط الجلاء البصرى.

وكان تأثير العقاقير متشابهاً في كل النوعين فكان العقار الموم المعروف باسم أميثال الصوديوم يهبط بنتائج الجلاء البصري القح كما يهبط بنتائج التلباثي الخاصة.

وكان للكافيين تأثير حسن علي النتائج للقدرتين إذا أعطي لمقاومة التعب أو للتخلص من آثارالعقار المنوم.

وكان المتوسط العام للإجابات الناجحة واحدة في النوعين، فإذا أحرز أحد الوسطاء الجولة كاملة في الخمسة والعشرين كارتا.

أحرز وسيط ممتاز نفس الرقم في النوع الثانى وكان النوعان من التجارب يخضع لنفس الشروط القاسية، وكانت أوفي تجربتين بالبرهان

أجريتا في بدء البحوث في جامعة ديوك تشملا سلسلة على الجلاء البصرى وحده وعلى التلباثى وحدها – وتسمى هاتان السلسلتان بسلسلة بيرس – برات، وسلسلة ترنر– أوبنى، وهناك من وجوه الشبه بينهما ما نرجيد الكلام عنه لحين وصف الاختبارات في الفصول القادمة.

وكان الوسطاء الجيدون في الجلاء البصرى وسطاء جيدين في التلباثى أيضاً، وقد استطاع ثمانية من تسع وسطاء أساسيين في تجارب جامعة دبوك أن يحرزوا نفس المستوى في متوسط الإجابات الناجحة في النوعين، وكان التاسع سيدة كانت تفضل بقوة وباستمرار تجارب التلباثى لأنها كما تقول تفضل التعامل مع الأشخاص بدل التعامل مع الكارتات التى قالت إنها تكرهها تماماً.

ومن مقارنة الأدلة يبدوأن الجلاء البصرى والتلباثى هما في أساسهما قابلية واحدة فهما تبدوان كمظهرين لعملية عامة من نفس المنوال من الإدراك خارج الحواس الذى يدرك وجههى الحقيقة الذاتى والموضوعى أى الأفكار والأشياء، وكان الدليل المشترك على التلباثى والجلاء البصرى من أقوى الأدلة على الإدراك خارج الحواس ود استعملت هذا التعبير في كتابى المنشور في عام ١٩٣٤ ليدل على القدرة الشاملة للتلباثى والجلاء البصرى، وقد وجدت بعد ذلك أن السير رتشارد بيرتون قد سبقنى واستعمل نفس التعبير منذ عام ١٨٧٠.

وقد سبق القول أن معظم ما أجرى من أبحاث على ا.خ.ا بعد ١٩٣٠ كان على الجلاء البصرى، وإن كان هناك بعض التجارب على الأسلوب القديم لاختبار التلباثى ظلت تجرى في خصوصاً إنجلترا.

والآن فقط أمكن التسليم بأن هذا النوع من التجارب لا يقيس التلباثى، ونحن نسميه الآن ا.ع.خ. أ أى الإدراك العام خارج الحواس ونعنى به أنه لا يفرق بين التلباثى والجلاء البصرى.

واختبارات ع. ا. خ. ا أصبحت في غاية التشويق عندما قورنت باختبارات الجلاء البصرى وحده والتلباثى وحدها، والمقارنة مهمة من ناحية أنها تخبرنا التماثل الحقيقى بين القدرتين، فإذا كان التلباثى والجلاء البصرى وظيفتان مستقلتان يملكها شخص واحد وهو الوسيط، كما وجدنا الحال في كثير من الحالات فكان يترتب على ذلك أنه في ع. ا. خ. ا أن تكون نسبة الإصابات الصحيحة ضعف النسبة في حالتى الجلاء البصرى أو التلباثى وحدها، وقطعا إذا كانت القدرتان مستقلتين وعملتا في اتجاه واحد لإحراز النتيجة لكانت الإصابات على مستوى أعلى، أما إذا لم تكن النتيجة أحسن في حالة ع.ا.خ. ا عنها في الجلاء البصرى والتلباثى لجاز الافتراض بأن التلباثى والجلاء البصرى هى نفس الظاهرة الأساسية.

وقد قامت الباحثة مارجريت برجام بعمل هذه المقارنة على الثلاثة، واستعملت الأطفال كوسطاءلها مع تغيير الاختبار من ع.ا.خ. ا تلباثى إلى جلاء بصرى فوجدت أن متوسط النتائج بصفة عامة واحد والنتيجة الكلية ذات مغزى رياضى، وكانت أعلى النتائج على التلباثى وحدها وأدناها على

الجلاء البصرى وحده، وحين جمعت نتائج العمليتين وجد المتوسط أعلى بقليل من ع. ا. خ. ا وهذه النتائج تحبذ قطعاً اعتبار التلباثى والجلاء البصرى عملية واحدة أى ا.خ.ا، حقيقة أن أعلى نسبة للنجاح وردت في تقرير في تاريخ البارسيكولوجى كانت في تجربة على ع.ا.خ. ا وقد عملت هذه التجربة بواسطة الأستاذ ب. ف. ريس هو عالم نفسى من كلية هنتر في نيويورك، كان الوسيط الممتاز بنتا اشتهر عنها «روحية» وغير محترفة، وقد أجريت التجربة في ظروف مواتية وكان المرسل والمستقبل في بنهائين مستقلين وقد اعتمدا على ساعات متوافقة الضبط، وقام الدكتور ريس بنفسه كمحطة إرسال مستعيناً بكوتشينة أ.خ. أ ومؤدياً محاولة واحدة كل دقيقة وتحت هذه الظروف أمكن للوسطية أن تحرز ١٨ نقطة من ٢٥ خلال سلسلة من ٧٤ تجربة على الكوتشينة كاملة، وفي إحدى هذه الحلقات وصلت نسبة الإصابات إلى ٢٥ من ٢٥ كما أن عددا منها كان مستواه أعلى من ٢٠ من٢٥.

وقد عاق المرض هذه السلسلة العجيبة بعد المحاولة ٧٤، وحين أعيدت التجربة بعد ذلك بعدة شهور وتحت نفس الظروف كان مستوى الإصابات مساوياً لمتوسط الحظ، وبعد عشر حلقات بالكوتشينة كاملة أوقفت التجارب، وبما أنه لم تحدث مقارنات بين هذه الطريقة وغيرها من الطرق فليس في الإمكان القول بأن نفس المستوى من الإصابات كان يمكن أن يحدث في الجلاء البصرى وحده أو التلباثى وحدها لو جربنا.

وكانت فترة العشرة سنوات بين ١٩٣٠ -١٩٤٠ فترة تحول في ا.خ.ا ففي نهايتها ثقتت قضية ا.خ.ا بقوة ففي عام ١٩٤٠ لم يبق إلا القليل النادر من الجدل الذى كان قائماً حولها، وقد بدأت التلباثى هذه الفترة بدون أساس تجريبى صحيح لها، ولكن الجلاء البصرى أعادتها إلى سابق قوتها وأخيرصا انتهت الدراسة المقارنة للجلاء البصرى والتلباثى إلى النظرية العملية التى تقول بوجود شيء واحد هو ا.خ.ا وأن الجلاء البصرى والتلباثى مظهران له.

وهذه الفترة من العشر سنوات دفعتتنا للأمام مرحلة طيبة في البحث في مشكلة الإنسان ففي نهايتها علمنا أن العقل يمكن أن يحصل على نتائج يمكن الوثوق بها عن المادة بدون تدخل الحواس وأن ا.خ.ا للأشياء هو مظهر لهذا التفاعل والإدراك، يعنى نوعاً من العلاقة الوظيفية بين الشخص المدرك والشيء المدرك، فإذا استطاع العقل زن يفعل ذلك وهو نفسه، إلى حد ما غير مادى فإن وجهة النظر الروحية للإنسان تكون قد حصلت على سند قوى، وكانت هذه المكتشفات هى بالضبط ما يحتاج لمعرفته أو الإلمام به أولئك الذين أزعجتهم الفكرة الآلية للإنسان، ودلت النتائج على الرأى بأن المخ هو المحور للإنسان هى تدليس علمى لم يكنْ له أساس حقيقى.

وقد أردنا أن نتعمق في هذه النقطة الفاصلة وأن نتيقن منها، فالتلباثى والجلاء البصرى يبدوان كلتاهما غير ماديتين من طبيعتهما التى هى خارج الحواس وأن الحواس تعمل على أساس الاستثارة المادية الواردة

من الشيء المدرك إلى الذات المدركة، ولكن الإدراك للأشياء الخارجية سواء كان عن طريق الحواس أو بغير طريقها مفروض فيه أنه تفاعل بين الشخص المدرك والشيء المدرك فهل يمكن أن يستغل الوسيط ا.خ. ا في هذا التفاعل مع الأشياء وظيفة مادية ماكرة خداعة لم يتبينها العلم حتى الآن؟ وهل نحن على الاستعداد لأن نقف بالتحديد موقف المتيقن أن ا.خ.ا هو خارج نطاق المادة؟ في إمكانا على الأقل بعمل بعض الاختبارات الخاصة أن نزيد في تركيز الأنظار على هذا الموضوع.

وما كشفت عنه أبحاث الباراسيكولوجى حتى الآن حول العقل وصلاته المادية ستحتل عدة فصول وأن التسلسل الذى سنتبعه هو المحاولة الجريئة لنتعقب الحدود الخارجية للعقل لآخر مداها في الكون.

الفصل الرابع

مدى سطوة العقل في المكان

هناك أمثلة كثيرة على أن العقل يستطيع أن يتخطى المسافات، فالإدراك الذاتى لحوادث بعيدة لم يكنْ هناك مجال للإلمام بها بالطرق المعروفة يتردد ذكره كثيراً، هذه الأحداث الروحية تملأ كثيراً من الصفحات في علم البراسيكولوجى غير التجريبى.

ومن أشهر الأمثلة ذلك الذى يرويه الفيلسوف الألمانى «عمانويل كانت» في كتابه عن «عمانويل سويدنبرج«، فبينما كان «سويدنبرج» في جوتنبرج في عام ١٧٥٩ استطاع أن يصف حريقاً يحدث في استوكهلم على بعد ٤٠٠ ميل منه، وقد أعطى وصفا تفصيلياً للحريق للسلطات الموجودة في المدينة كما أعطى اسم صاحب المنزل الذى احترق والساعة التى انتهت فيها عملية الأطفاء وبعد ذلك ببضع أيام وصل رسول ملكى وأكد الجلاء البصرى الذى حدث.

ومن خواص هذه الحوادث أنها لا صلة لها بالمكان، فالأحداث الذاتية من جميع الأنواع في الباراسيكولوجى مثل الجلاء البصرى في الأحلام والرؤى والإنذارات والإلهام لها تتأثر إطلاقاً بالمسافات.

وانتقال الفكر قد يحدث بين اثنين على بعد آلاف الأميال من بعضهما كما يحدث وهما في نفس المنزل، وقد يشعر أحد الأقارب بموت قريب له أو صديق عزيز عليه والاثنان في طرفي العالم.

وقد أخبرنى أحد أصدقائى من علماء النفس مرة أن ابنا له كان يعيش في جاوه منذ سنين مضت فرأى في المنام جنازة تمر بشوارع مدىنته الأصلية في كارولينا الجنوبية بأمريكا، وقد كان المنام واضح التأثير عليه لدرجة أنه كتب إلى أهله يسألهم إن كان ثم شيء حدث، وقد اتفق وقت الحلم مع جنازة والدته التى ماتت فجأة.

وقد وقف بمعمل الباراسيكولوجى حبر عظيم وزوجته ليرويا حادثة مشابهة، فبينما كانوا على سفر في سويسرا منذ سنوات مضت شعرت الزوجة بشعور لا يمكن أن يوصف بأن أختها في شيكاغو قد ماتت، وكانت الفكرة غير معقولة لدرجة أنها قررت ألا تخبر أحداً بها، وبعد ذلك بأيام قلائل أحست بأن من المحقق أن أختها قد دفنت، وفي هذه المرة أخبرت زوجها الذى كتب مفكرة بهذا الأثر ولو أنه كان في شك في حدوثه، وعندما نميت إليهم الأنباء تأكد لديهما أن أختها قد ماتت في نفس التواريخ التى أحست بها.

وحادثة أخرى ذكرها لى مدبر جامعة كبيرة، فقد كان من واجبه مرة أن يبلغ زوجين أمريكين بوفاة ابنهما فجأة في الصين، فعندما سمعا النبأ المحزن استدار الأب للأم وقال لها «لقد كنت على حق» فقد أبلغته قبل ذلك بعدة أيام متأكدة أن ابنها قد مات.

وقد حدث كثير من هذه الحوادث الباراسيكولوجية أثناء الحرب، وفي هذه الحوادث كانت تشعر الزوجة أو الأم أو الخطيبة لرجل في القوات المسلحة بإصابته أو وفاته في نفس الوقت الذى تمت فيه الفاجعة وفي معظم هذه الحالات كانت الفكرة تأتى للشخص عابرة مسافات شاسعة من الأرض والجبل والبحر.

ومعنى هذه التجارب الشخصية واضح بما فيه الكفاية، ولكن هناك سؤال واحد حول هذه الحقائق نفسها، فإذا أمكن أن نبثت من أن ا.خ.ا كان هو العامل الفعال في هذه الحالات فإنها تشير إلى أن هذا النوع من النشاط العقلى لا يخضع لحدود المكان التى تخض لها العمليات العقلية الأخرى، ولو كان ما نعالجه موضوعاً عادياً لاكتفينا بالمجموعة الكبيرة من الحالات الباراسيكولجية التى وردت عن أشخاص موثوق بها كدليل كاف.

ولكن ما نعالجه ليس موضوعاً عادياً، وإن مشكلة مهمة كالتى نحن بصددها – وهى مشكلة هل العقل نظام مادى بحت أم لا– تحتاج لأصلح الأدلة أساساً، وأن هذه الحالات الذاتية لا تعتبر دليلاً، لكنها تجمع لما تشير إليه من نواحى لكى تصبح هدفاً للتجارب العلمية بعد ذلك.

وإن هذه الحالات لتعلمنا الكثير وأنا نرحب بأى تقرير تفصيلى عن أيها ولكن إذا أردنا التحقيق العلمى والأدلة الثابتة فلابد لنا من إجراء التجارب الخاضعة للتحكم الدقيق.

وا.خ. ا التجريبي يظهر أيضا أنه لا يرتبط بحدود المكان، وحين كنا نباعد في تجاربنا الأولى بين المرسل والمستقبل في تجارب انتقال الفكر وبين الوسيط والمرئى في تجارب الجلاء البصرى فقد كتبنا نفعل ذلك عن غير قصد، وكنا نباعد المسافة في بعد الأحيان حتى نضمن عدم الغش باستعمال الرموز الحسية، وفي الحالات الأخرى كان البعد في المسافة باستعمال الرموز الحسية، وفي الحالات الأخرى كان البعد في المسافة وسيلة من وسائل الراحة إذ كان يحدث أن يكون المستقبل في مكان بعيد عن مكان المرسل لأسباب خارج نطاق التجربة.

ولكن بعد المسافة بين المرسل والمستقبل مهما تغير فقد ثبت بالدليل أنها لا تؤثر في النتائج.

فقد سبق أن ذكرت أن الوسيط في تجارب الأستاذ بروجمان كان يصيب من النقط عدداً أكبر والمجرب بعيداً، عنه في حالة المجرب وهو قريب منه، وكذلك دخلت المسافة في أبحاث ا.خ.ا الأولى بطريقة التنويم المغناطيسى، فمثلا استطاع الدكتور جانيه والدكتور جلبرت من تنويم وسيطتهما في منزلها على بعد ثلثى ميل بالتأثير عليها بالتلباثى، وكذلك في تجارب سنكلر على التلباثى فقد تحقق النجاح العجيب ف يهذه التجارب وكانت المسافة بين المرسل والمستقبل ثلاثين ميلاً، كما أن المسافة في تجارب أخرى كانت أبعد من ذلك، فمثلا ف. ل. أشر، ا. ل. برت كانا على مسافتى ١٢٠، ٩٦٠ ميلا في بعض أوقات أبحاثهما في التلباثى باستعمال الكوتشينة العادية.

ولم تكنْ كل تجارب ا.خ. ا التى أجريت عن بعد ناجحة، كذلك لم تكنْ كل التجارب التى أجريت من قرب، ولكن المهم أن نجاح التجربة أو فشلها لم يكن للمسافة أو بعد المكان أو قربه أى دخل فيه.

ففي تجارب استابروك انخفضت نسبة النجاح حين بعدت المسافة، ولكن هذا الفشل لا يمكن أن تكون المسافة أى المكان عاملاً فيه لسببين: أولهما أن هذه التجارب كانت معادة على الوسطاء، وثانياً لأن التجارب الأولى هى أيضا كانت منخفضة النتائج، وجاءت النتائج في الثانية أشد فشلاً، فليس من المحتم أن تكون المسافة عاملاً في نتائج الأبحاث، وكان من الواجب أن تكون الاختبارات مقارنة بصفة خاصة باستعمال نفس الوسطاء لإجراء تجارب متماثلة تماماً مع تغير المسافة فقط.

وأول هذه التجارب المقارنة التى أجريت في جامعة ديوك كانت على مسافات تقاس بالياردات وكانت الاختبارات تجرى في حجرات مختلفة في نفس المبنى، ففي بعض الأحيان كان هناك انخفاض في النجاح نتيجة لبعد المسافة وفي بعضها الآخر كانت هناك زيادة في النجاح، ولكن لم تكنْ نتيجة منتظمة بالنسبة للمسافة.

والاختباران القاطعان بالنسبة للمسافة سبق ذكرهما – تجارب بيرس برات على الجلاء البصرى وحده، وتجارب ترنر أو نبى على التلباثى وحدها – وفي كلتى المجموعتين عملت التجارب على مسافات قصيرة جداً وأبعاد طويلة جداً، وكان البحثان تحت اشتراطات قاسية وكان كليهما نتائج ذات مغزى بعيد.

وتجربة بيرس برات من التجارب العلمية الفذة وتستحق أن تذكر بالتفصيل، وقد كانت تجربة على الجلاء البصرى وكان الوسيط فيها طالب في اللاهوت هو «هوبرت بيرس» وكان «الدوربرات» مازال حديث التخرج في علم النفس وكان المجرب، ففي المجموعة الأولى كانت المسافة بينهما قصيرة إذ جلس الاثنان وبينهما مائدة وكانت الكروت على بعد ياردة من بيرس الذى أحرز في ٣٦ حلقة «أى ٩٠٠ كرت» متوسطا يعادل ٨ نقط في الحلقة، ثم أجريت تجارب على بعد ١٠٠ ياردة وكان عدد الحلقات «أى الكوتشينة الكاملة الشاملة لعدد ٢٥ كارت» ٣٠ «٧٥٠ كارت فكان متوسط الإجابات الصحيحة ٩ نقط في الحلقة الواحدة، والآن إذا نسبنا استعراف بيرس على الكروت إلى نوع من الطاقة المادية التى تشع منها فتؤثر في بيرس لكان تأثره بها يتناسب عكسيا مع مربع المسافة بين الوسيط بيرس ومصدر الإشعاع «الكروت»، أو بعبارة أخرى أن زيادة المسافة بين بيرس والكروت من ياردة واحدة إلى مائة ياردة كان خليقاً أن ينزل بالصواب في النتيجة إلى واحد من عشرة آلاف «١٠٠»، وعلى هذا يمكن القول بأن ما نعلمه من قوانين الطبيعة الخاصة بانتقال الطاقة لا ينطبق على هذه المكتشفات.

وكانت المجموعة الثالثة في تجارب بيرس برات تتكون من ٤٤ حلقة «١١٠٠ كارت» وكانت المسافة ٢٥٠ ياردة، وفي هذه هبط متوسط بيرس إلى ما يقارب ٧ نقط في الحلقة بالنسبة لثمانى نقط في الحلقة على مسافة قصيرة، ولكن هذا المتوسط من أبعد ما يكون إذا حكمنا قوانين علم الطبيعة في هذه التجربة، فضلاً عن أن بيرس كانت نتائجه في بداية

التجارب على مسافة ٢٥٠ كنتائج ١٠٠ وإذن فلابد أن هناك خللا حدث لا نعرف له تعليلاً.

كانت نتيجته أن بدأ بيرس يتعثر ثم هبط متوسطه عن متوسط الحظ حتى وصل إلى الصفر في بعض الحلقات وهذا لا يمكن أن يحدث من الحظ وحده في عدد من النقط يزيد عن عشرة.

وتجارب ترنر أوبنى على المسافة أكثر مسرحية، وكانت التجارب التحفظية «كونترول» تشمل مجموعة من إحدى عشرة حلقة على التلباثى وحدها «٢٧٥ كارت» وكانت الآنسة تيرنر هى الوسيط والآنسة أوبنى هى المجرب المرسل والاثنتان في نفس الغرفة، وفي هذا القسم من البحث كان متوسط الآنسة تيرنر أقل قليلاً من ٨ نقط في الحلقة، وعلى مسافة ٢٥٠ ميلاً ارتفع المتوسط إلى ١٠ نقط في ثمانى حلقات «٢٠٠ كارت» بمعدل حلقة كل يوم، وكانت نتائج الاختبارات تهبط يوما عن يوم بشكل ملحوظ فكانت ١٩، ١٦، ٧، ٧ ، ٨، ٦ ، ٢ ولكن لم يكنْ سبب الهبوط بعد المسافة، فقد وجدنا كما سيأتى بعد أن هذا الهبوط يلازم باستمرار نتائج اختبارات الباراسيكولوجى.

وكانت هناك تجارب أخرى على ا.خ. ا بتأثير المسافات، ومعظمها لم يكنْ المقصود منها اكتشاف أثر المسافة وكان البعض الآخر لا ضابط له حتى تمكن مقارنته، ولكن للنتائج أثر في الإجابة عن مشكلة المكان وكلها تؤكد ما وصلنا إليه من أن ا.خ. ا لا يتأثر بالمسافة خضوعاً لأى قانون.

وبعض هذه المجاميع من التجارب قد ذكرت لصلتها بمواضيع أخرى، فمثلا في المجموعة الكبيرة اليت قام بها مارتن وسنتريك، كانت التجارب على مسافات مختلفة في نفس المبنى وإن كان الفارق بضع ياردات، ولكن الأجوبة الصحيحة لم تتأثرْ ببعد المسافة، وكذلك في تجربة وارنر ومجموعة ٢٥٠ محاولة كان متوسط الإجابات الصحيحة ٩ نقط من ٢٥ وكانت المسافة ٤٠ قدماً بين الوسيطة والكروت، وهذه النتيجة قريبة الصحة من التجارب التى أجريت على الوسيطة والكروت أمامها ولكن هناك عناصر أخرى في التجربة غير المسافة قد دخل فيها التعديل بما يجعل هذه النتيجة مجرد إشارة، وفي سلسلة تجارب ريسى الأولى اليت سبق ذكرها استطاعت الوسيطة أن تحصل على أعلى متوسط في جميع تجارب ا.خ. ا الطويلة ولو أنها كانت على بعد ٥٠٠ ياردة من الكروت، ففي مجموع ٧٤ حلقة «١٨٥٠ كارت» كانت متوسط الأجوبة الصحيحة ١٨ نقطة من ٢٥.

وهناك تجارب أخرى على ا.خ.ا تلعب فيها المسافات البعيدة دوراً، فهناك عدد من التجارب التى أجريت في جامعة تاركيو في الميسورى وفي جامعة ديوك كان الوسطاء فيها مبعثرين في أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية – وكانت الكروت ا.خ.ا يكشف عنها في مركزى التجارب في أوقات محددة وكان الوسطاء يرسلون بإجاباتهم بالبريد لأى مركز يعملون معه، وكان من الطبيعى أن ترسل التعليمات والأجوبة بالمراسلة، وكان المجربون لا يعرفوا بعض الوسطاء كما لم يكنْ كل الوسطاء ملمين بالطرق المتبعة في الاختبار في المعامل، وعلى ذلك فقد كانت المشكلة أمام هؤلاء

الوسطاء في تجديد الاتجاه أصعب مما لو كان سبق لهم الاختبار في هذه المعامل، وعلى ذلك فقد كنا نتوقع أن تكون الإجابات الصحيحة أقل وإن اتضح بعد ذلك أنها كانت أعلى من متوط الحظ بدرجة تجعلها ذات مغزى.

وقد أمكن بهذه النتائج على بعد المسافات الوصول إلى حكم، فبمقارنة التجارب التى أجريت على أبعاد مختلفة تتراوح بين بضعة أميال وآلاف الأميال يبدو للإنسان بوضوح أن المسافة أو المكان لا أهمية له في نجاح تجارب ا.خ.ا والعامل الوحيد الذى كان له أثر هو مقدرة الوسيط نفسه على الإدراك خارج الحواس تحت ظروف هذه التجارب، فلم يكن الأقربون من موضع التجربة أكبر حظاً في النجاح باستمرار كما لم يكن الأبعدون أقل حظاً.

وقد قام هويتلى كارنجتن بتجربة مماثلة في إنجلترا، وقد اختار هدفه في رسوماً بدل كروت ا.خ.ا وكان وسطاؤه مبعثرين في أرجاء مختلفة من أوروبا والولايات المتحدة، وقد أشار كارنجتون في تقريره أن الوسطاء الذين ساهموا معه من جامعة ديوك كانوا أوفر حظا في النجاح من أى مجموعة أخرى وإن كانوا أبعد الوسطاء مسافة منه.

وأطول مسافة دخلت في تجربة منظمة مضبوطة تلك المسماة بتجارب زغرب – دير هام للجلاء البصرى وقد انتهت قبيل اشتعال الحرب العالمية الثانية، وكانت هذه التجربة بطريقين فكان قائدها الدكتور كارلو ماركيزى من جامعة زغرب في يوغوسلافيا يتعاون معه مجموعة من

جامعة ديوك وكانت المسافة تزيد عن ٤٠٠٠ ميل، وفي استعراف الدكتور ماركيزى نفسه على الكروت التى كانت تكشف في جامعة ديوك كانت أجوبته الناجحة أعلى بكثير مما لا يدع مجالاً للحظ كتفسير لهذه النتائج، ولم يحظ معاونوه في دير هام بنفس النجاح الذى لقيه هو في زغرب، فلم تكن نتائجهم برغم أنها أعلى من متوسط الحظ ذات مغزى.

كما أن الدكتور ماركيزى كانت نتائجه الشخصية أعلى على بعد المسافة منها في قريبها – ولكن ظروف التجربة قد دخل عليها تعديل كبير مما لا يسمح باستيعابها لمقارنة ذات قيمة، ولكن من المهم أن نعرف أن الإدراك خارج الحواس له القدرة على قطع مسافات طويلة وفي ظروف لا تسمح لأى نوع من أنواع الطاقة المادية أن تجاريه فيها.

«وحين كان هذا الكتاب تحت الطبع، أتم الدكتور ماركزى تجربة جديدة، وكانت ذات مغزى أعلى من الحظ ومؤيدة للتجربة التى أجراها قبل الحرب».

ولا أرى معنى لإجراء تجارب على مسافات أبعد من ذلك، ونحن الآن لا يهمنا أن نرى حدوداً أبعد لـ ا.خ.ا مما رأينا، والمشكلة تنحصر في هل ا.خ.ا يمكن اعتباره نوعاً من الظواهر المادية التى يمكن تفسيرها بالزمان والمكان وللإجابة على ذلك نجد أن التجارب التى أجريت حتى الآن تكفي، والإجابة هى أنه حتى الآن لم يظهرْ أن المكان «المسافة» لها أثر في تجارب ا.خ.ا.

والعالم الطبيعى العادى لن يسلم بإلغاء المكان «المسافة» هكذا بسهولة، فقد اعتاد أن يفكر في كل شيد داخل مفهوم الزمان والمكان فقد يفسر ما سبق بأنه قد يكون هناك تخفيض في شدة الطاقة الغريبة الآتية من الكروت أو خلالها أو من مخ المرسل ولكن مخ المستقبل له القدرة على مضاعفتها وتقويتها كما يفعل جهاز الراديو أو مكبرات الصوت في الاحتفالات العامة، ولكن نظرية التقوية هذه لا يمكن أن تفسر الحالة إذا ما اعترضها بعض الأدلة على ا.خ.ا وصلته بالظروف العادية، فكر مثلا في العقبات والحواجز التى كانت قائمة في بعض تجارب ا.خ.ا فأى نوع من أنواع الطاقة يمكن أن يخرج من مجموعة الكروت يمكن أن تمتصه بعض الحواجز الطبيعية تماما كما يحدث للصوت أو الضود وموجات الراديو حين تعترضها بعض العوائق المناسبة فجميع تجارب ا.خ.ا التى كانت على مسافة بعيدة كانت فيها عوائق أو حواجز من نوع أو آخر أوجدتها الطبيعية بين الوسيط والكروت، ولكن هذه الحواجز لم تعوق ما يحمل ا.خ.ا عليه.

ففي تجارب بيرس برات كانت هناك أربع حوائط منها اثنان من الحجر بين الوسيط والكروت، وفي تجارب ريس كانت هناك تل، وبعض المنازل في الطريق، وفي مجموعة التجارب التى تحمل اسمى الآنسة تيرنر والآنسة ابونى كانت هناك عدة سلاسل من الجبال تعترض الطريق، وفي التجارب البعيدة المدى جدا كان هناك حاجز الجو والأرض نفسها.

كما أن طول الموجة يجب أخذه في الاعتبار فأى نوع من الطاقة يمكن أن يشع من الكروت أو الأهداف الأخرى فيصلح لحمل ا.خ.ا تحت ظروف التجارب السابقة، فأمواج الراديو القصيرة أطول بكثير من أن تحمل الرموز المرسومة على الكروت وأشكال الأهداف الصغيرة فالأمواج التى يمكن أن تؤدى هذه الوظيفة لابد أن تكون أطوالها أقصر من حجم الأشياء التى تصورها، فإذا كانت الأمواج بهذا القصر لتؤدى هذا الغرض فإنها تكون من النوع الذى يسهل امتصاصه، وعلى ذلك تكون الحواجز ذات تأثير عليه.

وهناك طرق أخرى للتأكد فيما كان إذا كان ا.خ.ا مادياً، فما هو تأثير وضع الأهداف في اختبارات ا.خ.ا فهل يؤثر مثلاً وضع الكروت على زاوية خاصة حين كشفها؟ من الواضح أنها تؤثر لو كان ا.خ.ا مادياً، ولكن تجارب ا.خ.ا واضحة التحديد لهذه الأسئلة، فرغما عن أنه لم تجر التجارب هذا الغرض إلا أن الملاحظة وحدها كفيلة بالايضاح.

فخذ مثلاً الاختبارات الجلاء البصرى التى كان يطلق عليها الكلية وكان فيها الوسيط يطلب منه أن يستعرف على كل الكوتشينة بدون أن يتحرك كارت منها، فهذه الكوتشينة مجموعة فوق بعضها لا يزيد سمكها الكلى عن ١/٤ بوصة وموجودة بداخلها ٢٥ كارتا يرسل كل واحد بموجاته الضعيفة من الطاقة وكلها في وقت واحد وذلك حسب النظرية المادية، ولكن ما يكن الوسيط يجد صعوبة مادية في التعرف على كل واحد منها كما لو كانت كلها تؤخذ كارتاً، كارتاً، وقد استعمل مارتن وستريك

هذه الطريقة باستمرار في تجاربهما ولم يستعملا غيرها في أبحاثهما الناجحة جداً. بشكل ملحوظ جداً، كما أن ماركيزى فعل المثل في تجاربه عبر المحيط «الأطلنطى» وعلى أساس النظرية المادية ستكون نتيجة وجود هذه الكروت فوق بعضها عبارة عن صورة مجتمعة غير واضحة المعالم للخمسة والعشرين كارتاً مع بعضها.

وهناك دليل أيضا على أن الزاوية التى تكشف بها الكروت في عمليات ا.خ.ا لا أهمية لها ففي بعض الاختبارات تكون موضوعة على المائدة وحين تكشف لا يكون منها جهة الوسيط إلا حروفا فقط لا وجهها ولا ظهرها، فإذا كانت الكروت على بعد مئات الياردات من الوسيط أو على بعد مئات الأميال مئة فستكون الطاقة المنبعثة منها، وفيها رسم الرمز في صورة مستوى رفيع جدا يمكن اعتباره خطا مستقيما وهو كخط الحبر الموضوع على حرف الكارت، وعلى هذا تكون الدائرة أو المستطيل أو النجمة سواء فستكون كلخها خطاً مستقيماً حسب نظرية الموجات المادية.

ولكن المصاعب التى تقف أمام التفسير المادى لا تقف عند حد، فهناك صعوبة كبرى لابد من ذكرها، ففي بعض التجارب يستعمل كمؤشر أمام الوسيط كوتشينة أو رسم أو أى مرئى آخر يركز الانتباه عليه ولكن هناك تجارب ليس فيها مرئي ولا كارت ولا شيء إطلاقاً من العالم المادى أثناء التجربة يستعمل كهدف للوسيط، تلك هى تجارب التلباثى المجردة وحيث إن هناك نشاطاً مخياً خاصا يلازم التفكير في رمز بعينه يمكن أن

نعتبر هذا النشاط المخى كهدف ظاهر في اختبار ا.خ.ا فهل هذا النشاط المخيى في رأس المرسل يخرج طاقة مادية تؤثر في الوسيط بنفس الطريقة التى يؤثر فيها المرذى في تجارب الجلاء البصرى؟ وحتى الآن لم يظهرْ في أبحاث علم الطبيعة أى نوع من المباديء عن الطاقة يمكن أن يجارى أقل مجاراة هذين النوعين من الإدراك خارج الحواس.

ولقد تحدثت في هذه المشاكل مع الكثير من علماء الطبيعة، وفي الغالب كان علماء الطبيعة متفتحى العقل بالنسبة للأبحاث الجديدة وربما كان مرجع ذلك إلى ما رأوه من تقدم سريع في الاكتشافات الطبيعية والتى حدثت في جيل واحد، ولكن على حين كان هؤلاء العلماء في علم الطبيعة ذوى اهتمام زائد بالأدلة على الإحساس الخارج عن الحواس أثر من أى نوع من العلماء الآخرين إلا أنهم في كثير من الحالات كانوا يعربون بصراحة عن أملهم في أن يجدوا بطريقة أو أخرى تعليلا لهذه المكتشفات مبنياً على علم الطبيعة وحتى الآن لم يتمكنْ واحد منهم أن يعطى نظرية مبنية على علم الطبيعة لتعطى ا.خ.ا تفسيراً كافياً في نظرهم للمكتشفات التجريبية لعلم الباراسيكولوجى.

وقد قال بعض هؤلاء العلماء إن علم الطبيعة في المستقبل سيحتوى على الأسس التى تفسر كل ما هو معلوم عن الإدراك خارج الحواس، ولكن هذا تخمين لا معنى له، فالمثل يمكننا افتراض أن علم الباراسيكولوجى في الغد سيستمر في إضافة العقبات أمام التعليل المادى، فعلينا أن نفكر

بما لدينا الآن من معلومات في العلمين معا علم الطبيعة وعلم الباراسيكولوجى.

وقد أشار أحد علماء الطبيعة إلى أن اختبارات ا.خ.ا ما تبدأ بمرئى وتنتهى باستجابة الوسيط الذاتية، ثم أضاف «إن في تجارب علم الطبيعة حينما نواجه موقفاً في أحد الاختبارات يكون طرفاه ماديين نعلم أن ما يحدث من التفاعل بين هذين الطرفين لابد أن يكون تفاعلاً أو سلسلة من التفاعلات المادية، فكيف يمكن أن نخرج من نطاق علم الطبيعة إذا كيف تعتمد عليها في بدء الاختبار ونهايته؟

وإجابتنا على هذا السؤال هى أن كل أنواع الطاقة المعروفة لدينا يمكن تحويلها من نوع إلى آخر، فالحركة قد تولد الحرارة والضوء قد يولد الطاقة الكيميائية، والطاقة الكيميائية قد تولد الحرارة وهكذا، ولا يستطيع قائل أن يقول إنه بسبب أن نهاية التفاعل كانت الضوء فلابد أن يكون التفاعل على طوله مكون من الضوء، وقد يحدث أن تقع عدة تغييرات في تسلسل التفاعل، فمن المنطق أن تقول إن هذا التفاعل ولو أنه ينتهى بنهاية مادية فقد يحدث أن تكون إحدى حلقات تسلسلة ليست مادية ولو أنه يمكن أن تتحول إلى مادية وإلا استحال إتمام التفاعل.

ولكن رغما من ذلك فلسنا في حاجة إلى أن نتوكأ على المنطق لتأييد الرأى القائل بروحية الإنسان.

فالمعلومات الآتية من اختبارات المسافات البعيدة وغيرها من العلاقات المادية تكون مجموعة هائلة من الأدلة التجريبية، ولم نجدْ في أى بحث من أبحاث الإدراك خارج الحواس أى شيء يدل على وجود أى أثر منظم وموثوق به يربط بين المسافة ونتيجة الاختبارات في أى نوع من أنواع الإدراك خارج الحواس، وحتى لو أخذنا في الاعتبار التذبذبات التى تحدث في اتمام الوسيط و عناصره الروحية الأخرى فلا يمكن أن نكشف أى نظام أو قانون يربط بين الاختلاف الحادث في النتائج وبين المسافة الداخلة في الاختبار، أى بعبارة أخرى «لا نستطيع أن نشير إلى اختبار واحد ونقول بصفة مؤكدة»، إن هذا حدث بتلك الطريقة بسبب وجود مسافة بين الوسيط والهدف.

وعلى ذلك فليس هناك دليل على أن للمكان أو المسافة في أى صلة من صلاتها تأثير على الإدراك خارج الحواس، صحيح إنا لا نستطيع التعميم خارج نطاق ما لدينا من الحقائق، فمثلاً لم نختبر لا التلباثى ولا الجلاء الروحى عل مسافات واقعة بين الكواكب، ولكن هذا الاعتبار أكاديمى محض إذ لم يعرفْ حتى الآن نوع من الطاقة لم يتأثرْ بالمسافات التى لدينا دليل عليها، وعلى ذلك فحسب الوضع الحالى فإن الإدراك خارج الحواس يخرج بصفة قاطعة على قوانين علم الطبيعة فيما يختص بالمكان « أى المسافة أو البعد» وعلى ذلك فلابد أنه غير مادى في كيانه، حتى الجلاء البصرى، وهو هذه الظاهرة المحيرة التى تشمل العقل والمادة في تفاعلها لابد أن تكون ظاهرة عقلية وليست عملية أو نشاط مادى لأنه قد وضح أنها مستقلة عن تأثير المكان.

وبثبوت هذه الخاصية للإدراك خارج الحواس نكون قد وصلنا إلى الخطوة الثالثة في تقدمنا نحو إثبات أن هناك في نطاق عقل الإنسان ما لا تستطيع قوانين المادة أن تحده ويلى هذا منطقياً أى بعد دراسة الصلة ا.خ.ا والمكان أن نبحث الصلة ا.خ.ا والزمان وهو الموضوع التالى، وأن مشكلة الطبيعة الأساسية للعقل الإنسانى في كثير من مظاهرها تتركز بصفة حادة في الفصول التالية.

الفصل الخامس

عبر حدود الزمان ـ التنبؤ

والآن نأتى إلى ما لو ثبت وجوده حقا لكان أعجب قدرة في الإنسان وكان استلال هذه الموهبة مما يشبه المعجزات في كل أنواع الحضارات التى ظهرت فيها،

ووهى الموهبة أو القدرة المعروفة بالتنبؤ وكان على مصر العصور يروع الناس قدرة النبى أو المتنبيء على أن يخوض غمار المستقبل ليبشر بحوادث لا يمكن لأدهى العقول أن تستنجها مما تعلمه عن الواقع، وكانت الثروة والقوة والمجد الدنيوى أو الكهنوتى تناسب نحو أولئك الذين استطاعوا أن يبعثوا في الناس الإيمان بقدرتهم على التنبؤ، وكان الذين يصدقون هذه التنبؤات يرون أنها ليست وليدة هذا العالم بل هى آتية من عالم علوى أو عالم إلا هى.

ومازالت النبوءة في عهدنا غريبة كما كانت في الماضى، ومع أن الإيمان بما فوق الطبيعة لا مكان له في العلم الطبيعى فلا شيء يبدوأنه خارج على قوانين الوجود كتلك القدرة على التنبؤ بالمستقبل، وسواء نظرنا إليها من ناحية المنطق العادى أو العلم النظرى فإن القدرة على التنبؤ بحوادث لم تقعْ بعد ولا وجود لها وأن يكون ذلك غير مبنى على استنتاج منطقى هذه القدرة غير حقيقية وغير مفهومة، ولو أخذنا بظاهر الأشياد

لكانت معرفة الحوادث المستقبلة تبدو كأنها قلب لقانون السببية في العلم الذى يقول بأن السبب يسبق النتيجة فتنقلب الأوضاع فتوضع العربة أمام الحصان والنتيجة قبل السبب.

فكر لحظة في الإدراك لحادثة حاضرة ثم لحادثة مستقبلة.. ففي الإدراك الحسى العادى كالإدراك البصرى ماذا يحدث فيه؟.. الذى يحدث هو أن حادثة مادية تقع كضوء يلمع فيحدث أثره في الحواس في عينى مثلاً فيحدث الإدراك للحادثة وأرى النور.. ومن عادتنا أن نقول إن الضوء هو الذى يجعلنا نرى، ولكن إذا كانت الحادثة في المستقبل فإن الأوضاع تنقلب فأنا أستجيب للضوء الذى لم يقعْ إلا بعد أن أراه، ومن الصعب فهم كيف يحدث الإدراك وهو نتيجة قبل أن تقوم مسبباته، ومن وجهة نظر العلم الحالى لا يمكن تصور كيف يقع إدراك المستقبل، فإذا كانت هناك فترة في تاريخ العلم تسمح باستعمال كلمة مستحيل فقد كانت حين ظهرت نظرية التنبؤ.

ولكن العلم لا يرى «مستحيلا» وعلى النظريات دائما أن تلاحق الأدلة الثابتة وهذان المبدآن أساسيان في البحث العلمى، وبدون الخضوع لهما يصبح العلم عقيدة مفروضة، فإذا قام الدليل على ظاهرة ما وصل إلى مرحلة كافية من القوة فعلى الهيكل العلمى ونظرياته أن تعدل في كيانها لتوسع مكانا لهذه الظاهرة، ومهما بدتْ من عدم الاحتمال ومن تضاربها مع المعروف عن العلم ومع عدم استساغتها فإذا صح بالبرهان أنها حقيقة فلا يحق للعلماء أن ينكروها أو يتجاهلوها.

فإذا أقيم البرهان على وجود المعرفة بالمستقبل فعلى العلم أن يوسع في تصوره للوجود ليسمح بمكان لهذا الجزء من المعرفة.

ولكى تبرهن على وجود النبوءة فلابد من دليل قوى.. وكما قال العالم لابأس أنه كلما بدت نظرية ما أنها غير محتملة كلما احتاجت من الأدلة القوية لتدعيمها، ولكن إذا ثبت وجود سبق الإدراك أو العلم فستكون هذه بداية حقيقية في عالم الفكر الإنسانى أشد بروزاً مما خلفته أعظم اكتشافات العلم حتى الآن.

والدليل التجريبى على سبق الإدراك حديث العهد جداً، ومن الغريب حقاً أن يتجاهل العلم هذه المشكلة ذلك الأمد الطويل، وحتى ذلك العهد الذى قامت فيه البحوث في جامعة ديوك في خريف عام ١٩٣٣– لم تكنْ هناك تجارب منظمة على النبوءة وسبق الإدراك.

وهذا الإهمال يبدو أشد عجباً حين نذكر أن الزعم بالقدرة على التنبؤ كان موجوداً خلال جميع حقب التاريخ في كل منطقة من بقاع العالم.

وفي غالبية الجماعات التى سادت العقيدة في ثقافاتها كان المتنبئون من بين المنظمات الدينية وهذه الصلة هى التى أبعدت المشكلة عن طريق العلم التجريبى، وكان العلماء الطبيعيون من جانبهم على قليل من الثقة في مزاعم التنبوء لدرجة أنهم لم يروها أهلاً للفحص.

ولكن لم تكنْ كل مزاعم سبق الإدراك تنتسب للدين، فهناك حالات كثيرة لما يبدو أنه سبق إدراك تظهر تلقائياً في حياة البشر العاديين

من الرجال والنساد، وفي الحقيقة، فإن جزءاً كبيراً من الأحداث الباراسيكولوجية الذاتية التى ورد عنها ذكر تحتاج في تفسيرها إلى وجود سبق الإدراك، فهى تتصل بأحداث قادمة ولا تتصل بأحداث حاضره أو ماضيه، فمن الأدلة على ذلك أنه كثيراً ما يحدث أن يرى شخص على وشك القيام برحلة منا ما تحدث فيه فاجعة أو خسارة ثم تأتى الحوادث بعد ذلك لتؤكد الحلم، كما قرر الكثيرون أنهم كانوا يحسون بشعور غامض بخطر داهم وكان إحساسهم قويا لدرجة أنهم يسجلون ذلك الإحساس أو ينقلونه إلى غيرهم ثم تأتى الحوادث بعد ذلك لتؤكده.

وفي يوم من الأيام، قبل أن أبدأ اختيارات سبق الإدراك، أتى إلى أحد تلامذتى، وهو رجل ناضج وموثوق به ويعمل الآن طبيبا وكان ذلك عقب إحدى المحاضرات وأبلغنى عن حادثة وقعت في البنسيون الذى ينزل به فقد كان ينزل معه في هذا المقر عروسان هما السيد ج. وزوجته وعم جيم. وقبل أن أسمع القصة بيومين استيقظت السيدة ج من نومها على حركات عنيفة من زوجها الذى كان مهتاجاً وأخبرها عن حلم مزعج آه، فقد رأى نفسه في غرفة بيضاء والنور في أعلاها، وكان فيوسط الغرفة مائدة يرقد عليها شخص منبطح على هظره وركبتاه إلى أعلى، وكان وجهه عارياً ولكنه كان مشوها ولا يمكن تمييزه، ثم تلت ذلك بعض الرمزيات الدينية التى تدل على الوفاة ثم ظهر شبح شد الأغطية الداخلية فنجح في انتزاعها وحملها معه سائراً بين أستار من اللهب.

والذى حدث في اليوم التالى أن السيد ج استدعى من عمله ليذهب إلى المستشفي، وهناك أدخل إلى غرفة العمليات وحين دخلها تميز على الفور المنظر الذى رآه في حلم البارحة، فقد كانت الغرفة بيضاء والضوء في أعلاها والمائدة في الوسط والشخص في الوضع الذى رآه فيه من قبل والركبتان إلى أعلى والوجه مشوه لدرجة يصعب معها تمييزه، وحين استدعى إلى المستشفي كانوا قد أخبروه أن عمه جيم قد أصيب، فقد صدمته سيارة وهو يهبط من الأوتوبيس، وقد مات قبل أن يغادر السيد ج المستشفي.

وقد جمعت كثيرًا من هذه الحالات ونشر عنها، وهى تترك أثرا في النفس حين قراءتها ولا تترك مجالاً للشك في أن سبق الإدراك يستحق البحث، وأن طبيعة نظرية التنبؤ تقتضى أن نقدم للناس قدراً أكبر من التقارير عن الحالات الذاتية حتى يستطيعوا قبولها والإنسان لا يستطيع دائماً أن يقدر بحق الإمكانيات والأخطاء العارضة في شهادة الشهود وفي تأويلهم وغير ذلك من العوامل قد تدخل في الحكم النهائى.

ولم تكنْ الحالات الذاتية هى التى بعثت على عمل التجارب على سبق الإدراك، لقد لعبت دورها في إيجاد ظل في العقل ولكننا اتجهنا إلى عمل التجارب كخطوة منطقية بعدما حصلنا عليه من النتائج في ا.خ. ا فقد كانت الأدلة التى حصلنا عليها في خريف عام **١٩٣٣** المتعلقة بالصلة بين الإدراك خارج الحواس والعالم المادى جعل ا.خ.ا بالنسبة للحوادث المقبلة خطوة تالية يمليها المنطق والتفكير وكانت الفكرة أن العقل يمكن أن

يتخطى حواجز الزمان كما تخطى حواجز المكان، قد أعقبت تجاربنا على ا.خ.ا مستقلا عن المكان «المسافة» فلابد أنه مستقل عن الزمان بالنسبة لعملنا العادى الذى يحده الزمان والمكان «أو المسافة» أى أن الحركة العادية في المكان تحتاج إلى الوقت أو الزمان وعلى ذلك فما يكون خارج المكان «البعد» فلابد أن يكون خارج الوقت أو الزمن أيضا، فإدراك الأشياء الماضية أو المقبلة يتمشى مع إدراك الأشياء أو الحوادث البعيدة، ولم يكنْ هناك مفر بالتفكير السليم من الوصول إلى هذه النتيجة ولكنها كانت في حاجة إلى الأدلة التجريبية للبرهنة عليها منطقياً.

وكان أول اختبار لسبق الإدراك هو الإدراك بطريق التمام، «أى إدراك الكوتشينة بالكامل قبل الكشف عنها وسيرمز إليها ا.ت. ا، س. ا. ت «سبق الإدراك التهامى»، وقد بدأ بتعديل بسيط في اختبار أ.ت الذى سبق وصفه وفي اختبار أ.ت كان على الوسيط أن يستعرف على الكوتشينة بالتمام وعددها «٢٥» قبل أن يتحرك أى كارت من موضعه حتى ينتهى الاختبار، وفي اختبار س. أ. ت كان على الوسيط أن يتنبأ بترتيب الكروت قبل أن يحدث تفنيط الكوتشينة عدة مرات في برهة زمنية محددة، وكان على الوسطاء الذين كانت أجوبتهم مرتفعة في أ. ت أعلى من الحظ أن يحاولوا أن يصلوا إلى هذا الهدف مع الختبارات س. ا. ت وكانت أجوبة الوسطاء تعرف وتسجل كما في اختبار ا. ت ثم تفنط الكوتشية لتسجيل الترتيب الجديد، وكانت المراجعة وطريقة حساب الأجوبة الصحيحة تماماً كما في ا. ت.

وبالتأكيد فقد حدث شيء خارج قدرة الحظ.. فقد كان متوسط الأجوبة الصحيحة في س. ا. ت بالنسبة لنفس الوسطاء هو تقريباً نفس المتوسط في ا. ت ولم تكنْ طريقة ا. ت. هى الطريقة التى تؤدى إلى أعلى النتائج بالنسبة لأى وسيط، وعلى ذلك فقد كان المتوسط بالنسبة إلى ا.ت، س. ا. ت منخفضا نسبيا أى بين ٥ نقط، ٦ نقط بالنسبة إلى ٢٥ كارتًا، ولكن كانت النتيجة ثابتة بالنسبة إلى ٤٥٠٠ حلقة وكان احتمال أن يلعب الحظ وحده في التيجة التى أمكن الوصول إليها هو واحد إلى ٤٠٠٠٠٠، وعلى ذلك فقد كانت اختبارات س. ا. ت من الناحية الإحصائية عالية المغزى وكانت النتائج تشير إلى وجود سبق الإدراك بصفة مؤكدة إذ لم يكن هناك فارق ملحوظ في النتائج سواء كان الوسطاء يتعرفون على الترتيب الحالى أو المستقبل للكروت.

ثم قامت أول عقبة، فقد كنا نعتبر تجارب س. ا. ت استطلاعية وحالما وصلنا إلى نتائج إيجابية فقد بدأنا نبحث عن نقط الضعف في طريقة التجربة، وكان شكلنا أكبر ما يكون في طريقة تقنيط الكروت فقد كان يقوم به المجرب فثار التساؤل ألم يكن من المقدور أن يلعب ا.خ. ا ف طريقة تقنيط الكوتشينة بالمعاونة على وضعها بحيث تتفق مع قائمة التنبؤ اليت سجلها الوسيط؟

وكان احتمال ا.خ. ا بالنسبة للتفنيط تحديا في ذاته، وكانت الطريقة للإجابة على التساؤل السابق هو أن تكون هناك تجربة فرعية ضابطة، فقد كان على الوسيط أن يفنط كوتشينة ووجهها إلى أسفل محاولا

أن يجعل ترتيب الرموز نفس الترتيب الموجود في كوتشية أخرى ولم يرها فإن استطاع أن يعرفها فذلك عن طريق ا.خ. ا وكان احتمال النجاح في مثل هذه الطريقة المعقدة ضعيف جداً ولكن سبق الإدراك كان كذلك من هذه الناحية.

ومع هذا التعقيد فقد نجحت طريقة التفنينط بواسطة ا.خ. ا ولم تكنْ النتائج أعلى بكثير من متوسط الحظ أى أن الأثر على طريقة التفنيط هذه كان ضعيفاً، ولكنه كان ذا مغزى، وكان تأثير ا.خ. ا على الاختبار حافزاً على إيجاد طريقة أخرى، فربما كان سبق الإدراك عاملاً ذا أثر في تجارب س. ا. ت لم يكن المجرب يحاول عامداً وهو يفنط الكروت أن ينسقها بالطريقة التى تنبأ بها الوسيط كما هو الحال في طريقة التفنيط بواسطة ا.خ. ا ولكن طبقا للحالة التى كانت سائدة وقتذاك لم نكنْ على يقين من مدى تأثر نتائجنا بسبق الإدراك.

وكان لابد من الاستغناء عن طريقة التفنيط باليد، وكان البديل المنطقى هو الاستعانة بالآلة وعلى ذلك فقد كانت تجارب سبق الإدراك – الجديدة تفنط فيها الكروت خبط عشواء آليا، ولم تغير في طريقة الاختبار إلا طريقة التفنيط ولذلك فقد أطلقنا عليه س. ا. ت الآلى.

وعلى هذا الأساس فقد أجريت أربع مجاميع اختبارات مستقلة للكشف عن سبق الإدراك وكان ذلك في معمل جامعة ديوك ولكل منها قائد مستقل – واحدة يقودها الدكتور س. ا. ستيورات، والثانية بواسطة

الآنسة لويز هتشنسون، والثالثة بواسطة الدكتور ج.ج. برات والدكتورة بتى م همفرى والرابعة توليت إجرائها بنفسى بمعاونة السيد ا. ب. جبسون.

وجميع التجارب الأربعة أعطت نتائج ذات مغزى، وبذلك قام الدليل ثانية على سبق الإدراك وعلى أساس أرحب ولكن في هذه المرة لم يكن هناك احتمال تدخل ا.ح. ا في أى حالة ليؤثر في النتائج، وفي كل بحث كانت هناك احتياطات معقدة تشمل حضور اثنين من المجربين يكونا مسئولين عن دقة الاختبارات، وأيضا أشارت الأدلة إلى سبق الإدراك.

وفي الوقت نفسه كان السيد تيريل في إنجلترا قد اتجه إلى ظاهرة سبق الإدراك، وكان تيريل في ذلك الوقت رئيسا لجمعية المباحث الروحية وقد بنى آلة كهربائية أوتوماتيكية بالكامل لاختبار ا.خ. ا ويعد ذلك استعمل هذه الآلة في اختبار سبق الإدراك، وكانت الآلة تحوى خمسة صناديق صغيرة لا ينفذ إليها النور، وكان أحدها يضاء بمصباح كهربائى أثناء اختبار ا.خ. ا وكان هذا الصندوق المضاء هو الهدف الذى على الوسيط أن يتعرف عليه، وكان اختيار الصندوق الذى يضاء أوتوماتيكيا بواسطة الآلة وكان عدد المحاولات وعدد الإصابات الصحيحة يسجل آلياً، وكان الوسيط يتعرف على الصندوق المضاء بواسطة محاولة فتح الصندوق الذى يخمن أنه مضاء، ففي اختبارات ا.خ. ا العادية كانت تحسب الإجابة صحيحة إذا فتح الصندوق.. فوجد مضاءً. كما أن فتح الصندوق كان يسجل كمحاولة.

والتغيير الوحيد الذى كان على تيريل أن يفعله حتى يصبح جهازه صالحاً لاختبار سبق الإدراك هو أن الوسيط يتنبأ بالصندوق الذى سيضاء ثم تقوم الآلة بعملها وكان فتح أى صندوق يقطع آليا الكهرباء عن الصندوق المضاء وقد قرر تيريل أنه استطاع الحصول على نتائج ذات مغزى من استعمال جهازه وبذلك أصبح عدد التجارب المستقلة التى كانت تجرى على سبق الإدراك خمسة والتى أدت إلى أدلة معتمدة على آلية الأجهزة، وفي عام ١٩٤٠ كانت قضية سبق الإدراك قد وصلت إلى مرحلة من القوة بحيث أصبحت مقنعة بما فيه الكفاية.

وبعد ذلك جاءت الصعوبة الثانية وكانت أقل وضوحًا من مشكلة التفنيط مع ا.خ. ا ولم تكن هذه الصعوبة لتقوم خارج المعمل الذى تجرى فيه التجارب لأنه لن يعتد أحد بها، وكانت المشكلة كالآتى: هل يمكن أن يؤثر عقل الوسيط أو المجرب في الآلة أو الجهاز ذاته؟ ومعنى هذا السؤال هل توجد طاقة روحية محركة تؤثر في الجهاز فيجعل الكروت تتخذ ترتيباً خاصاً؟

فما يزال عالقا في الأذهان المعنى القائل بسيطرة العقل على المادة وهناك مزاعم كثيرة على القدرة على التأثير على الأشياء بطريقة مجهولة وخصوصا فيما يتعلق منها بالوساطة الروحية المادية تعج بهاكتب الديانات ومازالت تتوارد في تقارير الباحثين في أصل الإنسان حين يصفون القبائل البدائية وما تمارسه من السحر، والرأى القائل بسيطرة العقل على المادة لا سند له في عالم العلم الطبيعى ولكن سبق الإدراك كان يماثله في هذا

الافتقار، فلم يكن أحدهما بأسعد حظاً من زميله في ناحية القبول ولذلك كان هذا الافتراض معقول إلى حد ما في نظرنا لدرجة تستحق الاهتمام واتخاذ الحيطة أثناء التجارب، وفي الواقع كانت التجارب التى تجرى في معامل جامعة ديوك قد أعطتنا سبباً كافيًا كما سيأتى شرحه في الفصل التالى للاحتياط من هذا السبب وتعديل طريقة اختبار سبق الإدراك.

وهذا الطلب الجديد كان من الصعب جداً تحقيقه، فقد كان من الواجب أن تفنط الكروت خبط عشواء بطريقة آلية بواسطة جهاز لا تؤثر فيه الطاقة الروحية المحركة، بارا كينزس – بتأثير عقل ما– ومازال التساؤل قائماً إلى حد ما في كفاية الوسائل التى اتبعناها ولكنى أعتقد أننا تغلبنا على هذه الصعوبة، ولكى نبعد أى تأثير عقلى على الآلة التى تقوم بتفنيط الكروت رجعنا إلى الطبيعة نفسها وقررنا أن يخضع نظام التفنيط في الآلة تبعا للنهايات الصغرى والعظمى لدرجات الحرارة التى تنشر في جريدة خاصة وفي يوم من الأيام المقبلة التى كنا نحدده قبلا.

واتفقنا على طريقة استغلال الأرقام، وهذه الطريقة لم تترك مجالاً للحظ أو للتأثيرالعقلى.. إلا إذا كانت درجات الحرارة أو الترمومترات التى تسجلها تخضع لهذا التأثير العقلى.. وعلى هذا قمت أنا والدكتور همفرى بإجراء مجموعتين من التجارب على سبق الإدراك وكلاهما كانت ذات مغزى، وعلى ذلك فقد استطاعت نظرية سبق الإدراك أن تتغلب على محنة جديدة والآن على الأقل لا توجد عقبة ثالثة، منظورة تتحدى ثبوت سبق الإدراك كظاهرة طبيعية قائمة.

وقد يأتى بعدنا من يحاول أن يزيد في دقة التجارب وربما تقوم نظريات مضادة تحتاج لدحش ولكن حتى الآن فإن الدليل على سبق الإدراك– مازال قوياً ضد كل ما يقابله، ووجود نتائج ذات مغزى في مجموعتين من التجارب المستقلة يعطى أساساً معقولاً للوصول إلى نتيجة.

ومن سبق الحوادث الآن أن نجزم أن الزمن لن يحدث تغييراً لسبق الإدراك، ولكن كان بين نتائج اختبارات سبق الدراك التى أجريت في جامعة ديوك ماله أهمية خاصة نتيجة لتغيير الزمن بين التنبؤ والمراجعة فقد حاولت الآنسة هتشنسون أن تجعل المدة يوماً ثم عشرة أيام وكانت نتيجة اليوم الواحد مما لعب فيها الحظ أكثر، ولكن لكى تشجع وسطائها فقد كانت تخبرهم بالنتائج أولاً بأول وهذا معناه أن الوسطاء كانوا في شوق إلى تجارب اليوم الواحد أكثر من اهتمامهم بتجارب لا يعرفون نتيجتها إلا بعد مضى وقت طويل، وهذا الفارق في الاهتمام ربما كان السبب فيما حصلت عليه من نتائج وليس السبب فيها طول المدة.

وقد حاولت أنا والدكتور همفرى إطالة المدة بين يومين وعشرة أيام للمقارنة – فحصلنا على نتائج متقاربة للمرتين، ولم نكن نخبر الوسطاء بنتائجهم الصواب إلا بعد انتهاء مجموعة التجارب ولذلك لم يدخل عنصر التشويق الذى كان في تجارب الآنسة هتشنسون، وفي مجموعة أخرى من التجارب أطلنا المدة كما سبق ولكنا لم ندع الوسطاء يعلمون أى اختبار لأى مدة واعتمدنا في إطالة المدة على طريقة الخبط عشواءالتى استلهمناها

من درجات الحرارة التى استعملت في «لخبطة» الكروت، ومع ذلك فقد كانت النتائج متقاربة بل كانت إطالة المدة إلى عشرة أيام أحسن قليلاً.

وعلى ذلك فتبعا لما وصلنا إليه من نتائج يمكن أن نقول إن ا.ج. ا لا يتأثر بالزمن، وطبيعيا أنه لابد من إجراء كثير من التجارب من ذلك النوع الذى يعتمد على إطالة المدة وهى لازمة، ولكن حتى الآن فإن النتائج متوافقة.

وكانت هناك تجارب أخرى على سبق الإدراك في أمريكا وفي إنجلترا ومع أنها كلها تشير إلى وجود عامل فعال كسبق الإدراك إلا أنها تسمح بقيام سبب آخر يفسرها ولو أنه بعيد الاحتمال.

ففي كل حالة كان هناك احتمال افتراضى على وجود عامل آخر كان سبقا في نتيجة التنبؤ، فمثلاً في تجارب هويتلى كارنختون كان على الوسطاء أن – يحاولوا أن يعيدوا رسم هدف بواسطة ا.خ. ا فوجد أنهم توقعوا رسوماً لم تكنْ هى التى اختيرت ولكن وجد بعد ذلك أنها جادت تالية في الترتيب لما اختير، وكانت النتائج تشير إلى سبق إدراك الرسوم التى لم تكنْ اختيرت، ولكن هذه الرسوم كان يمكن اختيارها آلياً بواسطة جهاز حتى تصبح النتائج حاسمة، أما بالطريقة التى حدثت فإن ا.خ.ا بدون سبق الإدراك يصح أن يكون هو الذى هدى المجرب في اختيار ما اختار ولو أنه تفسير بعيد الاحتمال وقد اعتمدت هذه الطريقة على فتح صفحة عفوا من كتاب مليء بالأرقام ثم من هذه الأرقام تختار كلمة من القاموس، فيصح أن ا.خ. ا لعب دوره في فتح كتاب الأرقام إذا كان قد لعب أى

دور على الاطلاق، ومثل هذه الاحتمالات البعيدة جدا يجب أن يحتاط المرء لها ويتخلص منها في إثبات شيء من الصعب التسليم به كظاهرة وسبق الإدراك.

وتجربة س. ح. سول والسيدة ك. م. جولدنى فريدة في بابها ففيها عدة ظواهر عجيبة إحداها أنها أجريت في لندن أثناء الحرب الخاطفة عليها وسنعود إليها مرارا في هذا الكتاب، ولكن لسوء الحظ أنها فيما يختص بسبق الإدراك لابد من أخذها بنفس التحفظ الذى ورد في تجربة كارنجتون، فقد كان على الوسيط أن يحدد أى كارت من الكروت الخمسة الموضوعة أمامه هو موضوع تفكير المجرب في اللحظة التى يعطى فيها إشارة البدء.

فوجد أن الوسيط جاء بعدد من الأجوبة الصحيحة فوق مستوى الحظ بكثير لا بالنسبة للكارت الذى كان يفكر فيه المجرب بل بالنسبة للكارت الذى يليه فيبدو أن الوسيط كان يسبق التجربة ويدلف إلى المستقبل لكارت لم يختَرْ بعد، وحينما زيدت السرعة في التجربة كان مستوى الوسيط في الإجابات الصحيحة هو نفس المستوى في السرعة البطيئة ولكن بالنسبة للكارت التالى أو المقبل، وفي معظم وقت هذه التجربة كان المجرب يختار الكارت تبعا لنظام خاص وهو أن يختار ورقة ملونة من كيس به أوراق ملونة كثيرة كل منها يشير إلى كارت خاص وكانت ألوان الأوراق الملونة خمسة كعدد الكروت الموضوعة أمام الوسيط وكل لون يدل على كارت، فإذا كانت هذه القصاصة الملونة قد اختيرت خيط

عشواء كما يبدو من طريقة إجراء التجربة فإن التفسير المعقول جدا لهذه النتائج هو افتراض سبق الإدراك.

ولكن هناك تفسير آخر، فلا يستبعد تدخل ا.خ. ا في اختيار القصاصة الملونة لتتفق مع أجوبة الوسيط التى سبقته، وحينما يدرس الإنسان التقارير الواردة عن التجربة يستبعد حدوث هذا الاحتمال ولكن حكم هذا الاحتمال حكم الاحتمالات الأخرى التى كنا نواجهها في الماضى في أبحاث سبق الإدراك.

وأبحاث سبق الإدراك كما أشرت إلى ذلك قبلا مازالت في المهد وأن الأدلة الثابتة ستترى بمرور الأعوام، ولكن ما وصل إلينا من برهان حتى الآن كفيل بأن يحدو أولئك الملمين به بأن يعطوه الأسبقية في اتخاذه مأخذ الجد وأن يفكروا فيما يترتب عليه من نتائج.

والأبحاث التى أجريت حتى الآن كافية لإثبات وجود سبق الإدراك ولكن المطلوب هو تنظيم تجارب جديدة لتظهر أشياء أكثر من مجرد إثبات وجوده، وعلى هذه التجارب أن تعاون في إعطائنا إيضاحا أوسع ووصفا أدق لهذه الظاهرة الفريدة التى أحدثت ثورة في علم النفس.

وأبحاث سبق الإدراك تهز نظراتنا القديمة هزا لم يسبق له شبيه وقد استدعى هذا تجديد تفكيرنا من أساسه، فتصور مثلا ما سيحدثه سبق الإدراك في الباراسيكولوجى نفسها، فقد كان من نتيجة أبحاث سبق الإدراك أن التلباثى وهى أقدم الأسس الثابتة في علم الباراسيكولوجى، قد

تزعزعت أسسها وهذا مثل لما يمكن أن يحدثه ثبوت التبنؤ في الميادين الأخرى.

وقد كان من نتيجة ثبوت سبق الإدراك أن عادت التلباثى إلى موقفها التى كانت عليه سنة ١٩٣٠ ففي ذلك الوقت تبينا أن الجلاء البصرى يمكن أن يكون تفسيراً لكل اختبارات التلباثى التى سبقت ذلك الوقت، وقد تخلصنا من ذلك الغموض باختبارات التلباثى وحدها التى استحدثت.

وفي هذه التجارب لم يكنْ يسمح بوجود كروت أو أى أفكار مسجلة ومعدة للانتقال إلى بعد أن يكون المستقبل قد سجل ما حصل عليه، وبعد ذلك حين وجد أن الأجوبة الصحيحة مازالت مرتفعة تحت هذه الظروف انتهينا إلى أن التلباثى ثبت وجودها على أساس تجريبى.

والآن يبدو أن اختبار التلباثى وحدها ليس اختباراً لها وحدها، فهو في هذه الحالة يحتمل أن يكون مختلطا بسبق الإدراك – أو على وجه التحديد بسبق إدراك الجلاء البصرى، فإذا كان الوسيط يستطيع أن يميز عن طريق سبق الإدراك ترتيب الكروت فيجب أن نفترض أنه سيعرف جيداً سبقاً ما سيسجله المرسل بعد نصف دقيقة أو أكثر في اختبار التلباثى وحدها، وعلى ذلك فاختبار التلباثى وحدها كما هو معروف لا يتحكم إطلاقا في منع وجود سبق الإدراك وفي الواقع فطالما أن فكرة المرسل ستسجل فإن العقل يستطيع أن يتقدم للإلمام بها كأى حادثة مستقبلة، وعلى ذلك فالطريقة الوحيدة لاختبار التلباثى بطريقة موثوق بها

هى استعمال الصور الفكرية دون تدوين، إن سجل التعرف لها يمكن أن يصل إليه الجلاء البصرى المتنبيء.

وعلى ذلك فيتحتم علينا أن نبدأ من جديد لدراسة كل ما يحيط بالتلباثى وأن نعيد كتابة كل البراهين المتجمعة عليها كظاهرة مستقلة عن بقية أشكال ا.خ. ا صحيح أنه من حق الوجهة العملية لا فروق بين التلباثى والجلاء البصرى كتعليل لما حصلنا عليه من نتائج تجريبية.

فالاثنان إدراك خارج عن الحواس، فإذا استطاع الوسيط أن يدرك الرمز المرسوم في رأس المرسل لا عن طريق أفكاره بل عن طريق ما سيسجله بعد ذلك فقد فعل ذلك بواسطة ا. خ. ا للمستقبل، ولكن هذه القدرة هى ا.خ. ا تماما كما لو كانت إدراكاً للحالة العقلية الحاصرة لشخص آخر.

وعلى ذلك فهذا الشك الجديد الذى يثور عن التلباثى هو في الواقع حول الطريقة التى يتخذها ا.خ. ا حين يعمل لا حول وجود ا.خ.ا وقدمه لأن هذا الموضوع لم يعدْ محل بحث.

وليس هناك سبب للقول بأن التلباثى لا وجود لها، فأنا لا أناقضها الآن كما لم أناقضها في عام ١٩٣٠، وكل المسألة هى حالة الأدلة فالدليل التجريبى الوارد من اختبارات التلباثى يسمح بالقول «بأن التلباثى قد تكون هى التعليل» ولا يستطيع واحد منها أن يؤكد أن التلباثى هى التعليل الوحيد.

صحيح أن بعض التجارب الذاتية تشير بوضوح إلى ما يتفق والتلباثى ولنذكر أن هذه التجارب غير المعملية قد أعطتنا أدلة قيمة في الماضى فإذا رأى شخصان نفس الحلم أو إذا شعر إنسان بالإلهام بمشاعر إنسان آخر أو حين يجد إنسانان أنهما يحاولون في الوقت نفسه أن يتصلا تليفونياً «هاتفيًا» ببعض فمن المؤكد أن ما يظهر هو تلباثى لإجلاء بصرى متنبيء ولكن من الصعب في أى حالة من هذه ألا يكون هناك أساس موضوعى يدع للجلاء فرصة للعمل، فضلاً لكن أنه من الصعب دائماً في مثل هذه الأحوال إقامة الدليل بالاستعانة فقط بحوادث مرورية وإلا لما احتجنا إلى إجراء التجارب العملية على ا.خ. ا.

ولا فائدة ترجى من الجدل حول التلباثى وكثير من الناس الذين آمنوا بوجودها يميلون للجدل للوصول إلى تعليل مقبول للأدلة الناهضة للتلباثى تحت ضغط الأهمية الكبيرة المنتظرة لهذه القدرة، ولكن هذا التفكير نوع من اللهفة غير المطلوبة وعلينا أن نعترف أن التلباثى من مشاكل الساعة الملحة وأنها في حاجة إلى علاج جديد تماماً، وهذا الاضطراب في تصور الإنسان لا يمكن الترحيب به في البداية ولكنه جزء من الثمن المحتم لكى يكون الإنسان على بينه علمية وهو يذيقنا نحن المجربين عليه بعضا مما يقاسيه العلماء المتحفظون في تفكيرهمه نتيجة لمكتشفاتنا.

وإعادة التفكير في التلباثى عملية حديثة التاريخ وقد بدأ البحث الجديد عن التلباثى وحدها يأخذ طريقة بطريقة تجريبية حديثة وقد يؤدى

هذا إلى استعادة التلباثى مكانتها كنوع من ا.خ. ا وهذا ما يتوقعه كثير من الباحثين القدامى في الباراسيكولوجى وربما كان هذا نوع من الاندفاع الطبيعى نتيجة لطرائق من التفكير قد تقادم عليها العهد وبالتأكيد هناك بعض الانطباعات الملهمة التى تحبذ التلباثى والتى يجب أن تؤخذ مأخذ الجد فلن يستطيع أحد أن ينظر إلى الموقف باستخفاف إذا حدث بعد أبحاث طويلة مستوعبة إن فشلنا في الحصول على دليل لا يدحض على التلباثى الخالصة كما أنه لا يمارى أحد في أننا يمكن أن نتجاهل الحاجة إلى تجارب محددة تعيد للمسألة– مكانتها التى كانت مسلماً بها كما كنا نعتقد في الماضى، وهذا ما يمكن عمله بالنسبة لهذه الزوبعة في عالم الباراسيكولوجى التى أثارها سبق الإدراك، وربما كان هذا أول الغيث بالنسبة لما يبدو أن سبق الإدراك سيثيره من نتائج في الميادين الأخرى.

وبعد كتابة ما تقدم وصلت نتائج أبحاث الآنسة اليزابيث ماكماهان إلى مرحلة تستحق التسجيل في تقرير ينشر في مجلة الباراسيكولوجى، والآنسة ماكماهان تسجل الرموز التى تفكر فيها بطريقة الشفرة حين تعمل كمرسل، وشخص آخر يعرف الشفرة حتى يستطيع أن يراجع نتائج المستقبل، وهذه الشفرة تعتمد على أشياء خاصة معروفة للمجرب ذاته، ولم يعترض أحد على طريقة الشفرة المتبعة، وقد حصلت الآنسة ماكماهان على نتائج فوق مستوى الحظ، ويبدو أن التلباثى هى التعليل الوحيدة لهذه النتائج، فإذا أمكن الاعتداد ببحث واحد في هذه الناحية فيمكن القول أن التلباثى قد أعيدت لها مكانتها.

وحتى الآن لا يستطيع أحد نيقول لنا إلى أى شيء سيؤدى بنا ظهور سبق الإدراك وسيمضى وقت طويل قبل أن نأمل في التغلب على المشاكل التى أثارها أ.خ.ا للمستقبل، والموقف يشبه إلى حد كبير ما يحدث للكيميائى لو اكتشف مذيباً عالمياً لكل شيء فإن صعوبة اختزان هذه المادة في أى وعاء «لأنها ستذيبه» تشبه الصعوبة التى مواجهها لتعديل منطق أفكارنا حتى تتمشى مع المعانى البعيدة لظاهرة سبق الإدراك.

والأمر يعتمد كثيرا على المدى الذى يمكن أن يصل إليه سبق الإدراك وما يمكن أن يؤديه على المدى الذى يمكن أن يصل إليه سبق الإدراك وما يمكن أن يؤديه فمثلاً من المهم جدا أن نعرف إلى أى مدى يدخل سبق الإدراك في العمليات العقلية بصفة عامة، وهل هناك أ.خ. ا فقط وللمستقبل فقط أم أن هناك سبق إدراك للمستقبل وسبق انفعال وكل مظاهر الوعى المستقبل؟ «أى المظاهر العقلية الثلاث المعروفة وهى الإدراك والشعور والنزوع – المترجم» وهنا يقفز إلى الذهن ما نسمعه كثيراً من تعبير بعض الناس حينما يرون مشهداً جديداً من أنهم يحسبون أنهم رأوا هذا المشهد من قبل ولو أنه يستحيل عليهم أن يكون قد وقع تحت حسهم المباشر قبل ذلك فإذا كان قد سبق لهم التفرس في هذا المشهد كما لو حدث في منام راح في طى النسيان ألا يجوز أن يكون هذا من سبق الإدراك الحسى – المؤدى إلى توقع مشاهدة المنظر وبالمثل في حالة الخبرة الذاتية التى يرى فيها الشخص – يقظة أو مناماً – حادثة ما ثم إذابها بعد ساعات أو أيقام تقع أمام ناظريه، أفلا يكون هذا امتداداً لحاسة البصر نفسها في المستقبل وليست ا.خ.ا المتنبىء؟

وهذا سؤال لا يمكن الإجابة عليه على أساس التجارب المعملية وهى الطريقة الوحيدة للإجابة، وليس هذا فقط بل نحن لا نستطيع أن نكون صورة واضحة للاحتمالات المختلفة، فالعلاقة بين العقل والزمن مازالت غامضة ولكن لدينا من المبررات ما يحملنا على أن نسبر غورها بطريقة البحث.

وربما كان أهم سؤال حول سبق الإدراك هو: ما هى كفايته؟ فإن الدقة في سبق الإدراك ستؤدى إلى فوارق كبيرة في مضمونه. فإذا أمكن أن يصل سبق الإدراك إلى غاية الدقة ١٠٠٪ فإن إدراك هذه الحقيقة سيؤثر في فلسفتنا في الحياة إلى درجة يرتجف معها الإنسان كلما تصور مراميها، وخصوصا إذا كانت كل أنواع الأحداث وفي أى نقطة من الزمن يمكن افتراض التنبؤ بها لأنه إذا حدث هذا لكان مجرد وجودها في المستقبل يحتم حدوثها ويصبح القدر ضربة لازب، ولابد من ثباتها حتى يمكن التنبؤ بها، وفي هذه الحالة لن يكون من المقدور مهرب ولن تكون هناك حرية إرادة، فحتى لو علم الإنسان بسبق الإدراك أنه سيكون بين حطام قطار فلا مهرب له من هذه الكارثة، فما فائدة سبق الإدراك، للإنسان في هذه الحالة؟ ولو ثبت وجود سبق الإدراك المطلق لكان معنى هذه القدرية التى تنتفي معها كل حرية للإرادة.

ومن هنا يتضح أن حرية الإرادة والتنبؤ بالقدر المحتوم لا يمكن أن يتوافقا وإذا كان سبق الإدراك للحوادث يؤدى إلى تجنبها وبالتالى منع وقوعها فمعنى ذلك أن التنبؤ بهذه الحوادث لا يوثق بها لأنها لن تقع،

وبالعكس إذاكان سبق الإدراك قليل الدقة فهنا المجال الواسع لحرية الإرادة والاختيار وبذلك يصبح في الإمكان إدراك ما في الغيب ببعض الفاعلية وفي الوقت نفسه يكون المجال للاختيار مع قدر من الحرية الحقيقية.

وهذا التوافق بين الاحتمالات المختلفة يمكن إيضاحه بصفة ملية من القصة التالية التى أخبرنى بها السيد العجوز الدكتور ل. والتى تحققت منها أخته وهى مدرسة أعرفها منذ سنين طويلة: «عندما كنت طفلاً رأيت مناماً ربما كان السبب في إنقاذ حياتى.. فقد كنت قد رتبت أمورى على رحلة إلى برلنجتين بالقطار ولكن في الليلة السابقة للرحلة رأيت في المنام أن القطار تحطم وأن مدفأة القطار «وكانوا في تلك الأيام يجعلون في العربات مدفأة تشعل بالفحم» قد انقلبت على وأصابتنى إصابات بالغة.

وكان هذا الحلم سبباً في فزعى من الرحلة وعدولى عنها ولكنى أخبرت أقاربى بالحلم.. والغريب يا سيدى أن القطار في هذا اليوم بالذات قد تحطم وسقطت المدفأة على رجل فقتلته».

وقد آمن الدكتور بأن هذا الحلم كان نذيراً، ولكنه كان يعتقد أن في مقدوره أن يتصرف بحرية بناء على أساس النبوءة التى وصلته وبالتأكيد هذا ما فعله، والسؤال الآن هل كان هو الذى سيذهب ضحية المدفة إن لم ينك قد غير خطته؟ ولكن هذا السؤال لا جواب عليه فنحن نعلم أن الأحلام المنذرة بكوارث تتحقق في بعض الأحيان بدون أى علاقة منطقية بالحلم، أو أى سبب معقول لحدوثها على الإلاق فالحلم الذى رآه الدكتور . ربما كان السبب في إنقاذ حياته وربما لم يكنْ ولكن حسب ما ورد في

الرواية كان فيه سبق الإدراك وكان في الوقت نفسه سبباً في أن يعدل من تصرفه.

وهناك وجهة نظر أخرى تربط بين حرية الإرادة والتنبؤ فتقول: إذا كانت الأحداث المادية يمكن التنبؤ بها بواسطة ا.خ. ا أكثر من تلك المتعقلة بالإرادة الإنسانية فهناك مجال مهم لحرية الإرادة تلعب فيه.

ووفقاً لهذه النظرية فإن سبق الرؤية لأحداث ستقع في المستقبل في مجال السلوك الإنسانى والعلم بنتائجها ما يمكن من تضييق مجالها كما أن الأحداث نفسها تخضع لما يتم العزم عليه بعد ذلك، وفي مقدورنا أن نحصل على مزيد من الدقة في التنبؤ بالأحداث الآلية المحضة، فربما كان تحطم القطار ووقوع المدفأة قد تحتتم وقوعها بسبب مادى خارج عن تحكم الإنسان فيه ولنضرب لذلك مثلا بخلل في القضبان كان هو المسئول عن الحادثة.

وربما سبق إدراك عقل الحالم لتحطم القطار نفسه ثم استنتج بطريقة تعقلية أنه لابد من إصابة أحد بضرر وربما كان الشخص نفسه، وبقية الحلم كانت مسرحية ومثل هذه الأحداث الروحية تحوى كثيراً من العناصر بخلاف سبق الإدراك وهذا الأخير قد يكون صحيحاً جزئياً.

وبهذا نرى المستقبل جزئياً فقط في الصورة القصيرة التى يسمح بها العقل فقد تنبأ لأسباب معقولة باحتمال المطر فترتدى معطفاً واقياً من المطر وفي غالب الأحيان تكون هذه النبوءة خطأة، ونحن معتادون على

هذه الصورة من العلم المحدود بالمستقبل والمبنى على مصادر للبيانات والأحكام خلاف سبق الإدراك فإذا أضفنا سبق الإدراك لقوانا العاملة فربما كان في ذلك زيادة فيمدى معلوماتنا – وهى مسألة نسبية – فالميكروسكوب «المجهر» والتلسكوب وجهاز التحليل الطيفي «الاسبكتروسكوب» وعدسات التصوير وغيرها من عديد الآلات قد وسعت آليا قدراتنا على الإدراك وبالتالى جعلت تنبؤاتنا أكثر صحة فمثلاً يستطيع الطبيب أن يحدد بكثير من الدقة الوقت الذى يمكن أن يغادر فيه المريض المستشفي وذلك بالاستنساخ المعقول إذا تعرف بواسطة الميكرسكوب على الجرثومة المسببة للمرض.

وسبق الإدراك المحدود سيكون في الواقع سبباً في إثارة الجدل حول حرية الإرادة، أن الإرادة لن تكون حرة إلا إذاكانت تختلف في طبيعتها عن الوجود الذى تؤثر فيه بحرية أى أن تكون حرة من قوانين هذا الوجود وبالتأكيد أن ما يمكن أن يقال عن سبق الإدراك هو أنه لا يخضع لقوانين المادة فإذا كان العقل يستطيع التتنبؤ بالحوادث فهو حر إلى أبعد حدود الحرية لأنه يختلف عن النظام المادى الذى يتأثر به.

وهنا نقطتان متميزتان، إحداهما أن سبق الإدراك إلى المدى الذى يستطيع أن يصل إليه عبارة عن وسيلة ممتازة للمعرفة وأنه بتوسيع أفق إدراكنا يستطيع في الواقع أن يزيد من تحكمنا في الطبيعة، والثانية أن سبق الإدراك بسبب كونه من طبيعة غير مادية فهو دليل أيما دليل على الطابع

المستقل الذى يتميز به النشاط العقلى، وهذا الطابع هو الذى يؤكد لنا أننا نملك تلك الحرية التى نتحدث عنها.

ومما لا مراء فيه أن ثبوت الدليل على سبق الإدراك يستحق بوضوح أن نضعه في الموضع الرابع بين معالم الطريق الذى نسير فيه نحو غايتنا.

وسبق الإدراك ببساطة لا يمكن أن يكون مادياً بأى صورة من الصور التى يعرفها في وقتنا هذا عن المادة، والواقع أن تضاربه مع قانون السببية التى نرى الأشياء تخضع له في الطبيعة يجعله هدية للعلم الطبعى وطريدًا منه في نفس الوقت ولذلك فسيتسع كثيراً مدى إلمامنا بالإنسان ومأساته العلمية حين ننتهى إلى التفسير الكامل لهذه الظاهرة المحيرة.

وسبق الإدراك بالطبع غريب جداً على العلم الطبيعى، ولكن هذه الغرابة ترجع إلى حد كبير إلى جهلنا المطبق بالعقل، فإذا علمنا فقط أننا حتى الآن لا نفهم الذاكرة وهى أقرب الحدود العقلية المدروسة والمعروفة لنا وأمسها بنا فما بالك بسبق الإدراك وهو أبعدها منالاً، لاشك أن صدمته لرابطة جأشنا العقلية ستكون أخف وقعاً، والغرابة الخيالية لسبق الإدراك تفضح فجأة ضآلة معلوماتنا عن العقل كما تكشف عن عدم استعدادنا لتلقى حقيقة جديدة عن كياننا.

فلندع الاكتشافات المبنية على الحقائق تتصارع أو تنسجم، وحتى يتم هذا فلن نصل إلى الفهم الكامل، وليست هناك حدود لهذ المسائل ويمكن أن نكون على يقين من أن آخر شيء يجب أن نقلق من أجله هو

كيف يمكن لهذه القدرات أن تنسجم مع الناموس العام للأشياء. وستتولى جبهة العلم السائرة دوماً نحو الأمام هذا الموقف كما فعلت في غيره.

وكل ما يعنينا هو أن نفهم كيف تسير هذه العملية وأن نكون على استعداد دائم لأن نوائم بين أفكارنا الحالية وما ينكشف لدينا من حقائق، فإذا كان النظام متوافقا في التفاعل بين القوى الذاتية والقوى الكونية فإن هذه الأفكار الجديدة ستعمل في وئام.

الفصل السادس

مدى قوة العقل

بعد قراءة الفصل الخاص بسبق الإدراك سيجد الإنسان نفسه أكثر استعداداً للنظر بعقل متفتح في المكتشفات الحديثة للباراسيكولوجى التى سيردد ذكرها، وهذه المكتشفات هى نتائج لتجارب الطاقة النفسية المحركة، الباراكينزس ط. ن. م وهى الأحاث التى أجريت بقصد اكتشاف ما إذا كان للعقل تأثير مباشر على حركة الأشياء المادية.

وهى تسمى هنا في معملنا بتجارب «زهر النرد» «الطاولة» لأن معظم أبحاث ط. ن. م تنصب على رمى «زهر النرد» «الطاولة» وهى تسمى باختبارات الطاقة الروحية المحركة لأن الوسيط في هذه التجارب يطلب منه أن يوجه إرادته للزهر بحيث يسقط ووجهه الأعلى على عدد خاص، والتعبير الدارج لهذه الظاهرة هو «العقل فوق المادة».

وتجارب ط. ن. م هى تسلسل منطقى لتجارب ا.خ. ا نفسها، وفي الإدراك للأشياء بالجلاء البصرى لابد من تفاعل بين العقل والأشياء المادية، وكل منهما لابد أن يؤثر في الآخر أو هذا على الأقل هو الطريق الذى تحدث به التفاعلات المعروفة كلها، فلابد إذن أن يحدث العقل أثراً

للشيء المفهوم حتى ولو كان هذا الأثر من الضعف لدرجة غير ملحوظة، ولم يكنْ الغرض من اختبار الجلاء البصرى هو قياس هذا الأثر فإن المطلوب في هذه الحالة هو وسيلة للقياس تكون من الدقة بحيث تسجل أى أثر من العقل على الشيء المادي، ونحن نتوقع من ذلك التفاعل النفسى المادى أن يكون ذا أثر من الناحية المادية وكذلك في الناحية النفسية، فلماذا لا يكون هناك – استجابة خارج الوسائل المحركة كما أن هناك إدراك خارج الحواس؟

والطاقة النفسية المحركة أو الباراكينزس هى كلمة جديدة لتعبر عن فكرة قديمة، وإنا لنجدها في معاجم اللغة بمعنى «فعل العقل في الجهاز المادى» والاعتقاد بوجود هذه القدرة للعقل وخصوصاً فيما يتعلق بصلتها بالجسد ربما كان قديماً قدم الفكرة القائمة على التفرقة بين العقل والجسد، وهى تلك الأفكار المعروفة من بين المدركات التى نسلم بها ولا نلحظها في حياتنا الفكرية، فمن الواضح إذن أن يكون هناك نوع من الطاقة الروحية المحركة في كل مرة يثير فيها تفكيرنا النشاط العصبى العضلى إذا افترضنا أن تفكيرنا يفعل ذلك، فهذا الأثر النفسى المادى يحدث بوضوح تغييرات كهربائية وأخرى مادية في المخ فتبدأ سلسلة من التفاعلات المادية في أعصاب الجسم وعضلاته.

وظلت ط. ن.م في الماضى بعيدة عن متناول العلم الطبيعى. فذلك النوع من العلاقة بين الفكرة والمخ في النشاط النفسى الحركى كان من الطبيعى أن تكون دراسته صعبة. فلو أمكن النفاذ إلى المخ الحى بشكل

أعمق لدراسته وتسجيل السلوك وما يصاحبه من استبطان فربما كان هذا اللغز الخاص بهذه الهوة بين النفس والمادة حل من زمن طويل مضى،، أما والحال كذلك فليس أمامنا إلا الافتراض والحدث والعقائد والجهل الشائع بشكل ما يتعلق بالمشكلة الأساسية الخاصة بما يحدث العقل والمخ كل منهما للآخر فعلاً حين يفكر الشخص أو يتصرف.

ويبدوالآن أن الوقت الحالى هو أحسن فرصة لمعالجة مشكلة العلاقة بين العقل والجسد بطريقة ناجحة، وفي اختبارات ط. ن. م التى سيرد وصفها يمكن أن تدرس العلاقة بين العقل والجسد في صورة مبسطة وبطريقة ميسورة شديدة الإحكام رغم تعقد العلاقة بين الفكرة والمخ، وهذا ما حدث فعلاً في الناحية الإدراكية من التفاعل بين العقل والأشياء في اختبارات الجلاء البصرى وربما كان هذا سبباً في فوائد جملة للأبحاث.

وعلى ذلك فلم تكن فكرة ط. ن. م فكرة غير معقولة، بل الحقيقة أن مثل هذا المبدأ كانت الحاجة ماسة إليه ليملأ الفراغ الكائن في معلوماتنا عن كيف يتم التعاون في العمل بين الفكرة والمخ، وهى تنسجم مع ما نعلمه فعلا عن ا. خ ا وما يتصل به كما ينسجم حجر الزاوية في عقد البناء، وكانت الخطوة الباقية لإكمال الصورة هى أن نجد بصورة تجريبية إذا كانت ط. ن. م تؤثر في الأشياء الخارجية أم لا وإذا كانت هناك طريقة دقيقة لقياس هذا الأثر من العقل على المادة وكل ما كنا في حاجة إليه هو اختبار ط. ن. م يكون ميسوراً ومعادلاً في الأثر لما ثبت لاختبار ا. خ. ا.

وبدأت الاختبارات بزهر النرد في جامعة ديوك سنة ١٩٣٤، وكانت المحاولات قد سبقت ذلك بوقت طويل للبرهنة على وجود ط. ن . م بطرق أخرى، وإذا أردنا الحصر الكافي لوجود عدداً كبيراً متنوع الأشكال من المحاولات لاكتشاف ماذا كان العقل يستطيع أن يحدث بطريقة مباشرة تغيراً في أوضاع البيئة المادية.

وربما كانت أبحاث جامعة ديوك سبباً في إخراج أشد الاختبارات حساسية لط . ن. م حتى ذلك الوقت، أو قل أنها أول محاولة للتأثير على شيء متحرك، أو أنها أول تجربة تستفيد من الأداة الاستطلاعية وهى القياس الإحصائى أو أنها أول اختبار يبدو كنوع م ناللهو، ولكن لم يكنْ قياس أثر العقل المباشر على المادة في عام سنة ١٩٣٤ شيئاً مستحدثاً إطلاقاً.

وبعض المزاعم الأولى حرية بالانتباه، فمثلاً قد حدثت بعض الحوادث الذاتية المادة ووردت عنها التقارير ولم يكنْ لها من تفسير إلا أنها بفعل قوى نفسية مجهولة، وقد أخذها كثير من المفكرين مأخذ الجد، ولكن –كما يعلم الجميع – من الصعب وزن جميع العوامل في حالة لم تخضعْ للتجربة المعملية، ومع أنه من المستحسن ألا نحاول أن نصل إلى نتائج قاطعة من مثل هذه الحالات ولكن لو تجاهلها العلم تماماً لاستحق أشد اللوم.

فمثلا هناك الحادثة التى وقعت لأستاذ جامعى مشهور يدرس في قسم من أقسام اللاهوت فقد حدث يوما حين كان يناقش طالباً في مسألة

الحياة بعد الموت أن سئل إذا كان لديه دليل قاطع على عالم الأرواح فأعقب هذا السؤال مباشرة دوى حاد انزعج له الطالب وإذا بالمحبرة الموضوعة على مكتب الأستاذ قد انشقت نصفين، وقد اعتبر الأستاذ أن هذه الحادثة بفعل قوة غير مادية ربما أتت من عقل غير متجسد.

وربما رآها من هو أكثر منه تحفظاً على أنها مجرد مصادفة، ومن المؤكد أن هذه الحادثة لا يمكن أن تؤخذ دليلا على شيء لأننا نعلم أن الزجاج في بعض الأحيان قد يتحطم من تلقاء نفسه.

وهناك حالات فيها أكثر من تحطيم الزجاج، ففي أبان الوقت الذى كنا نبدأ فيه تجارب ط. ن. م كنت أتراسل مع أحد أطباء العقول المشهورين فكتب إلى عن حادثة مادية غريبة وقعت في داره حينما كان سيشرع في دراسة حالة وسيط روحى يسكن على بضعة أميال منه.

وإحدى هذه الحوادث هى أنه كان لديهمه مائدة قديمة ذات سطح قوى مصقول فإذا بهذا السطح ينشق مصحوباً بصوت دوى كانطلاق المسدس.

ولم يكنْ هناك أحد بقرب المائدة في هذها الوقت ولم يعرفْ من سبب من الأسباب الظاهرة يمكن أن يفسر هذه الحادثة العجيبة، ولكنا نعرف أيضا أن الخشب ينشق من أسباب مادية طبيعية أيضاً – صحيح أن هذه الحالة غير عادية ولكن هذا التفسير الأخير لا يعتبر مستحيلاً، ولكن حين قرأت في خطاب الطبيب أن سكينا قديمة ذات نصل من الصلب

كانت تستعمل لقطع الخبز قد تحطمت إلى قطع في نفس الوقت كما صاحب تحطمها دوى انفجار عالى فإنى أقول بصراحة أن الحيرة أصابتني، وكان بالخطاب صورة السكين المحطمة إلى أربع قطع، ومازالت هذه الظاهرة مما لا يمكن أن أفسره بما لدى من العلم، ويفسرها الطبيب نفسه بأنها حالة ط. ن. م متصلة بالوسيط الروحى ولو أنه لا يدعى العلم بكيف حدثت هذه النتائج.

والمنازل المكونة بالأرواح يصح أن نذكرها باقتضاب، فقد ورد على مر العصور ما يفيد أن بتا بعينه تحدث فيه حوادث لا يمكن تفسيرها.

ولكن بعد دراسة كثير من الروايات الواردة عن هذه المنازل المسكونة وما يحدث فيه من لمسات العفاريت والأصوات والأبواب الموروبة ورؤية الأشباح حتى بواسطة الأطفال وبالحيوانات «كما يبدو من تصرفاتها» فإن العالم لا يسعه أن يصدقها كما لا يسعه أن يتجاهلها برمتها.

وفي بعض الحالات يكون البرهان من القوة بحيث توجد فيه جميع الاشتراطات ما عدا التجربة المعملية ولكن صعوبة تصديقها يتطلب شيئا أكثر، وعلى ذلك يتوقف الإنسان عن الحكم.

وفي بعض الحالات يكون المسكون شخصاً وتأتى الأحداث المادية التى لا يمكن تفسيرها متصلة بشخص وفي الغالب يكون طفلاً، فالأطباق تتحطم بطريقة لا يمكن تعليلها والأجراس تدق والأحجار ترمى بقدر غير

مريئة خلال الأبواب المفتوحة والشبابيك، وتتناثر قطع الأثاث بشكل غير منتظم في غرف محكمة الإغلاق، كما ينزعج النائمون بانتزاع الأغطية من فوقهم ويسود الشعور بأن المكان أصبح مقراً للأرواح الشريرة أثناء هذه الحالات، وقد قام بعض العلماء وذوى الحرف بدراسة بعض هذه الحالات، وحتى بعد اعتبار كل الأدلة فإن الدارس الحريص لهذه المشاكل يطلب المزيد لكى يكون حكماً سواء لها أو عليها.

وفي الغالب فإنه لا يستبعد فيها الشك من ناحية الاحتيال، والإنسان يجد نفسه في حالة توقف عن الحكم يخامرها التعذيب بالأمل الكاذب، وبأمل أن تصادفه حالة من هذا القبيل.

وتروى أشياء غريبة عن الناس الذين يعيشون على البداوة، فحيثما يتحدث الإنسان إلى إحدى الأجناس الذى عاد بعد دراسة الهندى الأمريكى أو سكان الشرق الأقصى أو جزر البحار الجنوبية أو أفريقيا فيسمع عن رؤية ظواهر غامضة تتحدى التفسير الطبيعى للأشياء، ولقد قلت «يتحدث» لأن أثر هذه الظواهر التى لا يمكن تصديقها – تحذف من التقارير المنشورة مراعاة للكياسة ولا تذكر إلا مشافهة، ومثل هذه الحوادث التى لا يمكن تفسيرها تحدث غالباً في الاحتفالات الدينية المناسبة لتقاليد القبيلة في تلك الجماعات، وهى تتطور من تحريك الأشياء إلى قذف الحجارة بأيد لا ترى إلى حالات من إنزال المطر بطريقة سحرية قد ذكرت في بعض التقارير، ولكنا نعود فنقول إنه من الصعب الحكم على هذه التقارير دون أن تخضع لنوع من المراقبة المنظمة.

وفي كل هذه الدراسات ترتفع الصيحة بطلب التجارب المعملية، ونحن نقترب من هذا في دراسة الظاهر المادية المتعلقة بالوساطة الروحية، وسيحتاج الأمر إلى مجلد ضخم ليحوى بين طياته التجارب التى أجريت على الوسطاء الروحيين والتى صاحبتها ظواهر مادية.

ولكنا سنضرب صفحاً عن هذه التجارب برمتها لأننا لا نستطيع أن نقول حتى عن أحسنها أنه صالح للقطع في حالة ط. ن. م ولكن هناك القليل من هذه التجارب التى تترك أثرها برغم ذلك في أى قاريء لهذه التقارير.

وقليل من الحوادث المعاصرة يمكن اعتبارها من أحسن هذه الأحداث، فمثلاً يطمح الإنسان في مزيد من تلك الدراسات التى أجراها هارى برايس على أوسطية الروحية الإنجليزية المسماة ستيلاس، والتى حدث فيها اخفاض لدرجة الحرارة في غرفة تسجل درجة الحرارة فيها آليا «أوتوماتيكيا» وصل في بعض الحالات إلى ١١ درجة فهرنهينتية وهناك بحث آخر جدير بالاهتمام وهو الذى قام به الدكتوران أوستى الوالد والابن في معهد ما وراء الطبيعة في باريس وفي هذه السلسلة من الاختبارات وضع الوسيط الروحى النمسوى رودى شنيدر تحت رقابة الأشعة ما تحت الحمراء بطريقة تفضح آلياً أى حركة يراد بها الخداع من جانب الوسيط، ومع ذلك فقد كانت نتائج هذه التجارب محيرة للمجربين ولكن هذه التجارب لا تكفي، وأن مزيدًا من الأدلة لابد من أن يقوم على

مثل هذه التجارب استخلاص نتائج أكثر، من أن هذه الأبحاث تستحق مزيداً من الاهتمام بها.

والمطلوب هو اختبارات أبسط وظروف أبسط وأدوات أقل تعقيداً، وإلا كان من الصعب التأكد مما يجرى أثناء التجربة، وتجارب الوساطة الروحية تحاط عادة باشتراطات تسمى القوانين الروحية.

فمثلاً لابد من وجود ظلام تام، والنتائج التى تحدث في الظلام لا يمكن ملاحظتها بدقة كافية وهى ليست تحت رقابة كافية تسمح باستخلاص نتائج منها.

وكثيراً ما يكشف غش الوسطاء فيدعونا هذا للتساؤل هل التجارب التى لم ينكشفْ فيها غش الوسيط هل كانت الرقابة فيها محكمة حذرة وعلى هذا نقول أن الدليل غير موجود.

ومزاعم العلاج الروحى ربما أمكن وضعها تحت ط. ن. م. ولكن هناك سؤال هو هل الحالات التى نجح فيها العلاج الروحى يمكن أن يكون سببها الاستهواء أو الصدفة أو المزاعم المبالغ فيها أو لأن فيها من الأشياء لا يمكن أن يأتيه الجسد. وأحياناً يقرر أحد الأطباء حدوث حالة شفاء بالعلاج الروحى لا يمكن تفسيرها بقوانين الطب، كما أن هناك مزاعم عن حدوث أشياء في وظائف الأعضاء بالإضافة إلى الشفاء.

فمثلاً يتحدث عالم الأجناس جيوفيرى جور عن زنجى من أفريقيا الغربية ظل تحت الماء وهو تحت بصره تاماً لمدة خمس وأربعين دقيقة وهو

يسجل الوقت، كما يقال عن فقراء الهند الذين يستطيعون البقاء في القبر ساعات بل أيام، كما أن هناك معجزات أخرى ف يعالم البداوة تتحدى البحث، فهل هم يفعلون في الواقع شيئاً لا يمكن تفسيره بالقوانين الطبيعية للجسم وهذا ما لا نستطيع حتى الآن الإجابة عليه.

ولكن إن صح ما يفعلون فهناك الكثير مما يجب اكتشافه من المجهول عن الإنسان حتى ليبدو أن العلوم التى تدرس بجامعاتنا لا تعمل إلا في جزء من الميدان الذى هو حقلها الحقيقي.

وربما تسللت الطاقة النفسية المحركة فدخلت الطب في خفاء، وعلى أى حال في ميدان الطب النفسى الجسدى – سيكوسوماتيك –ترجع بعض الأمراض العضوية بطريقة عرضية إلى حالة المريض العقلية، ومازالت المشكلة قائمة عن كتف التفاعل الحادث بين حالة المريض العقلية والنتائج المترتبة على هذه الحالة، ولكن الرابطة الوثيقة التى تصل بين الاثنين واعتبار الحالة العقلية سبباً مؤدياً للمرض أصبحت من الأمور التى يسلم بها الطب، ولو أنه منذ جيل مضى كان الطبيب المتزمت يعتبر ذلك خرافة.

وكل منا يعرف بالطبع عن العلاج القديم لإزالة البثور وذلك بالاستعانة بالسحر الريفي الذى كان يلجأ لطريقة في منتهى البلاهة ومن الواضح أنها لا أثر لها على البثور ولكن كانت البثور تزول، والآن يلجأ الأطباء المعتمدون على هذه الطريقة الجسدية العقلية لعلاج البثور في كثير من العيادات وإن استخدموا لذلك طريقة تبدو أنها أكثر مادية ولكنها في جوهرها نفسية تماماً، يقررون أن البثور تزول بسبب «الأثر النفسى» على

الأنسجة، وأصبح الآن كثير من الأمراض الجلدية، وأكثر منها منأمراض القناة الهضمية، وإلى حد ما بعض الأمراض التى تصيب أجزاء أخرى من الجسم، أصبح من المعلوم أن مرجعها إلى حالات عقلية كما أصبح علاجها المعترف به طبياً يعتمد تماماً على علاج الحالة العقلية.

كما أن التنويم المغناطيسى يعود فيأخذ له مكاناً على المسرح في هذه الناحية، فقد ورد في كثير من التقارير أنه أمكن إحداث بعض الآثار العضوية نتيجة للاستهواء بالتنويم، فهناك مثلاً حالات إحداث الفقافيق في الجلد بالتنويم وبعض هذه الحالات كانت تقع تحت الأعين اليقظة لطبيب وعالم نفسى، وقد أخبر الدكتور ر. شندلر عن حالة امرأة كانت في إحدى مستشفيات برلين كان يمكنها أن تحدث لجلدها فقفوفة في غضون خمس دقائق في المكان الذى يحدده لها منومها المغناطيسى وربما كان أغرب من ذلك حالات الكتابة على الجلد، وتفسير ذلك أن يظهر على جلد المريض رسم أو كتابة يفكر هو فيها، وقد عملت عدة دراسات لحالات الكتابة على الجلد التى كات تحدثها مدام كال في باريس بواسطة انتقال الأفكار– التلباثى، وتقول التقارير إن هذه السيدة كان في إمكانها أن تظهر على ذراعها أو صدرها بصورة واضحة أى شكل أو حرف كان يفكر فيه القائم بالتجربة معها، وقد اتفق المجربون على أن التعليق الوحيد لهذا هو الكتابة على الجلد بالتلباثى.

وما زال هناك زعم ربما كان أغرب شيء في مجموعة الغرائب، فليس بين هذه الآثار العضوية سواء أنت بطريقة طبية أو تجريبية ما هو أكثر معنى

من الناحية العلمية وما هوأبعث على الأمل من تلك الطريقة الساذجة جداً، والتى لا صقل فيها وبمقتضاها تزول البثور أو الزوائد الجلدية من جلد حيوانات الفلاحين بالاستعانة بتعويذة،ففي حالة الحيوان فمن الواضح أنه لابد من وجود أثر جسدى – نفسى مباشر على الزائدة نفسها، فإذا كان من الممكن الاعتماد على هذه التقارير للخروج بنتيجة علمية صحيحة من أن التعويذة هى السبب الفعلى في الشفاء لكانت هذه الحالات أمثلة من ط. ن. م ذات طابع عملى.

وهكذا كانت الحالة عندما بدأت اختبارات ط. ن .م في جامعة ديوك، ولقد أوضح لنا الاستعراض الماضى كثيرًا من الأشياء ولكن ليس فيها ما يقطع برأي، وأبرز ظاهرة في هذه الحالات المذكورة عن التفاعل النفسى الجسدى أنها لا تؤدى إلى نتيجة قاطعة، ولكن يجب الاعتراف بأن هذه الحالات وإن كانت تترك الإنسان في عجز عن الوصول إلى نتيجة من ناحية نتيجتها من حيث ط. ن. م فإنها أيضا تتركه عاجزاً عن أن يرفضها باعتبار أنها لا تستحق مزيداً من الاهتمام، فإذا كان فيها أى ط. ن. م فإن مدى أهميتها تستحق كل ما يبذل فيها من صبر دائب على البحث المستفيض.

وكانت مشكلة ط. ن. م هى الوصول إلى طريقة تتوفر فيها البساطة والسرعة والتشويق وما توفر في اختبارات ا. خ. ا من سهولة التحكم في التجربة محكمة واضحة البساطة، كما أن هذه الطريقة كمثيلتها في ا.خ. ا سهلة الخضوع للتقدير بالطرق الإحصائية المتعددة، كما يجب أن تكون

بسيطة ومرنة بدرجة تسمح بتطبيقها على فلان وعلان لا أن تكون محصورة في إنسان نادر الوجود، وأخيرا يجب أن تكون اختبار يعمل في رابعة النهار دون حاجة إلى إظلام أو أجهزة معقدة أو ظروف محيرة.

وكان رمى زهرة النرد «زهرة الطاولة» هو الأسلوب النموذجى للاختبار الذى نحن في حاجة إليه، ولحسن حظ ط. ن. م فإن كثيراً من الناس يعتقدون أنهم يستطيعون عقلياً التأثير في زهر النرد. فيظنون أنهم قادرون في حالات خاصة على سقوط الزهر بالتأثير المباشر من إرادتهم بصرف النظر عن الحيل المتبعة في رمى الزهر أو في تثقيله وحينما وقع انتباهنا على هذا الإيمان بهذه القدرة من أحد المقامرين الشبان من زوار معمل جامعة ديوك رأينا فيه الاختبار النموذجى لتأييد نظرية ط. ن. م – فكل الاشتراطات اللازمة في ضبط التجربة يمكن أن تنطبق عليه، كما أنه اختبار يلذ للقائمين ويتحدى مقدرتهم.

ونتائج التجربة يمكن تسجيلها بسهولة، كما أن المتوسط المنتظر من الحظ أو الصدفة يمكن حسابه بسهولة، كما أن المتوسط المنتظر من الحظ أو الصدفة يمكن حسابه بسهولة، أو بمعنى آخر تتوفر فيه جميع الاشتراطات.

والاختبار النموذجى لـ ط. ن. م كان يجرى هكذا.. إذا أبدى الوسيط اهتماماً بالاختبار بعد الإلمام بطبيعته فكان يعطى زوجاً من زهرة النرد وكأس لرميها، ولنفرض أن الرقم المطلوب كان مجموعة سبع في كل الدورة، فكأن المطلوب من الوسيط أن يهز الزهر في الكأس ثم يقذف بها

إلى طاولة مبطنة السطح، ثم ينظر إلى الوجه العلوى للزهر، ثم ينطق المجرب بصوت مسموع ثم تسجل النتيجة ثم توضع دوائر حول النتائج المكونة سبعة « ٦+ ١، ١، ٥ + ٢، ٤+٣» في ورقة التسجيل بعد كل دورة مكونة من اثنى عشر رمية ثم تحسب الإصابات ويسجل المجموع وكان المفروض أن ما تأتى به الصدفة أو الحظ في اثنى عشر رمية في كل دورة هو رميتان ناجحتان.

وسار العمل في الاختبار الجديد بالاندفاع الميسر لكل جديد، وسرنا في تجارب الزهر بحب استطلاع يحدوه الشوق الذى جر إلى الحماس في تجزئة الطريقة وتعديلها، وكنا غالباً ما ندعو من المعاونين من يعمل معنا ويسجل النتائج، ثم وصلنا إلى طرق جديدة للاختيار وتراكمت النتائج، وخطوة خطوة وشهراً في أثر شهر استطعنا الإجابة على السؤال تلو السؤال عما يحيط بمشاكل رمى الزهر التى كانت تواجهنا في الاختبارات الأولى، كما أضيفت شروط مختلفة لتأمين طريقة العمل.

وكانت المحاولات الأولى بدون ترتيب أو تخطيط، فمن الطبيعى أن كان علينا أن نكشف إذا ما كان هناك ما يضمن أن تكون الطريقة حسنة التصميم، فبدأنا بالطريقة البسيطة وهى رمى الزهر باليد، وكانت مكعبات الزهر تسقط على أسطح لم تعد خصيصاً لذلك مثل أرضيات الغرف وأسطح الموائد، ولكن بسرعة وحينما وضح من الخطوات الأولى أنه لابد من السير في الطريق حددنا القاعدة لرمى الزهرة من كأس، وبعد ذلك أعد جوف الكأس ليكونا خشنا كما أقيمت موائد خاصة للزهر، كما أدخلت

طرق شبه آلية وآلية خالصة لرمى الزهر، كما أضيفت عدة طرق للتحكم والرقابة بحيث تضمن ألا يكون هناك نقص في الزهر فيؤدى إلى تأويل خاطيء للنتائج، وقد افترضنا أن أى زهر تحصل عليه عفواً قد يكون غير كامل أو أن يحدث فيه ذلك بالاستعمال وكنا نعلم أنه لا يمكن أن نأخذ في الاعتبار سلفاً أى عيب في الزهر يبعد به عن الكمال.

وكما في تجارب ا. خ. ا كان لابد من وجود دورة معينة ثابتة لاختبار ط. ن. م حتى يمكن المقارنة، وقد اتفقنا على أن تكون الدورة منذ البداية في التجارب هى ٢٤ للزهر الواحد فإن كانا اثنتان كانت الدورة ١٢ فإن كانت ثلاثة كات الدورة ثمانية وكانت أى دورة من هذه تكفي، ونتج بعد ذلك عدة طرق للاختبار لا تختلف فقط في عدد الزهر ونوع سطوحه وطريقة رميه بل إن هناك اشتراطات أخرى مختلفة كان الغرض منها التأثير على الوسيط ومستوى إجابته الصحيحة.

ففي واحد من هذه الاختبارات تمثلاً كان الزهر يرمى للحصول على أرقام فردية، وكان السطح المطلوب في التجربة يجب أن يحدد قبل البدء في الدورة، وفي بعض التجارب الأخرى كان كل زهر يجرب على حدة على السطح المطلوب حتى إذا كان هناك اتجاه خاص للزهر المزدوج فإنه يلغى نفسه في التجارب الفردية، وفي تجارب أخرى كان الزهر يرمى مزدوجاً للحصول على مجموع خاص من الوجهين مثل رقم ٧ أو الزهر العالى «ثمانية فما فوق» أو الزهر الواطى «ستة فما دون» أو نفس الوجه مكرراً في الزهرين.

وكانت أولى تجارب ط. ن. م مسألة عائلية، فقد قمت أنا وزوجتى الدكتورة لويز . أ. رين بالاختبارات الأولى وكنا نتبادل الوساطة والتسجيل وإن يكن معنا بعض الأصدقاء القلائل الذين كانوا يساهمون في رمى الزهر مزدوجاً وكان الهدف المطلوب هو الزهرالعالى، وبعد أن دلت التجارب الأولى على أن الصدفة أو الحظ وحده ليس تفسيراً كافياً للنتائج أدخلنا طريقة آلية لرمى الزهر لنتأكد من أننا لم نكن بطريقة لا شعورية نصل إلى النتائج العالية باستغلال مهارتنا في التقاط الزهر وفي الاختبارات الجديدة كان التقاط الزهر تبعا لقواعد محددة وكانت توضع في نفس الخط عند ابتداء كل مرة كما كانت تتدحرج بثقلها على مستوى مائل له سطح متعرج، وبهذه الطريقة الآلية لرمى الزهر ارتفع مستوى النجاح بما يعادل ٢٥٪ عن الاختبارات التى أجريت باليد وكانت الدورات التسعماية «٩٠٠» الأولى للحصول على زهر عالى ذات مغزى بدون جدال، وكان المتوسط المتوقع من الصدفة هو ٥٠٠ في كل دورة على فرض أن الزهر كانا منتظم الوجود تماماً، فحصلنا فعلا على متوسط يعادل ٥,٥٠ في كل دورة وهذا ٠,٥٠ فقط فوق معدل الحظ أو الصدقة ولكن هذا – الانحراف الصغير يعنى زيادة عدد مرات الصواب ٤٤٦ نقطة فوق معدل الصدفة وهو مجموع للنحراف، والاحتمال الذى تمليه الصدقة ينخفض إلى ١ بالنسبة لرقم مكون من عشرين عدداً في الزهر الكامل، وليس على متوسط النجاح أن يرتفع عن متوسط الصدفة لدرجة كبيرة كى يكون له معنى، على شرط أن يظل ثابتاً في عدد كبير من المحاولات.

وكانت متوسطات النجاح في ط. ن. م منذ البداية أعلى من متوسط الحظ «الصدفة» ولكن لم تكن هناك متوسطات مرتفعة بشكل ملحوظ، ولم يكن فيها ما يعادل الارتفاع الموجود في ا. خ. ا ولم نشهد خلال أربعة عشر عاماً من اختبار ط. ن. م ما يعادل النجاح الكلى في الدورة التى كانت تحدث في بعض الأحيان في أ. خ. ا أو حتى ما يقابلها، ولكن من الناحية الأخرى نجد أن عددًا أكثر من الناس كان يحب اختبارات الزهر ويحرز فيها نجاحاً معتدلاً، وتبعا لذلك فلم تكن هناك صعوبة في البحث عن وسطاء مخصوصين في اختبارات ط. ن. م وغالباً ما يتحول المجربون إلى وسطاء إن لم يكنْ الحصول على من هم خير منهم.

وقد استعملت نفس الأساليب الإحصائية في تقدير ط. ن. م كما استعملت في ا. خ. ا مع الحصول على موافقة السلطات الإحصائية المعتمدة، وكلما كانت تقوم مشكلة رياضية في أبحاث ط. ن. م كما حدث في بعض الحالات كانت تحال على مستشار معمل الباراسيكولوجى الرياضى وهو الدكتور ج. أجرينود وهو حجة في رياضيات الصدفة والاحتمالات.

وظلت مشكلة الزهر المعيوب، فقد كانت متوسطات النجاح أعلى من الصدفة على شرط أن يكون الزهر كاملاً، وكانت تقلقنا مشكلة العيوب الطبيعية في الزهر العادى الذى كنا نستعمله والتى ربما تكون السبب في المتوسطات التى نحصل عليها فيها فلم نحصل على ما يعرف بالزهر الكامل في الداية لأن الأبحاث كانت استطلاعية فلم تشتد الحاجة

إليها وفضلا عن ذلك فقد كنا نعلم أننا حتى لو حصلنا على نفس النتائج بالزهر الكامل لظللنا في شك من كماله ونظل بذلك فيما نحن فيه، وتبينا أنه يجب علينا أن نجرى التجارب بطريقة يتوفر فيها علاج لانحراف الزهر بحيث تلغيه أو تتحكم فيه بطريقة يوثق بها وعلى ذلك قررنا أن نبحث عن طريقة قويمة لا عن زهر كامل.

وكانت محاولاتنا الأولى للتحكم في اختبارا الزهر تكاد تمنعنا عن السير، ففكرنا في أن الزهر إذاكان ينحرف حو الزهر العالى فلابد أن يعاكس الزهر الواطى أو السبعات أو الإثنين معا فقرنا أن نستعمل هذه المجموعات في دورات متساوية العدد، وكانت التيجة متقاربة في السبعات كما في الزهر العالى، ولكن حينما اقتنعنا بأننا نحصل على نتائج أعلى من الصدفة في اختبارات الزهر العالى نقلنا إلى اختبارات الزهر الواطى فلم نحصل على متوسطات أعلى من متوسط الصدفة وهو ٥,٠٠ نقط في الدورة فهذه النتائج دلت على أن الزاهر المنحرف يلعب دوره: وقد كان هذا يؤدى بكل البحث لو استسلمنا للاندفاع، ولكن كان هناك اكتشاف آخر لم يكن ينسجم مع هذا التفسير ولقد حيرنا بدرجة منعتنا من التوقف.

والشيء الغريب هو أنه في اختبارات الزهر العالى أيضا ينخفض المتوسط فقد كانت فعلاً تحت متوسط الصدفة، فإذا كان انحراف الزهر هو السبب في ارتفاع المتوسط في حالة الزهر العالى فكان الأجدر أن يعود مستوى الزهر للارتفاع حين التغيير من الزهر الواطى إلى الزهر العالى، فالتغير الوحيد في التجربة هو الذى حدث في عقولنا، ولكن الزهر العالى لم

يرجعْ إلى مستواه العالى، وسقط مستوى الزهر العالى والواطى إلى ما تحت مستوى متوسط الصدفة ولا يمكن أن نرجع هذا التغيير إلى الزهر لأنه كان واحد في كل التجارب

ولو كان لدينا من العلم وقتذاك ما كنا نعلمه الآن – وهذا تعبير كثيراً ما يستعمله المستكشفون – لكفينا أنفسنا مؤونة القلق حل مشكلة الزهر غير الكامل منذ زمن طويل، لأن هذه البيانات نفسها حول اختبارات الزهر العالى كانت تحوى أحسن برهان ضد نظرية الزهر غير الكامل، وقد كان هذا حريا بأن يرفع من معنوياتنا في تلك الأيام الأولى ولكنا لم نفهمْ إلا بعد ثمان سنوات وطريقة اكتشافنا لهذه الحقيقة مسلية في ذاتها كما سيأتى بعد، ولكن كل ما يمكن أن يقال هنا في بدء القصة هوأنه لا يمكن لأى قصور في الزهر أن يكون سبباً في هذه النتائج التى حصلنا عليها، ولحسن الحظ أن هذا البرهان جاء متأخراً وعلى يد باحث آخر هى الدكتورة همفرى.

فقد لاحظنا بسرعة أن المستوى ينحو نحو الانخفاض من دورة إلى التى تليها، فقد كان هناك ما يدعو إلى الصبر الدائب في طريقة الاختبار إذا كنا نريد أن نحافظ على المستوى فوق متوسط الصدفة، وهذه التغيرات تشمل تغيير الشخص الذى يرمى، وتغيير طريقة الرمى، وتغيير الزهر المستعمل أو أى تغيير يمكن استحداثه فقد كان من شأن ذلك أن يرفع متوسط الإجابات الناجحة وبمرور بعض الوقت جعلناها قاعدة وهى

إحداث تغيير ما بعد كل مجموعة من دورتين أو ثلاث، وقبل كل ذلك كنا نستمر في التجارب والمستوى ينخفض ونحن لا نملك له إلا الحسرة.

بعد ذلك أصبحت هذه الانخفاضات مثاراً لاهتمامنا تتركز فيه الأبحاث، ففي عام ١٩٤٢ حينما قمت أنا والدكتورة بدراسة البيانات الأولى عن ط. ن. م فوجدنا أن المستوى العالى في الزهر العالى يأتى تقريبا في الدورة الأولى من كل دورتين أو ثلاث المكونة لكل مجموعة حسبما اتفقنا، وفي ١٢٣ دورة أولى كانت هناك ١٣٤ إصابة ناجحة فوق معدل الصدفة، وفي ١٢٣ دورة ثانية حصلنا على ١٩ نقطة فقط وفي ٧٥ دورة ثانية حصلنا على أربع نقط فقط، ويتضح من الشكل ١ الذى يظهر أوجه المقارنة.

وقد استعمل نفس الزهر في هذه المجاميع المكونة من ثلاث دورات ومن الواضح أن أى تغيير في مستوى الأجوبة الصحيحة لم يكن سببه راجعها إلى الزهر، فإذا كان الخطأ هو السبب في الحصول على ١٣٤ في الدورة الأولى فكان لابد أن يستمر في إعطاء نفس المستوى في الدورتين التاليتين ويقول علماء الرياضة إن هذا التغيير الكبير لا يمكن أن تحدثه الصدفة وحدها إلا في حالة واحدة من كل ١٠٠,٠٠٠ مجموعة من هذه الاختبارات، وهذا يقطع بعدم تدخل نظرية الحظ أو الصدفة.

ولكن هناك مجموعة من التعليلات المضادة والتى يجب معالجتها، فلنفرظ أن بالزهر احرافا نحو الزهرالعالى، ولنتخيل أن الرامى يقذف الزهر بنشاط أكبر في الدورة الأولى عنه في الدورتين التاليتين، وأنه كلما قذف

الزهر بقوة كلما زاد انحراف الزهر نحو الزهر العالى، وكل هذه احتمالات معقولة، فهل هى تنطبق فعلاً ؟ وهل تكون هذه المترابطات سبباً في المستويات التى حصلنا عليها؟

قطعا لا، فالتجربة نفسها تجيب عن هذه الأسئلة وتدحش هذ التعليلات المضادة، فبعض رميات الزهر لم تكنْ باليد، وقد أجرى الكثير من الاختبارات بالقذف آلياً الذى سبق ذكره وفي هذه الطريقة لم تكنْ هنا قوة عضلية وراء قذف الزهر، فقد كان يهبط بالجاذبية وحدها بعد أن ينفتح أمامه باب مصيدة معدة خصيصاً، ومع ذلك فقد وجد انخفاض في القذف آلياً كما وجد في القذف باليد، وفي الحقيقة فقد كان أعلى فرق هو الموجود بين الدورات الأولى والثانية بالطريقة الآلية.

وعلى ذلك فقد كان هناك ما يدحض نظرية انحراف الزهر، وإن كنا لم ندركه في عام ١٩٣٤، والآن لا نستطيع أن نرى تعليلا لما حصلنا عليه من نتائج في هذه التجارب إلا في ط. ن. م فإذا كان علينا أن نعيد هذه التجارب الأولى الآن، فإننا بالتأكيد سنفعل بعض الأشياء في صورة مخالفة وذلك في ضوء ما نعلمه الآن، وربما كان هذا هو ما يحدث بصفة مستمرة في الأبحاث الاستطلاعية، ومما يسر أن هذه التجربة كانت أحسن مما كنا نعلم، وبالإضافة إلى النتائج الإيجابية التى جاءت من انخفاض المستوى بعد ذلك فإنها تخضع تماما للاشتراطات اللازمة للبرهنة على وجود ط. ن. م.

إن للأرقام قوة لا تقل في اعلم عنها في أى شيء آخر وبمجرد أن بدأنا نفكر أن هناك شيئاً في اختبارات الزهر فقد كان من الواضح أنه من

الأهمية بمكان أن يستطيع آخرون الحصول على نتائج مشابهة لما حصلنا عليه وكان أول مجرب ساهم في أبحاث ط. ن. م خارج جامعة ديوك هى مارجريت بجرام وقد أصبح اسمها السيدة ريفس وكانت إذ ذاك طالبة أبحاث في علم النفس في كلية جيلفورد وهى معهد تجاور نانى في كارولينا الشمالية، وقد أجرت كثيرًا من التجارب بالزهر كما استعملت الزهر العالى الواطى كأهداف لتجربتها وبنفس الرقم تقريباً من الدورات للاثنين، وقد استطاعت الحصول على نتائج ذات مغزى في تجاربها على اختبارات الزهر العالى والزهر الواطى باستعمال نفس الزهر، وكان نجاحها في التجارب المزدوجة مما يقطع بأن خلل الزهر لم يكن مسئولاً عن النتائج التى حصلت عليها.

ثم دعنا نختلس نظرة إلى المكتشفات التى جاءت بعد ذلك، فقد أتت أبحاث الآنسة بجرام حسب التحليل الذى عملته لها الدتكورة همفرى بعد ذلك بثمانى سنوات بنفس الانخفاض الذى حدث في تجاربنا وكانت قد جرت على اعتبار كل مجموعة عبارة عن ثلاث دورات وذلك منذ البادية، وحينما بدأت دراسة انخفاض المستوى بعد ذلك بسنوات وجد أن دوراتها الأولى كانت أعلى مستوى يليها الدورات الثانية، أما الثالثة فكانت قريبة من مستوى الحظ، وكان الانخفاض بين الدورة الأولى والثانية ذا مغزى كما كان هو والانخفاض بين الثانية والثالثة ملحوظاً، ومن هذا نحصل على دليل مضاعف على أن انحراف الزهر لم يكنْ السبب في النتائج، وكانت هذ المجمعة من التجارب سبباً في أننا فكرنا في أن فشلنا في تجارب الزهر الواطى كان مرجعه إلى انحراف نفسى، فقد كنا نجمد عقليا عند مستوى

الزهر العالى ولا نتحول إلى الزهر الواطى، وبعد ذلك حصلنا على ما يثبت أن هذا الجمود يعمل غالباً بهذه الطريقة.

وبعض طلبة جامعة ديوك ساهموا هم أيضا في أبحاث ط. ن. م في هذا الطور الابتدائى، ،وكان نشاطهم باعثاً على التوسع في نشر القاعدة التى تجمع منها أدلة ط. ن. م كما ساعدوا على إثبات أن التجارب من النوع القابل للإعادة للحصول على نفس النتائج – وأن الأدلة التى اجتمعت لم تكنْ من تجربة واحدة أو من مجموعة خاصة من الراصدين وكان هومر هيلتون الصغير وجورج باير أول الطلبة المجربين في جامعة ديوك، وقد حصلا أيضا على نتائج ذات مغزى عالى في اختبارات الزهر العالى، كما بدأ بعض الطلبة الآخرين تجارب اختاروا فيها وجهاً خاصاً من الزهر ليكون هدف التجربة، وفي مثل هذه التجارب يكون مستوى الصدفة هو أربع إصابات من كل أربع وعشرين، وقد أدخلت عدة تغييرات على التجربة كتغيير عدد الزهر في كل رمية واستعمال زهر من أحجام مختلفة وأنواع مختلفة كما تغيرت طرق القذف وغير ذلك – والقصة الكاملة لهذه المغامرات الفردية في ميدان البحث أبعد ما يكون عن التزمت هى موضوع كتاب مستقل في ذاته، وما نحن فيه يقتضى أن نمرق إلى المكتشفات التى تتصل بالمشكلة الرئيسية التى تواجهنا.

ولم ننشر شيئاً عن التجارب في ذلك الوقت، فلشدة رغبتنا في إثارة اهتمام الآخرين بإعادة الاختبارات فلقد قررنا أن نتحاشى نشر أى شيء عن العمل الخاص بـ ط. ن. م وكانت في ذلك الوقت، ما بين عامى

١٩٣٤ و١٩٣٧، عاصفة الجدال التى أثارها التقرير المنشور عن أبحاث ا. خ. ا في عام ١٩٣٤ على أشدها فآثرنا أن نكتم عن ط. ن. م حتى تهدأ العاصفة، ولكنا استطعنا في نفس الوقت أن نحصل على تعاون من بعض الباحثين القلائل هنا وهناك الذين سرى إليهم نبأ التجارب بطريق أو آخر.

ولكى ندلل على الخليط من المجربين المكتشفين الأوائل في هذا الحقل ط. ن. م يصح أن نذكر بضعة أسماء، فقد كان واحد منهم هو فرانك سميث خريج جامعة بيل في الختصص في الغابات، وكان الآخر ا. ب. جيسون الذى ورد ذكره قبل ذلك في أبحاث ا. خ. ا وكان مهندساً للبلدية والشالات الكبرى الشرقية إيست جراند رابيدز، والثالث كان الأستاذ ماكدوجال في إنجلترا، وكان في إجازة من جامعة ديوك، كما كان هناك عالم نفسى حديث في جامعة وين هو هـ. ل. فريك وكان من الرواد في أبحاث ا. خ. ا، ومن الغريب حقاً وبعد مضى بضعة أعوام قام الدكتور س. ب. ناشى وهو عالم في علم الحيوان من جامعة أريزونا قام وحده مستقلاً عنا وبدون علم بما أجريناه من تجارب بسلسلة من التجارب مشابهة لاختبار رمى الزهر ليختبر نظرية ط. ن. م وكانت أولى تجاربه مشجعة وإن لم تكن قاطعة ولكنها كانت سبباً في أن ناشيء أنشأ فرعا آخر للأبحاث في جامعة أمريكية وكانت النتائج التى أوردها ذات مغزى في إثبات ط. ن. م.

وفي عام ١٩٣٦ كانت ط. ن. م صاحبة الاهتمام الأول في معامل جامعة ديوك، فكان ما يزيد على العشرين رجلا وامرأة داخل جامعة ديوك وخارجها من الذين أخرجوا تقارير عن ط. ن. م وكلهم تقريبًا مؤيدون للنظرية، وكانت الآثار المتراكمة ذات أثر قاطع بالنسبة لأولئك الذين ظلوا يرقبون الأدلة تتجمع من لا شيء حتى تصل إلى أبعاد واسعة تلح في طلب المزد من البحث دون أن يسبق ذلك قدراً كافياً من الإعداد العلمى، أن الطاقة النفسية المحركة تحمل من المخايل ما يدل على أنها ستكون فرعاً مستقلاً من العلم الطبيعي.

ولما وصلنا إلى عام ١٩٤٣ وبعد مضى تسعة أعوام على أول اختبار ط. ن. م في جامعة ديوك وجدنا أن الوقت قد حان لكى ننشر أول تقرير، وكان النقد لأبحاث ا.خ. ا قد سار في طريقه وكنا قد انتظرنا حتى اجتمع لدينا الكثير من الأدلة التى تثبت تأثير ط. ن. م كما أن كثيراً من الاحتياطات كانت قد أدخلت على التجربة مثل قذف الذهر آلياً، كما أن عدة طرق من التى تؤكد أن النتائج ليست وليدة الخلل في الزهر قد استعملت في الاختبارات فقد أجرينا مثلاً اختبارات دخل فيها عدد مساو لكل وجه من وجوه الزهر فكان انحراف الزهر في وجه من الوجوه لابد أن يعطل وجها أو أكثر من الوجوه الأخرى كما كانت هناك سلاسل من التجارب كان يقف فيها بنفس الزهر بنفس الطريقة تحت ظرفين مختلفين، أحدهما كان المقصود منه أن يساعد أو يعطل مستوى الإصابات بالنسبة للوجه المتخذ هدفاً، والثانى كان كتجربة ضابطة «كونترول» وعلى ذلك فبمقارنة مستوى الإصابات فإن الخلل يتعادل فإذا بقى بعد ذلك فرق

جوهرى ذو مغزى بين متوسط الإصابات في كلا الظرفين فإن هذا الأثر يمكن أن يعزى إلى خلل في الزهر.

وكانت هناك احتياطات أخرى خاصة أيضا بالخلل في الزهر، ولكن كان الدليل الحادث من انخفاض المستوى الذى أزال كل شك في عقولنا من ناحية ط. ن. م وكان هذا كافياً في نفسه كما سبق وذكرت عن نقص المستوى في مجموعة الدورات في جامعة ديوك وتجارب الآنسة بجرام في كلية جيلفورد.

وكان هذا الدليل الحادث من المستويات ذا أهمية خاصة في الإجابة على مشكلة الخلل في الزهر وكان ذلك راجع إلى أن افتراض الخلل في الزهر من أصعب المشاكل التى واجهت عقولنا في السنين الأولى من إجراء الأبحاث على ط. ن. م كما أن هذا الدليل نفسه يحمل نفس القوة للبرهنة على وجود ط. ن. م ضد كل التعديلات المضادة.

وهذه التعليلات المضادة هو الخطأ، فهل كانت نتائج ط. ن. م راجعة إلى خطأ الراصدين؟ فنحن نستطيع أن نرى سبباً للانخفاض الحادث في سرعة الأخطاء الواردة في المجموعات القصيرة المكونة من ثلاث دورات في قراءة الزهر ولا في تسجيل النتائج، كما أن الانخفاض عاماً ويسير وفقاً لأسلوب واحد، فكيف يتأتى لمجربين مختلفين أن يقعوا في نفس الشكل من الخطأ؟ فالدورات وسلاسلها لم تكنْ من الطول بحيث تسبب الإجهاد، فإذا كان الإجهاد موجوداً وسبباً فيكون من الصعب تعليل ارتفاع المستوى في الإصابات في مجموعة الدورات الجديدة.

وحدثت نفس الانخفاضات في المستوى في مجموعة السلاسل التى استعملت فيها الآلات لقذف الزهر، فلا يمكن أن تكون من فعل طريقة الرمى، كما أنها كانت موجودة في التجارب التى قذف فيها الزهر باليد والتى قف فيها الزهر بالكأس، ولم يكنْ المجرب على علم بأن البيانات الواردة من تجاربه ستكون موضع دراسة للوصول إلى أساس انخفاض المستوى، فالاكتشافات حدثت في جو مستقل تماماً عن الباحثين الأصليين، وعلى ذلك فهى كدليل على ط. ن. م تحمل الإثبات الكامل للأحاث الأصلية، كما أنه تبنى على تحليل منفصل مستقل، فهى في نفسها أعلى من مستوى الحظ وهى لا تقر إلا بوجود تأثير ط. ن. م.

وهذا الانخفاض في المستويات يحمل أكثر من معنى الدليل، وسيأتى ذكرها في مناقشة دورها في موضع آخر، ويستحسن أن نضيف كلمة أخرى هنا عن دورها كدليل على ط. ن. م وكان وجودها باستمرار وبنفس التشكيل مما يستبعد معه إرجاعها إلى الصدفة فقد كان احتمال الصدفة في هذه الحالة يعادل واحد في عدة ملايين، وحينما وصل البرهان على ط. ن. م من ناحية انخفاض المستويات إلى هذه المرحلة التى أصبح فيها لا جدال فيه أدركنا أخيراً أنا على استعداد لأى نقد أو معارضة يمكن أن تثار، وكان ذها نقطة تحول في البحث.

فهنا كانت البيانات مستقرة في سجلات ط. ن. م كما تستقر الحفريات في الأرض، ويمكن لأى شخص لديه ما يلزمن المؤهلات أن يعيد اختبارها حتى لا يبقى مجال للخلاف، أما نحن فلا نرى لها تعليلا غير الذى

ذكر، ولم يتقدم أحد بتعليل آخر، فلا يمكن حدوثها إلا بالتدخل المنتظم في نشاط ط. ن. م تبعا لطبيعة الاختبار ذاته، وأن النتيجة كانت نفسية، فلم تكن من الزهر لأنه لم يتغير، ولم تكن من طريقة القذف فقد كانت تحدث حتى في حالات القذف بالآلة، كما أن الثبات في حدوثها يمثل أحسن العلاقات خضوعاً لقانون وجد في كل بيانات الباراسيكولوجى، فقد ظهر أ عقل الوسيط كان يهدى الزهر المتحرك ومن ذلك تأكدنا بوجود ط. ن.م.

وقد ظهر في مارس عام ١٩٣٤ تقرير يصف تجاربنا الأولى وكنا نعلم أنه ليس في مقدور كل إنسان أن يظهر ط. ن. م عند الطلب، فهى مثل ا.خ. ا ليست من هذا النوع من النشاط، ولكن كل واحد كان يستطيعان يراجع التحاليل التى عملت لانخفاض المستويات، وهى تبرز أحسن الأدلة على ط. ن. م على أى حال، وقد أذعنا دعوة مازالت قائمة لأى شخص مؤهل أن يعيد تحليل انخفاض المستويات الموجودة في سجلات جامعة ديوك.

وإذن فللعقل قوة تستطيع التأثير في المادة، ومهما كانت ط. ن. م وأيا كان نشاطها فإنها تعمل للمادة شيئا يمكن قياسه إحصائياً، وهى تحدث نتائج في البيئة المادية لا يمكن تعليلها بأن عامل أو نوع من الطاقة معروف لعلم الطبيعة، وعلى أى حال فلابد أن نفترض وجود الطاقة حين يحدث ما يعرف بالشغل، وأن سجلات ط. ن. م تظهر أن الزهر وهو ينحدر كانت تعمل فيه قوة فوق تلك القوى التى كانت تقذف به، وإذن فلابد من وجود طاقة يمكن تحويلها إلى نشاط مادى، هذه الطاقة هى الطاقة العقلية وهذه هى المرحلة الخامسة الكبرى في طريقنا إلى الهدف وهو حل مشكلة

العلاقة بين الإنسان والعالم المادى، وكانت الأولى في هذه الخطوات هى النتيجةالتى وصلنا إليها من أن العقول يمكن أن تتفاعل مع بعضها بدون تدخل أو وساطة مادية، وكانت الثانية هى ا.خ. ا – للأشياء ومنها ظهر أن العقل يمكن أن يدخل في علاقة إدراكية عاملة مع المادة بدون تدخل ما يعرف بالوسائل الحسية الحركية المعروفة، ،وكانت ثالثة الخطى هو ما وجد من أن هذه القدرة تستطيع أن تتخطى حواجز المكان، وكذلك حواجز الزمان وهذه هى الخطوة الرابعة، وفي هذه الخطوة الخامسة يقوم الجهاز العقلى الخارج عن نطاق المادة بالرجوع على الأشياء المادية محدثاً فيها أثراً صغيراً، ولكنه شاذ، وله مغزى في تأثيره عل الزهر المتدحرج بقوة كافية لتغير من وجهه بدرجة لا يمكن اكتشافها إلا بالطريقة الإحصائية الدقيقة ولكن يمكن الوثوق فيها بأنها تسمح بتجمع الأدلة القاطعة عن طريق باحثين مستقلين.

فالأثر الحرك« «كينتك» على الزهر موجود، ألا يمكن أن تكون ط. ن. م من النشاط المادى؟ ربما كان المخ باستغلاله ما به من طاقة مادية مسئولاً عن التأثير على الزهر، أو أن هناك شيئاً نفسيا غير مادى يؤثر مباشرة على الأشياء؟ إن الإجابة عن هذا يجب أن تكون في منتهى الوضوح من الناحية التجريبية كما سيأتى بعد ذلك، وعلى هذه الإجابة يتوقف مدى سطوة العقل في عالم المادة، وهو العالم الذى ينتمى إليه المخ.

الفصل السابع

العقل والمادة «الكتلة»

> هناك بعض المنطق في الاتجاه نحو اعتبار ط. ن. م نوعاً من الطاقة المادية، فمما لاشك فيه أن النتيجة النهائية لاختبارات ط. ن. م على الزهر هى نتيجة مادية،

فهناك شيء يجرى للزهر حتى يغير من سقوطه، وقوة الجاذبية الأرضية أو القوة العضلية التى تعطى للزهر لاشك أنها مادية، فمن الطبيعى إذن أن نفكر في أى طاقة تعمل في الزهر لتتغلب على أثر الجاذبية الأرضية لابد من أن تتشابه مع القوى المادية لتكون قوة مادية، ومن الصعب التفكير في أى نوع من العوامل الأخرى في مثل هذا الموقف والجمود العقلى لابد أن يقف ضد نظرية ط. ن. م كطاقة عقلية.

وهناك فارق ضخم بين اعتبار ط. ن. م طاقة مخية أو طاقة عقلية، فإذا كان العقل يستطيع أن يتخطى المخ ويؤثر مباشرة في الزهر المتحرك فإن نظرتنا لمدى سطوة العقل وامتدادها في العالم المادى يجب أن تتسع كثيراً، وإذا كان العقل يستطيع أن يؤثر في أى نوع من المادة خلاف المخ فإن اكتشاف هذه الحقيقة له أكبر مغزى في البحث عن مكان العقل في نظام الوجود الطبيعى ومدى احتمالات ذلك كاملة، لذلك فإنه من وجهة

نظر الأهداف التجريبية يجب أن نبسط السؤال فنقول هل تخضع ط. ن. م لقوانين المادة؟

ومن حسن الحظ أن اختبارات ط. ن. م كانت مناسبة تماماً لحل هذه المشكلة وكل ما هو مطلوب هو أن نغير الظروف أو العوامل المادية في الاختبار ونقارن النتائج فإذا تأثر النجاح بالتغيرات المادية لكانت النتيجة في صالح القائلة بأن ط. ن. م مادية، وإن لم تتأثر النتيجة بالتغيرات المادية لكان من الواضح أن هذه الطاقة لا شبيه لها في العالم المادى.

وقد حملت أولى المقارنات المادية مفاجئة لنا – ففي إحدى التجارب الأولى على ط. ن. م قورن تأثير ط. ن. م على واحدة من الزهر في الرمية الواحدة بتأثيرها على زوج من الزهر، وبدأ المجرب والوسيط بمألوف العادة من افتراض أن القوة يزداد تأثيرها بتركيزها على شيء واحد بدل شيئى ولكن العجيب أن الوسيط استطاع أن يرتفع بمستوى إصاباته في حالة الزهر المزدوج عنه في حالة الزهر المنفرد، وكانت السلاسل على الزهر الفردى قصيرة نسبياً إذا وجدنا نفوراً عاماً بين الوسطاء بالنسبة لرمى الزهر المفرد، وكانت طريقة مملة، ولم نقمْ إلا بثلاث تجارب طويلة نسبياً على الرمى بزهر منفرد ومع أن النتائج كانت أعلى من متوسط الصدفة ولكن لم تعط أى واحدة منها نتائج عالية المغزى وكل هذه التجارب كانت أدنى في نتائجها مع نفس الوسطاء من التجارب التى استعمل فيها عدد أكبر من الزهر.

وقمنا بعمل مقارنات أخرى، ففي الرميات للحصول لعى الوجه ٢، ٦ فإن النتائج مع ٦ كانت من النتائج مع ٢، فلم تكنْ النتائج على ٢ أعلى بكثير من مستوى الصدفة ولكن نتائج ٦ كانت عالية المغزى وهذه التيجة تظهر بجلاء عكس ما كان يتوقع المرء لو أن قوانين المادة كانت سارية.

وقد وجدنا أن تفضيل الوسيط لوجه خاص أثناء الرمى من الأهمية بمكان، وفي وقت من الأوقات في البحث في ط. ن. م في المعمل ثار اهتمام الباحثين في تأثير الاتجاه إلى رفع أرقام الزهر في المتوسط الذى يمكن الحصول عليه من ط. ن. م وقفزنا من ٢ إلى ٦ ثم ثم ١٢ ثم ٢٤ ثم ٤٨ إلى ٩٦ نقطة على سطح الزهر في الرمية الواحدة كان أعلى متوسط للإصابات في الأرقام العالية، وظللنا بعض الوقت بعد ذلك تخصص في الاختبارات الأساسية لـ ط. ن. م الرقم ٩٦ في الرمية الواحدة، فوضح بجلاء أن القوانين المتعلقة بالاهتمام والحماس لا قوانين الحركة هى التى تقرر مستوى الإصابات.

وقد بانت نفس المقارنات في تجارب أخرى، فقد بدأ هـ. ل فريك الذى سبق ذكره بالرمى على الزهر ٦ لبعض الوقت وكان يتناوب الوساطة مع زوجته، ،وبعد ذلك ضاعفا عدد الزهر في الرمية وبعد ذلك ضاعفا الضعف فكانا يرميان ٢٤ فردة زهر في الرمية الواحدة – فوجدا أن مستوى الإصابات يرتفع بالمضاعفة، وكانت متوسطاهما مرتفعة المغزى فقط في الأرقام العالية، وفي سلسلة من الأبحاث بعد ذلك زاد فريك في عدد

الزهر حتى وصل إلى ٦٠ في الرمية وظل متوسط الإصابات يرتفع ورغم ذلك فلا يمكننا أن نقطع بنتائج من هذا البحث لأن الزهر لم يكنْ تام التشابه ولكننا نستطيع القول إن هذه النتائج لا تتفق والمباديء الآلية المادية.

ويمكننا أن نترك الموضوع عند هذا الحد مؤقتاً، وسنجرى بعض الدراسات المقارنة لنقرر هل عدد الزهر في كل رمية له أثر على مستوى الإصابات، ولكن ما أجرى حتى الآن يكفي لأن يعطى أثراً حاسما، فلو كانت القوة العاملة هنا من النوع المادى لكان لنا أن نتوقع أن يرتفع مستوى الإصابات مع أقل عدد من الزهر في الإصابة ولكن لم يحدثْ شيء من ذلك.

وهناك طريقة أخرى للنظر إلى المشكلة، فقد كانت هناك اقتراح بأنه ليست كمية الطاقة هى التى تقرر مستوى الإصابات ولكن عدم كفاية الطاقة أو نقص الهدف فيها في عمل الاتصال، فمن النقط الجدلية أن الطاقة قد تخطيء هدفها في شيء واحد ولكن ليس الحال كذلك إذا تعددت الأشياء وبذلك يرتفع مستوى الإصابات.

وعيب هذا الجدل أنه يتكلم عن الأرقام ولا يتكلم عن النسبة المئوية ففي اختبارات ط. ن. م ارتفعت النسبة المئوية للإصابات أو ظلت على حالها مع زيادة الأهداف، فالصياد يستطيع أن يسقط عدداً أكبر من الطيور في الرمية الواحدة إذا كان سربها كبيراً ولكن هذا العدد الساقط نسبته المئوية بالنسبة للسرب أقل، فإذا صحت نظرية قصور الهدف

لوجدنا أن عدد الإصابات يرتفع بارتفاع عدد الأهداف ولكن النسبة المئوية تنخفض، وقد رأينا أن ذلك لا يحدث.

وهناك نظرية أشد حذقاً وكثيراً ما تقدم لتفسير نتائج ط. ن. م وهى تقول إن تأثير مجال عام «وإن كان غامضاً» كتأثير المجال المغناطيسى أو مجال الجاذبية الأرضية هو الذى يعمل وأن عدد الأشياء التى ستتأثر بهذا المجال يتوقف على عدد ما يتعرض منها له وتبعا لهذه النظرية المادية فإن مستويات الإصابات لن يرتفع بارتفاع العدد في كل رمية، ولكن هذه النظرية لا تأخذ في الاعتبار ما يحدث في اختبارات ط. ن. م فإن كل فردة زهر تحتاج لوقت خاص ووضع خاص لكى تسجل إصابة فكلما زاد عدد الزهر كلما زاد عدد الأفراد التى يجب أن تعطى تأثيراً خاصاً وفرديا في وقت محدد وزمن محدد، فكل فردة زهر هى عملية مستقلة بذاتها – ومن الصعب أن يرى المرد كيف يؤثر مجال عام على هدف خاص كوجه من وجوه الزهر أو عدة وجوه بحيث تأتى بنتيجة خاصة مثل السبعات أو الزهر العالى، إنها لا تستطيع أن تحدث إلا التسوية العامة التى نسميها نسبة الصدفة أو الحظ فتجر زهراً في وضع صحيح كما تجر زهراً في وضع خاطيء.

وقد استعملت أحجام مختلفة من الزهر في بعض تجارب ط. ن. م وكان أحسن التجارب للمقارنة هى تجارب فريك الأولى التى سبق ذكرها والتى كانت ترمى فيها ٢٤ فردة زهر دفعة واحدة، وكان من بينها اثنى عشر متوسطة الحجم واثنى عشر من الحجم الصغير وكلها من نفس المادة

وبنفس الشكل، وكانت الزهر المتوسطة الحجم تعادل ضعف حجم الصغيرة ولكن كانت الزهر الكبيرة الحجم تعطى متوسطات للإصابة تعادل الضعف تقريباً لمتوسط الصدفة، وكانت الزهر يقذف بها كلها دفعة واحدة من مكان واحد وكان الفارق الوحيد بينها هو في الحجم، ولكن كانت النتائج أيضا عكس ما يتوقعه المرء لو أن القوانين الطبيعية هى التى كانت تحكم الموقف.

وفي بعض السلاسل التى استعملت فيها الآلة في جامعة ديوك كان هناك حجمان للزهر، فكان هناك زوجان من الزهر مختلفاً الحجم. ولكن كان يقذف بكل زوج على حدة بواسطة الآلة للحصول على وجه خاص وكانت الآلة عبارة عن قفص من السلك يتحرك بالكهرباء وكانت الزهر المتوسطة الحجم تعادل أربع مرات حجم الزهر الصغيرة ولكنها كانت مصنوعة من نفس المادة وبنفس طريقة الصنع، وكان متوسط الإصابات الناجحة في الحالتين متعادلاً تقريباً، وفي هذه التجارب التى استعنا فيها بالآلة كما في التجارب التى استعان فيها «فريك بالكأس، كانت الطريقة التى يعالج بها الزهر فيها من الاحتياطات ما لا يسمح بأى فرق مادى في قذف نوعى الحجمين من الزهر».

والتجارب الأخرى المقانة تؤيد هذه النتائج ولو أنه لا يوجد منها واحدة تتشابه فيها نفس الظروف، وفي كل الأحداث الموجودة لا يوجد دليل واحد يؤيد الرأى الذى يقول بمادية ط. ن. م كما أن كل الشواهد تؤيد أنه لا الحجم ولا كثرة لها تأثير في نجاح اختبارات ط. ن. م وأن

النجاح الذى لقيه الزهر الكبير في بعض التجارب يرجع إلى تفضيل الوسيط لهذا النوع من الزهر المتوسط الحجم.

ومهما كان نوع ط. ن. م من القوة فإن عليها أن تنافس الجاذبية الأرضية، فالاثنان يعملان معاً في الزهر وهو يسقط، ومقدار الجاذبية الأرضية الذى يمثله وزن الزهر لا يبدوا أن له أثرا في مستوى الإصابات الناجحة، وأن عدم اكتراث ط. ن. م بالقوانين المادية الخاصة بالجاذبية الأرضية لما يدعو الإنسان إلى التفكير. وكانت هناك اختبارات لـ ط. ن. م على أبعاد أو مسافات مختلفة.

وكلها تتضارب جدلياً مع النظرية المادية، فمن الناحية الجدلية يمكن القول إنه إذاكانت ط. ن. م هى تفاعل مادى من المخ لكان معنى ذلك أنه كلما بعد الشخص عن الزهر كلما قل تأثير ط. ن. م المنبعثة منه على الزهر وقلت تبعا لذلك نسبة إصاباته، ولكن التجارب التى أجريت على تأثير ط. ن. م من مسافات متباعدة لم تظهرْ مثل هذا الأثر، ففي بعض التجارب في جامعة ديوك كانت المسافة بين الوسيط والزهر مسافة ٢٥ قدما وكان على الوسيط أن يشد خيطاً فيتدحرج الزهر بثقله الطبيعى، وقد أدخل عامل المزاج في التجربة، وحين كنا ننفث في روح الوسيط أنه يمكنه أن يرتفع بمستوى إصاباته من على بعد، كانت النتائج من مسافة ٢٥ قدما خير منها والوسيط يجاور الزهر، وبعد وضوح هذه النتيجة تخلينا من ميزة البعد وحبذنا قرب المسافة، فكانت النتيجةأن النسبة بين المتوسطات انعكست لصالح المسافة القريبة، ومثل هذه التجارب توحى أن مثل هذه

المسافات القصيرة السابق ذكرها لا تحدث أثراً في اختبارات ط. ن. م ولابد من إجراء تجارب أخرى على أثر المسافة على ط. ن. م ولكن هذه الدراسات المبدئية تحمل أكثر من وحى.

كما قورنت أنواع من الزهر مختلفة الكثافة – وحصلنا على زهر قامت شركة هندسية بصناعته خصيصاً وحاولت أن تجعله كاملاً إلى أبعد حد فكان أقصى خطأ فيه لايزد عن واحد من ثلاثة آلاف جزء من البوصة، وكان مصنوعاً من مواد مختلفة – من الرصاص والصلب والألومنيوم والخشب الصلب والخشب الطرى – وحينما عملت المقارنات على ط. ن. م وجد أن الزهر الثقيل يحدث مستويات من الإصابة أعلى من الزهر الخفيف، وفي الحقيقة فإن الزهر المعدنى وحده هو الذى كان يأتى بمتوسطات عالية تكفي لتكون ذات مغزى على حين أن نفس العدد من الرميات للزهر الخشبى ولو أنها كانت أعلى من مستوى الصدفة إلا أنها لم تكنْ ذات مغزى، وكثير من الوسطاء كانوا يفضلون الملمس المعدنى الثقيل للزهر وكان يعتبرون الزهر الخشبى خفيفاً جداً، وعلى هذا يمكن افتراض أن تفضيل الوسيط لنوع خاص من الزهر كان أشد أثراً في الجاح من نوع المادة المصنوع منها الزهر ولكن هذه المكتشفات أيضا لا تؤيد كون ط. ن. م نشاط مادى.

وقد عمل اختبار مقادن آخر على زهر مختلف الشكل، وكان الغرض من ذلك إيضاح أن شكل الشيء الذى ستؤثر عليه ط. ن. م له أهميته إذا كانت ط. ن. م مادية لأن بعض أشكال الزهر تتدحرج بسهولة

أكثر من غيرها، ولكن إذا كان الشكل يغير في نتائج ط. ن. م فإن هذه الحقيقة لم تكتشف بعد، وقد حصلنا على أربعة أزواج من الزهر مصنوعة من الباكليت زوج منها حاد الزوايا والآخر مستدير الزوايا جدا والزوجان الآخران وسط بينهما، وقد عملت اختبارات مقارنة لـ ط. ن. م وفيها كان يرمى بالزهر المستدير الزوايا كمجموعة والزهر الحاد الزوايا كمجموعة أخرى، وكان متوسط مستوى الإصابات في المجموعتين متقاربا وكانت النتائج في الحالتين ذات مغزى، فإذا كانت ط. ن. م قد أثرت بالتعادل على الزهر بصرف النظر عن خصائصه الميكانيكية فمعين ذلك أن ط. ن. م قد حصلت على دليل جديد في أنها تخضع لقوانين المادة.

وكان أول الأشياء التى استعملت بعد المكعبات هى الأشياء المسطحة مثل قطعة العملة والشرائح الصغيرة والمربعات من ورق الكرتون والأقراص، وقد جربت لفترة قصيرة في أيام التجارب الأولى على ط. ن. م ولكنها أعطت نتائج إيجابية بسطة لا تزيد عن مستوى الصدفة إلا بشيء تافه وعلى ذلك فكان طبيعياً أن وجهنا انتباهنا إلى الطرق الأخرى لرمى الزهر التى تعطى نتائج أرجح، ومنذ أمد قريب استؤنفت التجارب على الأشياء المفلطحة بيادة الأستاذ ر.هـ توليس في جامعة كمبردج والآنسة اليزابيث مكماهان في معمل جامعة ديوك، وكانت النتائج التى حصل عليها المجربان ذات مغزى، والنتائج التى أمكن الحصول عليها من الأقراص كانت قريبة من النتائج الحاصلة من الزهر ولكن المقارنة لا يمكن أن تكون دقيقة جداً، وأن متوسط الصدفة المتوقعة من كل تختلف باختلاف الجسمين ولم تتمْ بعد مقارنة محكمة قائمة على العمل تحت ظروف متشابهة، ولكن

النتائج التى حصلنا عليها تظهر أن نشاط ط. ن. م ليس قاصراً على نوع واحد من الأجسام.

وهناك العشرات من طرق الاختبار المختلفة لـ ط. ن. م فإذا ما وهبنا الوقت والمعدات والمعاونات الأخرى التى يحتاجها البحث، فلاشك أننا سنحاول منها الكثير حتى نستطيع أن نخرج بقوانين عامة عنها كلها، ومازالت ط. ن. م في مرحلة الطليعة.

ولم يعد هناك شك في أن ط. ن. م ليست مادية، فليست هناك تجربة واحدة تعزز الرأى المادى بل هناك أدلة كثيرة تدحضه والأدلة التى تثبت أن ط. ن. م لا تخضع للقوانين الآلية متنوعة الشكل مختلفة التناسق، وأن خروج ط. ن. م على هذه القوانين المادية الآلية ليس خروجاً سطحياً بل هو يمس الصميم لأن العلاقات المادية التى امتحنت في هذه التجارب هى الأسس لعلم الميكانيكا، فاكتشاف الحقيقة أنه لا الكتلة ولا العدد ولا الشكل لها فاعلية في اختبارات ط. ن. م يجعلها تأخذ مكانها بجانب اكتشاف أنه لا الزمان ولا المكان لهما فاعلية على ا.خ. ا.

والتفكير السليم أيضا يؤيد الحقائق التجريبية، فإذا كانت ط. ن. م ستؤثر على فردة الزهر فلابد أن يقع هذا التأثير في وضع أو نقطة خاصة في الزمان والمكان فيحدث للزهر دفعة تحدوه في اتجاه خاص يتوقف على فردة الزهر في هذه اللحظة، فمقدار الجهد اللازم واتجاهه وكذلك وقته ومكانه يختلف مع كل سقطة للزهر في نفس الآلة القاذفة، وإذا تساوت كل الظروف فإن هذه الأربعة السابق ذكرها ستختلف تبعا لوجه الزهر

المتخذ هدفا، كما أن نشاط هذا الجهد المؤثر والمتوقف على النزوع الإرادى للوسيط يحتاج عند استعماله إلى نوع من الذكاء المحرك.

وبعبارة أخرى أن ط. ن. م عبارة عن نشاط هادف يوجهه الإصرار وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون مادياً، فأى عالم في علم الطبيعة سيرفض فوراً أى فكرة تعرض عليه وتقول إن الطاقة المادية يمكن أن تعمل بطريقة يتضح منها أن عقلاً هادفاً ورائها، فلا خيار له في الموضوع فخواص السلوك الإنسانى الدالة على العقل والإرادة تختلف تماماً لدرجة قد تتعارض في بعض الوجوه مع الدوافع المسببة الأساسية في العلوم الطبيعية.

فالطاقة النفسية المحركة تبعا لما سبق ليست وليدة قوة عمياء لا هدف لها، فمع ضعفها ونزواتها فإن ط. ن. م تتفاعل مع الأشياء المادية تبعاً لخطة مرسومة وتوجيه عاقل، وفي طريق هذا التفاعل تتحول الطاقة النفسية ومعها كل القوى العاملة في الزهر المتدحرج إلى الطاقة الحركية المتحصلة والتى تؤثر في وضع الزهر– وعلى مدى فهمنا للعملية وحتى هذه المرحلة التى وصلنا إليها يمكن أن نستنتج أن هذه الأنواع من الطاقة قابلة للتحويل من نوع لآخر فتنتهى الطاقة النفسية في صورة طاقة حركية.

وعملية ط. ن. م ليست إذن تفاعل بين المخ والأشياء، فليس المخ وهو نشاط مادى، بل العقل، ونشاطه غير مادى، هو الذى يؤثر في الزهر المتدحرج، وليست لدينا أية فكرة عن كيف يحدث هذا التفاعل النفسى المادى المباشر، ولكننا أيضا في نفس العملية من ناحية كيف تتفاعل مع مادة المخ، وتحويل مشكلة الصلة بين العقل والمادة إلى هذا الأسلوب

المبسط والسهل التحكم فيه كاختبار ط. ن. م يعطينا طريقة لمعالجة الموضوع أسهل منالاً مما كان الموقف المعقد بين العقل والمخ يسمح به حتى الآن، وإنه لأمل للباحث عند هذه المرحلة ولكنه أمل معقول.

والطاقة النفسية المحركة تثير في نفوسنا الدهشة في عدة أشياء، فالأدلة عليها لا تظهر إلا أثراً ضئيلاً منها، ولكن هذا ما حدث في اكتشاف كثير من الطاقات المعروفة فلقد ظهرت للمكتشفين أول ما ظهرت كمظاهر ضعيفة، مجرد شرر صغير، ولم يكن الكم أبداً أساساً لإثبات ظاهرة طبيعية، ثم إن ط. ن. م إنما يستدل عليها بطريقة غير مباشرة وذلك عن طريق أثرها المادى ولكن هذا أيضا ما حدث في معظم ما توصلنا إليه من معلومات حديثة في العلوم الطبيعية كان بطريقة الاستنتاج المبنى على مشاهدة هذه الآثار المرئية الدالة عليها وكل المكتشفات في علم الطبيعة النووية كانت من هذا القبيل، وكذلك علم الوراثة وكثير من علم الكيمياء كان استنتاجياً، وحتى علماد الفلك وطبقات الأرض لم يروا أعظم مكتشفاتهم رأى العيان وأكثر ما استحدثته عقولهم كان على أشياء غير ملموسة مثل ط. ن. م وهذه المكتشفات كانت بلا شك مبنية على بيانات مرئية وهكذا قامت النتائج الخاصة بـ ط. ن. م.

إن أو هى الآثار لفاعلية قانون من القوانين الطبيعية يمكن أن يكون في غاية الأهمية والحسم بالنسبة للعالم الطبيعى وإن يكن الطريق إلى هذا

الأثر الضعيف كان طويلاً وملتوياً، أما التطبيق العلمى والفائدة المادية فهذه مواضيع أخرى.

وإلى أى مدى ستؤدى بنا النتائج المتعلقة بـ ط. ن. م؟ فالعقل وهو جهاز غير مادى ولكن بفاعليته غير المادية في شيء مادى يحدث أثراً مادياً، والظروف المادية الشائعة والتى أحصيناها قبل ذلك لا أثر لها إلا أن يكون ذلك في الحالة العقلية للوسيط، ومهما كانت الآثار المادية التي تحدثها ط. ن. م طفيفة فالظاهر أن ط. ن. م تعمل مستقلة عن كل قوانين المادة، إذن فما الذى يتحكم في ط. ن. م إن لم تكنْ تخضع للقوانين الطبيعية وما هى حدودها؟ فإن لم يكن الحجم أو الكثافة أو العدد أو المسافة وما شاكلها بذى أهمية في اختبارات ط. ن. م فما الذى له أهمية؟ وبصفة عامة فإن هذه الأسئلة تصلح هدفًا لأبحاث مستقبلة.

ولكننا نستطيع القول هنا أن اكتشاف ط. ن. م كشىء غير مادى يمثل الخطوة السادسة في طريقنا لفهم طبيعة الإنسان الحقيقية في الجود، وهذا الاكتشاف يتوائم بشكل لطيف مع الخطوات السابقة فإن ط. ن. م تكمل الإدراك بالجلاء البصرى، ففي ط. ن. م يقع التفاعل على الشىء وفي الجلاء البصرى يحدث التفاعل في عقل الوسيط ف صورة إلمام بالشىء، أما أهمية الصلة بين تلك الظواهر غير المادية ومكانها بالنسبة للكون كله فسنتابعها فيما يلى لنكشف عن هذه الصلات بين تلك الظواهر وبعضها وبينها وبين ما استقرت عليه الآراء قبل ذلك وأنسب مكان لها بين تلك الأشياء المستقرة المعروفة.

الفصل الثامن

الصلة بين ط. ن. م و ا.خ. ا

إن من أنصح الحقائق حول ط. ن. م هو صلتها القوية مع ا.خ. ا ولقد أشرت فيما سبق إلى أن ط. ن. م تتسلسل منطقياً مع ا. خ. ا والذين استساغوا هذه الصلة لن يدهشوا حين يروا الأدلة تساق إليهم عن العلاقة بين ظاهرتى ا. خ. ا، ط. ن. م فكان لابد أن يتوقعوا أن تكون الصلة وثيقة بين الاثنين وأنه من الأهمية بمكان أن نسوق من الأدلة ما يثبت معالم شخصيتهما.

وإبراز وجوه الشبه بين ا.خ. ا، ط. ن. م يظهر من الاختبارات المادية التى طبقت عليهما فالاكتشافات التى أوردناها في الفصل السابق توضح أن ط. ن. م لا تخضع للظروف المادية التى حاولنا أن نفرضها عليها وهذه الظروف هى المظاهر الآلية والعلاقة الوزنية وما شابهها – وهذه النتائج التى حصلنا عليها من ط. ن. م تتشابه إلى حد كبير مع ما اكتشفناه عن ا.خ. ا – واستقلالها عن الظروف المكانية الزمنية التى اختبرناها عليها، وكل التجارب التى أجريت حتى الآن يبدو منها بوضوح أن ظاهرتى ا.خ. ا و ط. ن. م لا يمكن تفسيرهما بالقوانين المادية المعروفة، ولما كانت لا توجد حتى الآن – ظاهرة عملية تتمتع بمثل هذا الاستقلال عن قوانين المادة فلا

حاجة بى إلى مزيد من القول حول المعنى الفذ لهذا المظهر المشترك لـ ا. خ. ا، ط. ن. م.

ولكن إذا كانت الأحوال المادية لا تؤثر في ط. ن. م فإن الحالات العقلية تؤثر، وهنا يبدو التوازى بينها وبين ا. خ. ا ومع إن ما عرف عن ط. ن. م لا يصل إلى درجة ما عرف عن ا. خ. ا من ناحية الأحوال النفسية المؤثرة ولكن ما وصلنا إليه من معلومات يعطى فكرة واضحة عن المقارنة بين القدرتين، فبصفة عامة يمكن القول إن أى حالة تؤثر في إحدى القدرتين تؤثر في الأخرى بنفس النتيجة، ولم نجدْ لهذه القاعدة استثناء أو خلافاً.

وتجربة تشتيت الذهن التى أجراها وددرف وبرايس تهمنا هنا وقد أجرياها بغية أو وصول لمعرفة ما إذا كانت تشتيت الانتباه يمكن أن يؤثر على اختبار ط. ن. م.

فقد كان المعرفو طويلاً أن بعض أنواع التشتيت يعطل الوسيط في اختبار ا. خ. ا فلو عدنا إلى الحلقة الثامنة من القرن الماضى نجد أن الأستاذ أوليفر لودج قد لاحظ أن وجود أشخاص زائدين في اختبارات ا.خ. ا كان من شءأنه أن يشتت الانتباه ما لم يكن هؤلاء الأشخاص بعضاً من موقف الاختبار، وفي تجارب جامعة ديوك الأولى كان حضور الضيوف في التجارب كفيل بخفض مستوى الإصابة إلى حد مستوى الصدفة، وكان يظهر أن هذا الانخفاض نتيجة لتشتيت الذهن ولكن على

أى حال فإن الوسيط حين يعتاد على وجود الضيف يبدأ مستوى إجاباته يرتفع إلى الحد الذى كان عليه قبل حضور الضيف.

ولم نكن ندرى في البداية إذا كانت ط. ن. م حساسة مثل ا. خ. ا وكان الدكتور ج. ل وددرف خيجا لجامعة ديوك في ذلك الوقت ووسيطاً ناجحاً في اختبارات ط. ن. م وكان يشعر بثقة كبيرة في نفسه في أن يرتفع بمستوى إصاباته عن مستوى الصدفة مع وجود ظروف التشتيت كما أن الآنسة مارجريت بريس وكانت مساعدة في المعمل لم تكن تظن أن ثقته هذه على أساس وتحدته في أن يرتفع بمستواه عن حد الصدفة في الوقت الذى تحاول هى فيه إن تشتت انتباهه وتضعف من ثقته.

وأقمنا تجربة على صورة شد الحبل بين إرادتين، وكان على وودرف أن يؤدى ستين دورة بمفرده ثم يؤدى ستين دورة بحضور الآنسة برايس التى تحاول أن تفعل أقصى ما تستطيع لتشتت ذهنه، وكل وودرف قد حصل على مستوى مرتفع في تجربة كان فيها أحد الشهود حاضراً بصورة حيادية كمراقب ليسجل له إصاباته وهذه التجربة السابقة اتخذت كتجربة ضابطة.

وقذف بالزهر من قفص سلكى يحركه محرك كهربائي، واستعمل نفس الزوج من الزهر في سلسلة التجارب الفعلية والضابطة، وكان الهدف باستمرار هو الوجه ذو الستة نقط.

وكانت نتيجة تشتيت الذهن لا يمكن تجاهلها، فقد كان أعلى مستوى لإصابات وودرف حينما كان بمفرده، ففي الستين دورة حصل

على ٥٨ إصابة فوق مستوى الصدفة وهو أربعة في الدورة – كما حصل على ما يقارب نفس المستوى في حضور شاهد محايد في تجاربه الأولى حين حصل على ٢٧ نقطة فوق مستوى الصدفة في ٣٢ دورة، إما بحضور الآنسة برايس فقد نزل إلى ما تحت المتوسط الذى تفرضه الصدفة وحصل عل يمجموع من ١٠ نقط «تحت» مستوى الصدفة وهو أربعة ولما لم يقنعه هذا فقد طلب امتداداً فأعطى عشرين دورة أخرى وفيها أيضا نزل مستواه إلى ما تحت الصدفة.

وكانت الظروف المادية هى بنفسها في الثلاث تجارب، فلا يمكن إذن أن يعزى السبب في تغيير النتائج إلا للعامل النفسى وهو عدم قدرة الوسيط على تركيز ذهنه في عمله.

وكانت أقسى النتائج في اختبارات ا. خ. ا هى التى تحدث حين يعطى الوسيط منوماً، وكان المنوم في صورة جرعات كبيرة من مسحوق صوديوم اميتال التى تجعل الوسيط خامل الذهن وإن لم تسبب له النوم الكامل وكان هذا كافياً بأن ينخفض بمستوى الإصابات فلا تزيد عن مستوى الصدفة وقد أكدت تجارب كلارك وشارب في جامعة نيويورك نتائج الاختبارات بالمنومات وفي كلتى الحالتين كان الكافيين يستعمل لمقاومة تأثير المنوم وفي كلتا الدارستين كانت النتيجة متشابهة، وكانت جرعة الكافيين تعادل عدة أقداح من القهوة القوية وكانت كفيلة بأن تشد مستوى الإصابات إلى أعلى أى إلى المتوسط العادى للوسيط.

وكانت نتيجة هذين العقارين في اختبارات ا. خ. ا متسقة مع التأثير المعروف لها على العمليات العقلية المعروفة فكان مما يشوق أن نعرف أثراً على ط. ن. م وهل هو من نفس النوع.

وكانت الاختبارات تشير إلى أن لها أثرًا، وما حصلنا عليه حتى الآن من نتائج يظهر بصفة عامة إلى أن الجرعات الكبيرة من اميتال الصوديم «وكذلك المخدر المعروف وهو الكحول» تخفض مستوى الإصابات في اختبارات ط. ن. م كما أن للكافيين تأثيراً مضاداً، ولكن جرعة الامتيال اللازمة لـ ط. ن. م أعلى منها في ا. خ. ا وربما كان هذا لأن اختبارات الزهر تثير من الحماس أكثر مما تثيره اختبارات ا. خ. ا وبذلك تجعل الوسيط أشد انتباهاً وتماسكاً، ومن ناحية أخرى فإن الجرعات الصغيرة من امتيال الصوديوم كان يعقبها ارتفاع في مستوى الإصابات مثلما حدث في تجارب بروجمان على ا. خ. ا التى كان يرتفع فيها مستوى الإصابات بجرعات صغيرة نسبياً من المحول، ومع أننا في حاجة إلى تأكيدات أكثر قبل أن نصل إلى قرار نهائى فالأدلة التى لديها عن تأثير العقاقير على ط. ن. م تتمشى مع ما هو معروف عن تأثيرها في أ.خ.ا.

والتنويم المغناطيسى أيضا قد وجد أنه يؤثر في الاثنين ط. ن. م وا.خ.ا.

ولا أستطيع أن أقو لكثيرا في الوقت الحاضر عن هذه الناحية حيث أن اختبار ط. ن. م على وسطاء التنويم مجرد بداية. وهناك من المشاكل أكثر مما هناك من حلول عن تأثير التنويم على ا.خ. ا ولكن التجارب

الأخيرة التى أجراها جون جريلا في جامعة سانت لورنس توحى بأن للتنويم قدرة على رفع مستوى الإصابات في اختبارات ا.خ. ا وقد جد جريلا أن المنومين ارتفع مستوى إصابتهم حينما أعطاهم إيحاءات إيجابية مشجعة كما أن مستوى الإصابات انخفض عما في التجربة الضابطة نتيجة للإيحاءات السلبية المثبطة التى أعطيت لهم في التنويم والفرق ليس بذى مغزى ولكن النتيجة النهائية لها مغزى.

والتجارب الأولى على ا. خ. ا تحت التنويم التى أجريت في العقد الثامن والتاسع من القرن الماضى كانت مدهشة ولكنها لم تكن محكمة الضبط ومن المستحيل تقدير مدى تأثير التنويم على النتائج.

وليس هناك إلا دراسة وحيدة عملت على تأثير التنويم على ط. ن. م وفي المعمل أوقعنا الوسطاء تحت التنويم ثم أوحينا إليهم بالثقة الكبيرة في قدرتهم على إحراز أحسن النتائج – كما أعطيت إليهم إيحاءات قوية في زيادة تعلقهم بالعمل وأنهم سيركزون انتباههم في وجه الزهر الذى يريدون له أن يكون أعلى حينما تطلق الآلة الزهر ليسقط على المائدة المبطنة.

وكانت نتيجة هذه الإيحاءات بعكس ما توقعنا، وهبط مستوى الإصابات إلى ما تحت مستوى الصدفة وعلى ذلك قررنا إعادة عملية التنويم مع إعطاء إيحاءات مختلفة، وفي إعادة التنويم هذه أوحى للوسطاء أن يسترخوا وألا يحاولوا بصفة خاصة التركيز وأن يزخذوا الاختبار مأخذ التسلية وعلى أنه لعبة، وحين وضعوا تحت الاختبار في مجموعة جديدة بعد إعادة التنويم ارتفع مستوى إصاباتهم عن المستوى الأصلى قبل التنويم.

وعلى ذلك يصح أن نقول إن التنويم يمكن أن يكون له أثر في ا. خ. ا و ط. ن. م وهذا آخر ما نستطيع أن نصل إليه ولكنه في نفس الوقت كاف لإيضاح وجه جديد للشبه بين الاثنين، وربما كان من الأمور التي لها مغزي أن القدرتين لا يمكن أن تخضعا بسهولة للسيطرة التامة كما تخضع الحراس وأعضاء الحركة فوسيط التنويم يمكن إصابته بسهولة بالعمي الوظائفي أو خلق صور وهمية أمامه أو جعله أشلا أو الضغط عليه في أن يتحرك بدون ضبط نفسى، ولكن الحقيقة أن السيطرة علي هاتين القدرتين ط.ن.م وا.خ.ا لا يمكن إلا أن تكون جزئية، هذا يوجد وجهاً جديداً للشبه بينهما وإن كان وجهاً شاذاً.

هناك وجه آخر للشبه وهو وضع التجربة، فترتيب التجربة في سلسلة من التجارب له أثره في ط.ن.م كما له أثره في ا.خ.ا حتي ترتيب الدورة في مجموعة الدورات له أثره، فالتجارب الأولي يرتفع مستوي الإصابات فيها أما الوسطي فيقرب المستوي من مستوي الصدفة، وفي حالات خاصة يرتفع مستوي الإصابات قرب النهاية، وعلي ذلك فالرسم البياني لمستوي الإصابات يأخذ شكل الحدوة طرفاها إلي أعلى، وأن الطرف الدال علي البداية أعليمن الطرف الدال علي النهاية.

وهذا الرسم الذي يشبه حدوة الحصان قد التقينا به في تجارب ا.خ.ا وخصوصا في تجارب الكلية «اليت لا تمس فيها مجموعة الكروت حتي ينتهي التسجيل» وقد وجد كثير من الباحثين مثملا وجدنا من نتائج الكلية أي الرسم علي هيئة الحدوة إذاأخذت الدورة ٢٥ محاولة، ولقد

وجدنا بعد ذلك أننا لو قسمنا الدورة إلي خمس أقسام أي خمس محاولات لوجدنا في الخمس محاولات خمس حدوات للخمس محاولات في كل دورة، في حين أن الدورة بكاملها تكون حدوة كبيرة.

ولكن من سجلات ط.ن.م لم نجد في تحليلنا ما يقارب التجارب الكلية في ا.خ.ا ولكنا وجدنا بعض السلاسل التي قام وسط واحد فيها بعدة مئات من الدورات حتي أصبح ملماً بطريقة إجراء التجربة بشكل يجعلها في صورة عادة عنده ومثل هذا الوسط يبدأ بصفة عامة بمستوي مرتفع ثم ينخفض في الوسط ثم ينتهي بارتفاع معقول في المحاولات الأخيرة.

فهناك كما قلت اتجاه عام لأن يرتفع المستوي في النصف الأول من التجارب عنه في النصف الأخير، وهذا الانخفاض في مستوي الإصابات وجد كثير من سلاسل ا.خا ولكنه ظاهرة مميزة في ط.ن.م.

وأثر الترتيب كان موضع دراسات مستفيضة أخيراً وسيمضي وقت طويل حتي يمكن أن نحلل كل البيانات لنري المدى الواسع الذي تتماشي في سجلات ط.ن.م ، أ.خ.ا ولكن ما هو معروف يكفي للقول بأن النتائج في القدرتين تسير حسب وضع قانوني خاص، ومما يسترعي النظر أن يكون ذلك كذلك في تجارب عديدة يجريها مجربون مختلفون علي وسطاء مختلفون في ظروف مختلفة، فارتفاع المستوي وهبوطه يسير علي نفس النمط في تجارب النوعين من القدرتين.

وبصفة عامة فإن الرسم الذي يشبه حدوة الحصان مما يؤدي إلي القول بأن نتعامل مع نوعين متشابهين من النشاط، ومما يثير العجب في هذا التشابه أن تجارب القدرتين مختلفتين وإن أحداها تقيس الإدراك والأخري تقيس التأثير الحركى.

وهناك بعض مظاهر خاصة قد تبرز هذا التشابه، فمثلاً هناك نتيجتان غير عاديتين في ا. خ. ا ولكن تكرر حدوثهما في ط. ن. م مما يؤدى بنا إلى القول بأن القدرتين متشابهتين في ناحية أساسية وأنا أشير بهذا أو لا إلى الاتجاه الذى يحدث عند بعض الوسطاء من ترك الهدف والانخفاض بالمستوى عن مستوى الصدفة في أحوال خاصة وثانياً إلى الأثر المسمى بالزحزحة وهى الاتجاه إلى إصابة الهدف الملاصق للهدف الأصلى.

ففي تجارب ا.خ. ا كان تحدث الانحرافات السلبية ذات المغزى كقاعدة تحت ظروف مثبطة بصفة خاصة، ففي إحدى هذه الحالات وضعت الكروت التى يجب تحديدها، في ظروف مغلقة ومعتمة وبدون أى وسيلة للتحقق من مستوى الإصابة إلا بعد فترة طويلة وفي تجارب ط. ن. م كانت تحدث الانحرافات السلبية بواسطة وسطاء يعملون تحت ظروف معاكسة أى مع ظروف معطل كالظلال مثلا الذى يؤدى إلى الإبطاء في الاختبار أو تحت شكوك كبيرة حول حدوث ط. ن. م.

والزحزحة في اختبارات ا. خ. ا أصبحت ظاهرة ثابتة ولو أنها ليست شائعة وهذه النتيجة كانت مثار نقاش تداخل مع البحث الخاص بسبق الإدراك الذى أجراه هويتلى كارنجتون وصول وجولزنى، وهى نتيجة

لا يمكن أن تحدث بنفس الطريقة مع ط. ن. م بسبب الاختلاف في طريقة التجربة ولكن النتائج كانت متقابلة، فكلما أشرت قبل ذلك أنه طلب من الوسيط الذى يلعب على الزهر العالى أن يغير إلى الزهر الواطى فإن الاتجاه يظهر نحو السبعات المحايدة بشكل ملحوظ وقد حدث هذا في عدد من التجارب مما يجعلنا نأخذ النتيجة بثقة، وهنا كانت الزحزحة من الهدف المطلوب إلى مجموعات مجاورة له عقلياً لا مادياً، وكذلك النتائج التى أشارت إليها برات وودبرف على أنها بسبب التأخير في النتائج التى حصلا عليها يمكن أن نعزوها إلى الزحزحة في ط. ن. م فقد اقترحا أنه في حالة إذا ما طلب من الوسيط الذى يلعب على وجه خاص أن يغير هذا الوجه إلى غيره فإنه سيحصل على عدد أكثر من الإصابات على الوجه القديم أكثر من الوجه الجديد فإن فعل ذلك فربما كان هذا راجعاً إلى التأخر عند الهدف الأول.

وهناك ظاهرة مشتركة في زحزحة الهدف في ا. خ. ا و ط. ن. م تسترعى الانتباه بمجرد أن يحاول الإنسان الحصول على مميزات القدرتين ففي كتا ا. خ. ا و ط. ن. م اتجاه في بعض الأحوال لا إلى تفادى الهدف فقط بل إلى الثبات على هدف يقرب من الهدف الأصلى في بعض الوجوه.

وظاهرة التقلب وعدم الاستقرار والسلوك الذى لا يستطيع أحد التكهن به من عوامل التشابه بين القدرتين ط. ن. م وا.خ. ا التى لحظها

كل مجرب منأول نظرة، وهذه المميزات تنطبق على هاتين القدرتين أكثر مما تنطبق على أى نشاط عقلى آخر.

وكلما راقبنا العلاقة بين ا.خ. ا و ط. ن. م كلما بدت وثيقة، وفي الحقيقة أن الطريقة المعقولة للنظر إلى ط. ن. م هو أن نتصورها مرتبطة بـ ا. خ. ا فإذا افترضنا أن عقل الوسيط يؤثر بطريقة ما في تدحرج الزهر بالتأثير عليها من نقطة ما في الزمان والمكان لكان ا. خ. ا ضرورياً لحدوث ط. ن. م وهذه نقطة حاسمة في الجدل لدرجة لو أن ط. ن. م اكتشفت قبل أى فكرة عن ا. خ. ا لكان من المحتم افتراض وجود الأخيرة ليمكن فهم الأولى.

والفكرة بسيطة: فالوسيط لكى يؤثر في الزهر فلابد أن يتبعه بعقله بطريقة فيها ذكاء حتى يمكنه أن يحدث فيها ما يؤدى إلى النتيجة، وهذا التأثير من الطبيعى أن يكون في الوقت المناسب والمكان المناسب والفعل العقلى الحادث على الزهر المتدحرج يحدث قبل أن يقف الزهر عن التدحرج وحتى لو حاول الوسيط أن يركز بصره على الزهر المتدحرج، فإن سرعة الدحرجة من الشدة بحيث لا يستطيع البصر أن يحصل على أى إدراك، فالبصر ليس سريعاً بما فيه الكفاية كما أن وقت رد الفعل بطيء جداً وعلى ذلك يمكن إخراج أى أثر للإدراك الحسى من هذه المسألة، وأبعد ما يكون هاذ الأثر في حالة الزهر الذى يتحرك بسرعة في قفص من السلك تقذف به آلة، ولكن لابد من افتراض وجود معلومات في العقل

عن مكان الزهر قبل إحداث التأثير فيه، وهذا لا يتأتى إلا إذا كان الإلمام خارج إدراك الحواس أى ا. خ. ا وهو ضرورى لحودث ط. ن. م.

وهذه الصلة تبدو أيضا في صورة عكسية، ففي تفكيرنا الأول الذى حملنا في تأويل سببه الجلاء البصرى حتى وصلنا إلى ط. ن. م كان التفسير لظاهرة ا.خ. ا يفترض أن حدثا ماديا كان لابد من حدوثه على الشيء المدرك أو عليجهاز مادى حين يتم إدراك هذا الشيء والآن يبدو من تجارب ط. ن. م أن هناك حدثاً نفسياً – مادياً دقيقاً يمكن، وفي بعض الأحيان يحدث في برهة ونقطة ما في الزهر المتدحرج، وعلى ذلك فإن اختبارات ط. ن. م تسند وتدعم التعليل الذى ابتدأناه في ناحية ا.خ. ا من هذه العلاقة، وعلى ذلك يمكن القول إن ا. خ. ا و ط. ن. م كل واحدة منها تمثل حدثا يدخل فيه الإدراك والحركة.

ط. ن. م تدل على ا.خ. ا على ط. ن. م وأن الدورة المنطقية تعززها تجارب عديدة وطويلة ومستقلة عن بعضها في نفس الوقت والتى اجتمعت لكل من الظاهرتين تدخل الصورة الحالية للعلاقة بين ط. ن. م وا.خ. ا في إطار من الوحدة المتكاملة، فكل ظاهرة تنبع من الأخرى وتؤدى إليها وكل منها تمتد بالدليل الذى يدعم الأخرى من الأبحاث القائمة عليها.

وقد اتخذت الأبحاث من ا. خ.ا إلى ط. ن. م وبالعكس دورة كاملة وأصبحت ا.خ. ا و ط. ن. م تكون نوعا من الوحدة، وربما كانتا مظهرين مختلفين لتفاعل أساسى واحد هو عملية ا.خ ا و ط. ن. م وفي ضوء ما

لدينا من معلومات وللسهولة يمكن أن نعتبر الظاهرتين كطرفين لتفاعل منعكس، نفسى، مادى، واحد، الطرف الأول منه إدراكى والطرف الثانى حركى.

ومن الطبيعى أن كل اختبار أخرج إحدى هاتين الظاهرتين كان له فضل إبراز مظهر واحد فقط هو المظهر الذى يقيسه هذا الاختبار، وعلينا أن نتوقع أن يختفي أحد طرفي التفاعل حين يظهر الآخر.

وبذلك نكون قد وصلنا إلى الخطوة السابعة في طريقنا نحو الهدف الرئيسى وأصبحنا ننظر إلى ا.خ. ا و ط. ن. م وقد توثقت بينهما الصلة وتوحد بينهما المنطق والتجربة على أنهما وإن كلاهما تفاعل بين العقل والمادة إلا أنهما نشاط واحد في أساسه متشعب إلى طرفين، وإن هذا التفاعل إن آتى إلى ذهننا بإدراك خارج عن طريق الحواس أسميناه ا.خ. ا وإن هذا التفاعل حين يحدث أثره الحركى، بدون تدخل أجسادنا، في البيئة المحيطة بنا نسميه ط. ن. م.

وإن من شأن توحيد وتنسيق وتركيب معلوماتنا الجديدة عن العقل أن يقوى تلك المعلومات ويدعمها، فقد وجدنا في البداية أن الجلاء البصرى والتلباثى «انتقال الأفكار« عبارة عن نشاط واحد هو ا.خ.ا وأن هذا النشاط العقلى لا يحده زمان ولا مكان وبذلك أصبح يشمل سبق الإدراك «أى قراءة المستقبل» والآن نرى من الروابط المتبادلة والصلات بين ا.خ ا و ط. ن. م ما يحيلهما إلى نشاط أساسى واحد يعمل تحت مظهرين مختلفين وبذلك نكون إذن على استعداد أفضل لأن نخوض في

بحث الصلة بنشاط ا.خ.ا و ط. ن. م وما تجمع من الحقائق حول الإنسان وعالمه.

وأخيرا اقترح عالمان بريطانيان هما الدكتوران ثوليس وديزنر أن نطلق على ذلك النشاط الباراسيكولوجى «ما وراء علم النفس» الذى يشمل ا.خ. ا و ط. ن. م الحرف الأغريقى «بسى» وهو اختصار قد يستعمل كبديل للكلمة الشائعة «روحى أو نفسى» «سيكك» أو للكلمة العميقة «باراسيكك» أى «ما وراء النفس» وعلى ذلك فمن الآن فصاعدا حتى نستعمل كلمة «بسى» فإننا نعنى نشاط «بسى» أو ظاهرة «بسى» أو ما يشمل ا.خ. ا و ط. ن. م مجتمعين.

والسؤال الثانى الذى يواجهنا هو أين تحل «بسى» في النظام الروحى العام للإنسان، فنحن نعلم الآن أنها جزء من العقل الإنسانى ثبت بالبرهان الدامغ، ولكن أى جزء هذا؟ وأين مكانه في نظام الشخصية؟ وفي أى مكان يمكن أن يضع علم النفس ظاهرة «بسى» هذه بين ما تجمع لديه من معلومات عن طبيعة الإنسان.

الفصل التاسع

هل القدرات «بسى» عادية مألوفة؟

كان اهتمامنا حتى هذه النقطة مركزاً على ا.خ. ا، ط. ن. م ولكن هذه القدرات لم تكن هدفنا الرئيسى بل كان هدفنا الرئيسى هو الإنسان الذى نريد أن نفهمه،

وأن نفهم هل هذه القدرات الغربية التى درسناها هى قدرات عادية للعقل الإنسان العادى الذى يتمثل في جميع البشر أم أنها ظواهر غير طبيعية وغير مألوفة تحمل طابع النزوة ولا توجد إلا في أفراد نادرين؟ ومن المؤكد أننا إذا كنا لا نتعامل إلا مع شظايا غير مألوفة من الشخصية فلا يمكن أن نستخرج من مكتشفاتنا قوانين عامة تنطبق على جميع البشر.

والمشكلة الآن تدور حول ما إذا كانت القدرات «بسى» قدرات عادية مألوفة هل ا.خ. ا، ط. ن. م ظواهر عادية مألوفة؟ هذا بخلاف السؤال عما إذا كانا طبيعتين؟ وفي سباق الأزمان كان حدوث أى شيء من هذا القبيل عوامل طبيعية، وهذه التفرقة لا تعنيينا هنا.

ولكن بدخول كلمة مألوف وعادى في التعابير العلمية اعتبرت ا.خ. ا، ط. ن. م غير عادية وخارقة وخارجة عن مألوف البشر وما شابه هذه التعبيرات، وكان الغرض من هذه التعبيرات الدالة على أن هذه القدرات ليست من طابع الشخصية الإنسانية في ظروفها السائدة ولكنها شاذة

جدا، كما أن وضعها بهذه الأوصاف غير المألوفة معا يضفي على هذه القدرات صورة الأحداث التى لا يمكن تفسيرها بالمباديء العلمية السائدة.

والباراسيكولوجى أو علم ما وراء النفس يمكن تعريفه بالجملتين السابقتين فهو فرع من علم النفس الذى سيختص بالظواهر العقلية والمسلكية التى يبدو أنها تحتاج لتفسيرها لمباديء وقوانين غير تلك المعترف بها حالياً، وهذا التعريف يدل بوضوح على أن الباراسيكولوجى هى جهة طلائعية لعلم النفس – سيكولوجى وهى منه القسم المواجه للمزاعم الصائبة والمشاكل الخارجة التى تثيرها طبيعة الشخصية الإنسانية وقواها وبمجرد أن تصل أى مشكلة من مشاكل الباراسيكولوجى «أى ما وراء علم النفسى» إلى مرحلة الفهم والاعتراف تسقط عنها كلمة «ما وراء بارا» فالمسمرية «الاسم القديم للتنويم المغناطيسى» تعطينا مثلاً ممتازاً، فقد كانت من أهم المشاكل بالنسبة لجمعية الروحية في عام ١٧٨٢ حين تجاهلها علم النفس، وفي ١٩٣٠ حين بدأ معمل الباراسيكولوجى عمله في جامعة ديوك كان التنويم المغناطيسى قد تخرج من الباراسيكولوجى وعلى ذلك لم يعتبر دخلاً في مشاريع الأبحاث المزعمة لهذا المعمل.

والمرحلة التى وصلت إليها ط. ن. م، ا.خ.ا في طريق الفهم العام مهمة بالنسبة للمناقشة التى ستبحث ذلك، فنحن لا نستطيع أن نطبق مكتشفاتنا على الطبيعة أو الفطرة الإجمالية للإنسان حتى نتأكد أن «بسى» هى قدرة معترف بها في الناس العاديين وأنها تتسق مع ما نعلمه فعلاً عن الشخصية.

ولنستسمح القارئ في الوقوف لحظة في تحديد نقطة من النقط تحديداً واضحاً كخطوة مبدئية، إننا لا نتعامل بأشياء شاذة فكما قلت قبل ذلك في فصول سابقة إننا قد تحققنا منذ سنينا الأولى في البحث من أن التلباثى والجلاء البصرى ليست بقدرات غير عادية أو غير مألوفة بالمعنى الدارج أى أنها لا صلة لها بالأمراض العقلية، ولم توجد أى صلة عامة بينها وبين حالة الاضطراب العقلى في الوسطاء الذين اختيروا وفي السنين الأخيرة أجريت عدة أبحاث تجريبية على هذه المشكلة في مستشفيات الأمراض العقلية في هذه البلاد «أمريكا» وقد أكدت هذه الأحداث الانطباعات الأولى تمام التأكيد، فليس هناك أقل دليل يشم منه أن التلباثى والجلاء البصرى قدرات شاذة خارقة للعادة مخالفة للمألوف.

وهناك ما يمكن أن نسميه «بحالة التلباثى الكاذبة» وهى توجد أحياناً في أولئك الذين يصابون بجنون الاضطهاد فيخيل إليهم أن أحداً يصطدم فهناك بعض من يظنون أن أعدائهم يستعملون التلباثى ليفرضوا عليهم أفكاراً ضارة أو مؤلمة لهم، وهؤلاء البؤساء يعتقدون أن بهم من القدرة على التلباثى لدرجة لا يستطيعون معها لمضطهديهم دفعاً، ولكن البحث لم يثبت حتى ولو في حالة واحدة على أن هؤلاء المرضى لهم قدرات غير عادية على التلباثى فقد أجرى على الأقل بحثان منظمات وعدة اختبارات غير منظمة على أشخاص يشكون من هلوسة التلباثى ولم يوجد في حالة واحدة وسيط له مستوى إصابات عالية ولكن لسود الحظ أن نتائج هذه الاختبارات يندر أن يكون لها أثر في زعزعة عقيدة المريض.

ومن الخطأ أن يفهم أنه لا توجد ا.خ. ا في مستشفيات الأمراض العقلية فقد وجد في البحثين الشاملين في مستشفيات الأمراض العقلية الذين سبقت الإشارة إليهما «في مستشفيات الأمراض العقلية» ما يدل على وجود ا.خ. ا ولو أن حالات الهلوسة بالتلباثى لم تكن في قمة قائمة الأجوبة الناجحة، على حين كان المرضى باضطراب المزاج أحسن الوسطاء، وأهم اكتشاف طلى في هذه الأبحاث التى أجريت على المرضى بعقولهم أنه كلما كان المرضى متعاوناً مع من يعالجونه كلما ارتفع مستوى إصاباته.

ولقد وجدنا وسيطاً قديراً كانت لديه علة عقلية، فقد كان الوسيط المشهور للدكتور ريس يشكو انهيارا عصبيا– كلمة انهيار عصبى لا يستطيع أحد أن يحددها على وجه الدقة – والذى نعلمه أن هذه السيدة الوسيط كانت امرأة صغيرة السن تشكو من ازدياد إفراز الغدة الدرقية وكان مستوى إجاباتها الناجحة ١٨ نقطة من ٢٥ في ٧٤ دورة قبل زن تصاب بالانهيار، وبعد قضاء العلاج والتى استمرت عدة شهور أجرى معها سلسلة من الاختبارات ولكن مستواها انخفض إليما يقرب من مستوى الصدفة، ولا يمكن إصدار حكم على حالة واحدة من هذا النوع ليفسر الصلة السببية بين الانهيار العصبى ومستوى الإجابات المرتفع أو المنخفض بعد العلاج، وليس هناك دليل حتى الآن بين الصحة العقلية والقدرات اليت نحن بسبيل بحثها.

ويمكن أن نقول كلمة عابرة عن العلاقة بين ا.خ.ا وانخفاض مستوى العقلية فإن ا.خ.ا من الصعب وجوده في منحطى العقلية.

ومما لدينا من بيانات يظهر أنه كلما انخفض ذكاء المرء كلما كان أقل احتمالاً لأن تخرج منه اختبارات ا.خ.ا بنتيجة إيجابية، وقد أجرى بحثان في ملاجيء ضعاف العقول وكذلك النتائج في مستوى الصدفة، على حين أظهرت التجارب مع أشخاص من مستوى آخر في الذكاء في التجربة التى تجربها الدكتورة همفرى على طلبة الجامعة في كلية إيرلهام في انديانا أن هناك تناسب له مغزاه بين مستوى الذكاء ومستوى الإجابات الناجحة في ا.خ. ا وكانت العلاقة إيجابية فكلما ارتفع مستوى إجابة الطالب في اختبار الذكاء كلما ارتفع مستواه في أجوبة ا.خ. ا.

وهناك حالة شاذة تسترعى الاهتمام ويجب إذن ذكرها، وهى حالة صبى يشكو من نقص إفراز الغدة الدرقية وقد أجرى عليه بحثاً عالم النفس الدكتور رالي.م. دريك من كلية ويسليان في جورجيا، وقد انتهى به بحثه إلى القول بأن للصبى قدرة خارقة على ا. خ. ا ولو أنه كان في الذكاء تحت المستوى العادى بكثير، ولكن ظروف تجربة دريك لم تكن محكمة الضبط كتجربة ريس والتى كان فيها الوسيط يبعد أكثر من ربع ميل عن المكان الذى به كروت الاختبار، أما دريك فقد استعان بأم الصبى كمحطة إرسال وكان عليه أن يجعلها معه في نفس الحجرة لأغراض ضبط نظام التجربة وكان الصبى قد أحضر لدريك كحالة متأخرة في القدرة على القراءة وقد اكتشف عرضاً أنه كان يقرأ أحسن بكثير في حضور أمه، وعلى هذا اقترح

اختبار التلباثى والغريب أن الصبى حين عولج من نقص إفراز الغدة الدرقية فقد القدرة على المستوى العالى في الأجوبة الناجحة في اختبارات ا.خ.ا ولكن هنا أيضا ليس من الحكمة التعميم من حالة واحدة من هذا القبيل، ولكن كون البنت التى تشكو من زيادة إفراز الغدة الدرقية والولد الذى يشكو من نقص إفرازها – يفقدان القدرة بمجرد علاجهما الطبى قد يوحى ظاهرياً بوجدو علاقة بين العلاج وفقد القدرة ولكنهما عولجا بمرضين متضادين، وربما كانا سيفقدان القدرة على أى حال، وكثير من الوسطاء الأقوياء قد نزل مستواهم بعد مدة بدون أن تلحظهم العناية الطبية، وبالشك فإن الأغلبية من ذوى المستوى المرتفع لم يكونوا يشكون من أمراض الغدة الدرقية بدرجة ملحوظة.

وإلى هنا يمكن أن نجد ما يبرر إصدار الحكمين التاليين: أولا: أنه لا داعى للاتجاه نحو الأشخاص غير العاديين لنجد فيهم القدرة الممتازة على ا.خ. ا وثانيا: أن هناك أسباباً كثيرة تمنعنا من الاتجاه نحو ضعاف العقلية.

وهناك نقطتان حول مشكلة القدرة العادية وأولاهما هل ا.خ. ا، و ط. ن. م موزعتان بصفة عامة بين الناس أو أنها احتكار لأفراد ممتازين، والسؤال الثانى هو الطريقة التى تكيف بها هذه القدرات نفسها في حياة الفرد العقلية أى هل يرتبطان بالشخصية بما يكفي أن نعتبرهما من المظاهر العادية.

فتوزيع «بسى» بصفة عامة لا نعرفه حتى الآن ولكن نستطيع أن نشير إلى الاتجاه الذى أوضحته الأحاث فقد سبق أن ذكرت أنه حتى قبل

عام ١٩٣٥ استعان المجربون بأفراد حسبما اتفق كوسطاء، وهذا التقاليد نما وترعرع الآن لدجة أن المجربين، ولو أنهم دواماً في البحث عن الملكات الممتازة إلا أنهم على استعداد للترحيب بكل من يعمل معهم برغبة صادقة في تجاربهم.

وليس كل الوسطاء على مستوى واحد من القدرة الكامنة، مما لاشك فيه أنهم لا يستوون في إبرازها، وطبعا هناك صعوبة ما بعدها صعوبة في الحصول على معيار دقيق لقدرة الفرد، فنحن لا نستطيع القول إن هناك شخصاً ما لديه القدرة على ا.خ.ا، ط. ن. م يستطيع أن يبرزهما حين الطلب بطريقة ثابتة موثوق بها، فأحسن الوسطاء قد يرتفع مستواه في فصل وينخفض في فصل آخر وإن لم يختلف المجرب أو ظروف التجربة وليس هناك إلا احتمال مناسب للقول بأن من كان مستواه مرتفع في الماضى يحتمل أن يستمر كذلك.

كما لا يمكننا القول أن هناك من ليست لديهم القدرة على ا.خ.ا أو ط. ن. م فالتجربة الناجحة تعتمد على ظروف التجربة وحتى على المجرب نفسه فبعض المجربين لا يجد وسطاء جيدين في ا.خ.ا البتة وعلى النقيض الآخر وجد برايس ويجرام ما يقرب من ثلث عدد التلاميذ في مدرسة للعميان قادرين على أن يرتفعوا بمستواهم فوق مستوى الصدفة وبعد ذلك وجدت الآنسة برايس في أبحاثها الأخيرة مع الأولاد في ملجأ لليتامى نفس النسبة، وهذه النسبة المذوية هى بالنسبة لعدد الدورات على مستوى خاص من الإصابة، وتعتقد الآنسة برايس أن هذه النسبة يمكن أن

ترتفع لو استطالت سلسلة الاختبارات وطبيعى أن يكون ذلك كذلك وأن نسبة الإجابات الناجحة ظلت على ما هى عليه ولكن لو جاء مجرب آخر واشتغل مع نفس الوسطاء فربما كان مستوى الإجابة لا يزيد عن مستوى الصدفة.

وفي الواقع فإن شيئاً من هذا القبيل قد حدث فقد ابتدأت الآنسة برايس تجاربهما مع مجرب آخر كان يتعاون معها فيقوم كل منهما بسلسلة من الاختبارات على التوازى في الملجأ ومع أن المجرب الآخر استعمل نفس الطريقة إلا أنه فشل في الحصول على وسيط واحد كانت نتائجه ذات مغزى، ولكن حين انضم المجربان إلى بعضهما على أن تقوم الآنسة برايس بإقامة العلاقة الشخصية مع الوسيط وأن يقوم المجرب الآخر على تأمين ظروف التجربة والتسجيل ارتفع مستوى الإجابات الناجحة إلى ما يقرب من المستوى الذى حصلت عليه وحدها ونتيجة لذلك فنحن ببساطة لا تجرؤ على القول بأن مجرد الفشل في الحصول على نتائج إيجابية يمكن أن يدل على شيء ومن المحتمل جدا أن الفشل في الارتفاع بمستوى الأجوبة يرجع إلى نقص في وجود حالة أساسية خاصة في نفس الفرد أو في بيئة الاختبار أثناء أدائه.

وبما أن أدق العوامل أثراً أن تحدث اضطراباً في عمل هذه القدرات فمن الخطر التعميم حول انتشار القدرة الكامنة على ا.خ. ا، ط. ن. م ولكن أغلبية المجربين المحنكين – كما أعتقد – يزداد إيمانهم في أن

الأشخاص وإن اختلفوا في قدرتهم الكامنة فإن أغلب الناس إن لم يكونوا كلهم يملكون هذه القدرات الباراسيكولوجية إلى حد ما.

كما يتوقف النجاح في إظهار هذه القدرات على أهم شيء وهو وجود الحالة الطبية في نفس الوسيط وظروف الاختبار الملائمة والمعينة له.

وأخيراً فهل ا.خ.ا ، ط. ن. م وراء القدرات العادية أو خارج هذه القدرات أو تزيد عليها؟ أو أنها من لوازم الشخصية التى تلازمها عادة؟ وهذا معناه أن نتسائل هل «بسى» معدة لإدخالها في المألوف.

والقوانين التى تسمح بالانضواء في سلك علم النفس العادى – سيكولوجى بسيطة بما فيه الكفاية: فعلى الزعم الجديد أن يبدى أنه يتبع قوانين خاصة أصبحت ذات طابع عادى مألوف، فمثلاً التنويم المغناطيسى حين كان في وقت ما اللغز المسمرى «نسبة إلى مسمر الذى اكتشفه» لم يكن مسوحاً بإدخاله في علم النفس، ولكن التنويم المغناطيسى كحالة خاصة من حالات الاستهواء المعترف بمبادئه يمكن ردخاله وقد أقره الجميع والموضوع هو أن الاستهواء كان ظاهرة معروفة بالفعل في عدة فروع من علم النفس، ولم يكن المطلوب أن يتعرف علماء النفس على الاستهواء، ولو أننا حتى يومنا هذا لا نعلم ما هو– ولكن المطلوب من الظاهرة الجديدة أن تظهرعليها بعض السمات المعروفة المألوفة حتى يمكن قبولها.

فلنبحث الآن عن السمات المعروفة المألوفة في ا.خ.ا، ط. ن. م وما نحتاجه هو إيجاد الملامح والسمات التى تثير الشعور بالتمييز حتى

ليقول القائل «آه. نعم. إن هذا يشبه الذاكرة» أو أن يقول «آه. إن فأراً في مصيدة التعليم يمكن أن يحدث مثل هذا الرسم البيانى؟»، أو أن يقول «أن مثل هذا الشيء قد نبه إليه فرويد منذ أعوام خلت!».

ونحن قد نحسن إظهار خروج ا.خ.ا، ط. ن. م عن المألوف وأين يحدث هذا الخروج، وملاحظاتنا تأتى من تجارب فعلية كنا نحاول فيها أن نضع هذه القدرات بين المألوف ففي بعض الأبحاث التى حاولنا أن نقارن بينها وبين مباديء الإدراك الحسى والسلوك الحركى وجدنا أنها تختلف من الأساس فهى تتعارض مع تلك الوظائف النفسية – الفسيولوجية: وهى تتبع قوانين أخرى تختلف عنها ومن الناحية الأخرى لو حاولنا أن نقيس ا.خ.ا، ط. ن. م بتلك العمليات العقلية التى فيها أقل ما يمن من المظاهر الفسيولوجية لبدئنا في اكتشاف صلات قرابة إيجابية ملحوظة.

وأبعد المقارنة هى بين الإدراك الحسى والإدراك خارج الحواس ا.خ.ا ومعظم الأشكال حول ا.خ. ا يبدو ف ياختلافها عن الإدراك الحسى وعدم قدرتنا على أن نفهم أن يكون هناك إدراك ما لم يكن حسياً وا.خ.ا لا يحده الزمان ولا المكان، ولا تقره الحواس المادية في الشيء المؤثر ولا يتأثر بالزوايا، ولا الحواجز والعلاقات المادية الأخرى وفي كل هذه النواحى فهو يتناقض مع الإدراك الحسى.

وفي حالة ط. ن. م نجد نفس البعد في المقارنة، وأهم ما تحدثه من التضارب هو ما كان مع قوانين علم الطبيعة، الفيزياء – التى تحكم

الاستجابة العصبية العضلية – أما ط. ن. م نفسها فهى مثل ا.خ.ا تنسجم بشكل لطيف مع الطبقات العليا من العقل.

فهناك قوانين عقلية معروفة مألوفة تنطبق على ا.خ.ا و ط. ن. م ولكنها كلها ف مستوى الوظائف العقلية العليا – مثل التفكير والتقدير والخيال وما شابهها – وظائف «بسى» تشبه كثيراً تلك العمليات التى هى أبعد ما تكون عن عمل قرون الاستشعار المادية في الفرد وهى الأعضاء التى تستسلم إلى الإحساس وتستجيب حركياً، ونظرة عاجلة نلقيها على ما يتصل بهذا مما اكتشفناه كفيلة بتوضيح الطريقة التى ينسجم بها ا.خ.ا و ط. ن. م مع الطبقة العليا من الحياة العقلية وبالتالى توضح كيف أنها عمليات عادية مألوفة.

فتأثير العقاقير على ا.خ.ا و ط. ن. م مثل طيب، فتأثير العقاقير المنومة والمنعشة التى تكلمنا عنها في الفصل السابق يشبه ذلك التأثير الذى يحدث للعمليات العقلية العليا، فالجرعات الكبيرة من العقاقير المنومة تهبط بمستوى الإجابات في اختبار ا.خ.ا خصوصاً إلى مستوى الصدفة فعلاً، والعقاقير المنشطة تضاد تأثير العقاقير المنومة كما أنها تقاوم تأثير التعب وبهذا ترفع مستوى الإجابات الناجحة، وهذا التأثير هو نفسه الذى يحدث في عمليات التقديروالحكم وضبط النفس في الشخص.

وهذه العقاقير من الناحية الأخرى لا تحدث هذا الأثر السريع والخطير في قدرة الوظائف الحسية الحركية، وفي الحقيقة لابد أن تكون هذه

العمليات العقلية الدنيا مستمرة في عملها حتى يستطيع الوسيط أن يسهم في الاختبارات.

ولاشك أننا نتعامل مع عمليات دقيقة، وهذه النقطة يجب أن تكون باستمرار أمام أبصارنا إذا أردنا أن نحكم وجه المقارنة، فيجب علينا أن نبحث عن أشباه ا.خ.ا، ط. ن. م بين العمليات التى يصعب التحكم فيها والتى تعتمد على الذاتية والتى تحمل طابع الالتباس والتردد وعدم التحقق وأكثر العمليات العقلية أصالة وفيها القدرة على الإبداع مثل النكتة والتعميم والاختراع وحل المشاكل والفنون الدقيقة المختلفة هى حتماً ما يمكن أن تقارن مع ا.خ. ا، ط. ن. م وكل التقلب والنزوات الموجودة في ا.خ.ا، ط. ن. م نجد لها ما يقابلها في الفنون الدقيقة في عالم المتاحف، ولقد وجدت بعد أن راجعت ملاحظاتى مع كثير من الفنانين في ميادين مختلفة أننى أقرب للقول بأن الظروف المساعدة على ا.خ. ا، ط. ن. م تشبه تلك التى يحتاج إليها الفن في زدق أعماله وأكثرها أصالة وقدرة خلاقة.

وهناك تجارب كثيرة أخرى لها صلة خاصة بذلك الموضوع الخاص بمألوف «بسى» بين القدرات.

فمنذ عدة أعوام مضت طلب الدكتور ستيورات من وسطائه أن يتبعوا توقيت الساعة الدقاقة وهم يجاوبون، وقد حدث تعديل في التوقيت في الدورات المختلفة، ففي بعض الدورات كانت الساعة الدقاقة تضبط على السرعة التى يفضلها الوسيط وفي دورات متعاقبة كانت الساعة

الدقاقة تضبط على سرعة أعلى وسرعة أدنى من تلك السرعة المفضلة، وعندما انتهت سلسلة الاختبارات وجد أن السرعة الوحيدة التى أمكن بها إظهار الأدلة على ا.خ.ا هى تلك التى كان يفضلها الوسيط، فإذا دفع إلى أكثر من هذه السرعة أو عطل عنها بالساعة الدقاقة حديث ما يعوق القدرة على ا.خ.ا وربما كان السبب أن الوسيط كان يشعر بالسرعة، أو أنه كان بطريقة شعورية أو لا شعورية متضايق فتأثرت قدرته على ا.خ.ا كما يتأثر النشاط الفنى بالضغط عليه للإسراع أو الإبطاء.

والجميع يعلمون أهمية الاتجاه النفسى في أى عملية دقيقة مرهقة وباستعراض ما كتب عن الباراسيكولوجى نجد كثيراً من الملاحظات التى تشير إلى أهمية الاتجاه النفسى في الوسطاء الذين يختبرون لإظهار قدرات «بسى» فقد لاحظت السيدة راين «زوجة المؤلف» في تقريرها عن اختبارات ا.خ.ا على الأطفال أن أحسن الظروف لنجاحهم كانت عندما يشعرون بأقصى قدر من الحرية في جو صاخب من المرح والضحك وبعد ذلك قامت الآنسة برايس بعدة تجارب كانت فيها ظروف التجربة كفيلة بإثارة عدة اتجاهات نفسية، أولها: حين يكون الطفل وحده مع المجرب، وثانيها: حين يكون طفلان يختبران مع بعضهما ولا يدرى أحدهما شيئاً عن نتائج الآخر: وثالثها حين يقارن الطفلان نتائجهما بطريقة حبية، فكان أعلى مستوى للأجوبة الناجحة في حالة المنافسة، فقد كانت في الواقع ذات مغزى، ويأتى بعد ذلك حين يعمل الوسيط منفرداً واحط المستويات كان عندما يعملان ولا يدريان نتائج بعضهما وكما هو متوقع فإن هذه الحالة مما يثير الضجر لدى الطفل، فحبهما الطبيعى للاستطلاع والذى

يدعوهما لمعرفة نتائج كل واحد منهما لم يشبع، كما أن عدم حريتهما في الكلام عن نتائج ربما كان سبب خيبتهما.

وقد تكلمت قبل ذلك عن تجارب الآنسة برايس مع المرضى بعقولهم، وهى تدل علي أثر الاتجاه النفسى المختلف، فكان أبرز ما وجدته أن المرضى المتعاونين مع هيئةالتمريض هم أعلى المستويات في الإجابة وتقدير درجة التعاون لم تكن على أساس المساهمة في الاختبار وإنما كانت على أساس تقدير هيئة التمريض، لذلك التعاون فكان مستوى المتعاونين أكثر من الضعف في عدد النقط التى فوق مستوى الصدفة عن أولئك المرضى التأثريين، كما أن أولئك المنعزلين كانوا وسطاً بين الاثنين.

وقد شرحت الآنسة برايس تجربة أخرى أجرتها على الاتجاه النفسى، وقد كان ذلك في البحث الذى حصلت فيه على نتائج عالية في اختبارات ا.خ. ا في نفس الظروف التى حصل فيها مجرب آخر على مستوى الصدفة، وأهم ما في الموضوع في هذه التجربة هو وجه المقارنة بين طريقة الآنسة برايس المشبعة بالصداقة وعدم التكلف وتدعيم الصلة مع الوسطاء بتلك الطريقة الجافة المتكلفة التى يشيع فيها روح العمل فقط.

والطريقة التى تتبعها الآنسة برايس أنها لا تبدأ اختبار الوسيط حتى تشعر أنها قد أزالت جميع عناصر التحرج الموجودة وغرست في نفس الوسيط الشعور بالراحة وأثارت اهتمامه بما يمكن أن يحصل عليه من نتائج في هذه الاختبارات، وهذه المقدمة يمكن أن نوصى بها في أى اختبار نفسى وخصوصاً إذا كنا نتعامل مع أطفال، وهذا ما كانت تفعله الآنسة برايس.

وهناك تجربة أخرى على الاتجاه أجرتها الآنسة برايس على اختبار ط. ن. م وهذه التجربة أشرت إليها حين وصفت كيف كانت هى تحاول أن تزعج وودرف وأن تزلزل ثقته حين كان يحاول أن يؤثر في الزهر المتدحرج من القفص السلك الدائر، وأهم ما اكتشفنا أنه على حين كان مستوى وودرف مرتفع المغزى حين كان اتجاهه النفسى بدون تفكير، فإن تشتيت ذهنه بملاحظات الآنسة برايس المازحة كان كفيل بأن يخفض مستواه تحت مستوى الصدفة.

وهذا التأثير الذى للاتجاه النفسى على ا.خ. ا، ط. ن. م لا يثير أية دهشة، ففي كل حالة كانت النتيجة هى ما يجب أن نتوقعه إذا كانت القدرات العقلية العليا هى التى تعمل، والأربع تجارب تظهر بجلاء القرابة التى بين ا.خ.ا، ط. ن. م وبين القدرات العقلية العليا المعروفة، فمجرد أن ترتفع عن مستوى الوظائف الحسية الحركية تختفي الغرابة عن سحنة القدرات «بسى».

وقانون السلوك المعروف الذى يقول «بأن من يؤمن بقدرته يستطيع أن يفعل» ينعكس أيضاً على أعمال ا.خ.ا وربما لا نجد بحثاً في الباراسيكولوجى يدل بصفة قاطعة على أهمية الاتجاه النفسى من البحث الذى أجرته الدكتورة جرترود شميدلر وهى من علماء النفس في كلية مدينة نيويورك بدراستها المسماة «الشاه والعنز» فالشاه هم أولئك الوسطاء الذين قبل أن يبدأوا الاختبار ا.خ.ا فهم يعترفون على الأقل باحتمال حدوث ا.خ.ا، أما العنز فهم أولئك الوسطاء الذين ينظرون إلى استحالة

حدوثها بصفة قاطعة، وفي ثماني تجارب منفصلة وكل منها تشمل سلسلة طويلة من الاختبارات استطاع «الشياه» أن يحرزوا مستوى أعلى من «العنز» وفي الغالب كان ينخفض مستوى الأخيرة إلى ما تحت مستوى الصدفة، وهكذا يظهر الانحراف عن مستوى الصدفة في مستويات «الشياه» أى الذين يؤمنون «والعنز» أى الذين يتشككون.

وقد سبق وصف تأثير التنويم المغناطيسى على ا.خ.ا، ط. ن. م ولو أن المجال مازال خالياً من المعلومات المؤدية إلى أحسن الطرق للاستفادة من التنويم في هذه القدرات إلا أنه لاشك أن الاستهواء بالتنويم يمكن أن يؤثر في نتائج الاختبارات ربما لأنه من المعروف أن التنويم – كما هو معروف جيدا – يمكن أن يؤثر في كثير من العمليات العملية المألوفة لذلك كانت التجارب الداخل فيها التنويم بما تساعد على إظهار الصلات بين ا.خ.ا، ط. ن. م وما هو مألوف معروف.

ونحن نتوقع أن الملل والخيبة تؤثر في القدرات العقلية العليا تأثيراً ضاراً، وكذلك فإن هذه الحالات العقلية لا تساعد قدرات «بسى» وقد وجد وودرف وهو يعمل تحت رئاسة الدكتور مورفي في كلية مدينة نيويورك أن اختباره لوسطاء قد حشروا في غرفة الضغط الصغيرة في معامل أبحاث الطيران كان من نتيجته ليس فقط اكتشافه لما يعانيه هؤلاء من ملل بل إن مستوى الإجابات قد هبط تحت مستوى الصدفة وقد كان هذا الهبوط بشكل ثابت مما يجعل له مغزى، وقد أشرت قبل ذلك إلى اختباراتنا في جامعة يوك التى وضعت فيها الكروت في غلاف معتم، فلو كان الوسطاء

قد علموا أنه سيمضى وقت طويل قبل ظهور النتائج كما هو الحال عندما كنا ننتظر البريد لكى نرسل النتائج لهبط مستواهم تحت الصدفة لدرجة ذات مغزى، فمثل هذا الاختبار كفيل بأن يصدم الوسيط المحترق لمعرفة نتائجه وكيف يسير، فقد كان في استطاعة أولئك الذين يتمكنون من معرفة النتائج في خمس دقائق أن يرتفعوا بمستواهم بشكل موثوق فوق مستوى الصدفة، ومن هذا نستنتج أن الملل والخيبة قد يؤديان إلى انخفاض ا.خ.ا وهذا التفاعل معروف لعلماء النفس كما هو معلوم للأفراد العاديين، ونحن نتوقع أن يكون الأمر سلبياً شائعاً تحت ظروف الخيبة.

والجدة والمكافئات لابد أن نتوقع منهما أن يرفعا مستوى الإجابات في ا.خ.ا، ط. ن. م وهذا ما حدث بالضبط، وقد قام برات وودرف بمقارنة عدة أحجام من الرموز المرسومة على الكروت واختباراتهم لـ ا.خ.ا وعندما حللا النتائج وجدا أن الحجم العادى لم يكن بذى أهمية وأنه في كل مرة أدخلا حجماً جديداً ارتفع المستوى لمدة ثم رجع إلى الهبوط ثانية، فمجرد الجدة كانت عاملاً له أهميته في تجارب طال استمرارها وتكررت على وتيرة واحدة وخصوصاً في طريقة للاختبار بعينها، فكان أى تغيير مهما كان صغيراً يقابل بالترحيب كما كان له أثر في زيادة الحيوية في الوسيط والمجرب على السواء.

وكذلك الجوائز لها نفس الأهمية في المستوى، فحينما أدخل وودرف وجروح حين كانا يقومان بالبحث في تاركيو، جوائز تافهة القدر لمن يحرز أعلى مستوى – وكانت الجائزة تذكرة سينما – لاحظا أن المستوى ارتفع

على الفور، يبدو أن منح الجوائز قد أحاط جو التربة باهتمام متزايد ولنفترض أن سببه التنافس لأنه رغم إسقاط الجوائز في أسابيع متعابة فإن المستوى لم يتأثر.

وقد وجدنا نفس الأثر للمكافئات هنا في جامعة ديوك فحينما أدخلنا نظام الجوائز ارتفع المستوى في الدورة رغم أن نصفها قد حذفت منه الجوائز، وقد كان المستوى في الفترات التى أسقطت فيها الجائزة أعلى بكثير من مستوى التجارب التى لم يكن فيها جوائز على الإطلاق، مما يبدو منه أن تأثير الترفيه باحتمال وجود شيء يمكن كسبه كان من شأنه أن يؤدى إلى النجاح.

وبعض الناس يستجيبون بطريقة مواتية للتحدى على طريقة اللعب وهذه الحقيقة صحيحة بشكل واضح في اختبارات الباراسيكولجى كما هى كذلك في مواقف عديدة مألوفة ففي مناسبة خاصة كان أحد زملائى في علم النفس يساهم في اختبارات ط. ن. م مع وودرف كمجرب، مستعملاً زهرين يقذف بهما قفص سلكى يحركه موتور، وكان الهدف سبعات، واثنى عشر هو الحد الأعلى لنقط الإصابة في الدورة. وكان الوسيط يسير في الاختبارات بنجاح معتدل إذ كان متوسطه أقل من ٣ نقط ومستوى الصدفة نقطتان، وقبل إحدى الدورات مباشرة أعلن وودرف ضاحكاً أنه سيقدم زجاجة من البيرة كجائزة أن ارتفع المستوى إلى ١٠« وهذا النوع من الجوائز لم يكن شائعاً في تجاربنا المعملية»، وقد قبل التحدى بنفس الروح الطيبة وكانت النتيجة أن الدورات أتت بتسع نقط وهو المستوى

الوحيد من هذا القدر الذى أمكن الحصول عليه في اختبارات السبعات وأن الحصول على تسع نقط أو ما فوقها لا يمكن أن تجود به الصدفة إلا مرة في المليون من أمثال هذه الدورات.

وفي كتابي «جبهات جديدة للعقل» تحدثت عن مستوى إصابات بيرس الذى وصل حد الكمال فكان ٢٥ في مجموعة من كروت ا.خ.ا وكان التحدى في هذه المرة هو المراهنة على أن الكرت التالى لن يكون إجابته فيه صحيحة، وكان من الواضح والدورة تأخذ مجراها أن بيرس قد ارتفع حماسه جداً، وكان الرهان ببساطة عبارة عن طريقة سهلة مريحة لتدفعه لأن يفنى نفسه في الاختبار تحت دوافعه الذاتية، وقد نجحت هذه الطريقة كالسحر في بعض المناسبات في اختبارات ا.ج.ا، ط. ن. م ولكن كان من الطبيعى أنه لابد من حوافز ذاتية قوية وحين تصبح هذه الطريقة معادة مرجاة فإنها تفشل.

وهناك حالة أخرى شبيهة وهى حالة ليليان، وكانت ليليان في سن التاسعة وهى واحدة من مجموعة من الأطفال المقيمين في ملجأ رايت بدير هام وقد اختبرتها الآنسة بجرام لمعرفة قدرتها على ا.خ.ا وكانت المجربة قد وعدت بجائزة قدرها خمسون سنة إذا ارتفع عدد النقط إلى ٢٥ ولم تكن في الواقع تعنى ما نقول أى أنها ستضطر إلى دفع هذه الجائزة، كما أن جوائز أقل من الحلوى كانت ستكون من نصيب المستويات الأدنى من ذلك، ولكن ليليان – وكانت طفلة جادة –آلت على نفسها وعزمت على أن تحصل على إجابة صحيحة كاملة وتربح النصف دولار، وقد فكرت الطفلة

طويلا في هذا لدرجة أنها كتبت عن عزمها هذا في خطاب أرسلته إلى الآنسة بجرام بعد فصل من فصول التجربة، وكان الفصل الثانى بعد أيام قلائل من الفصل الأول وحينما جاء دورها قالت «لا تقولى شيئاً ثم أدارت ظهرها للممتحنة وظلت لحظة مقفلة العينين وحينما استدارت وسارت في الاختبارت ظلت شفتاها تتحركان كما لو كانت تقول لنفسها شيئاً وحينما سئلت ماذا تقول أجابت «لقد كنت أرغب طول الوقت في الحصول على ٢٥ نقطة»، وقد فعلت، وفي هذا ما يدل بمنتهى الوضوح على أنه في حالة ليليان نجد اتجاها نفسيا قد تكون إلى أعلى درجة وتركز في الحصول على الجائزة، وفي التجارب التى تلت ذلك حصلت ليليان على مستوى أعلى بقليل من مستوى الصدفة، ولو أن ظروف الاختبار كانت هى بعينها بالضبط.

وهناك أمثلة كثيرة مشابهة، مثل حالة الطالب الذى كان بجامعة جورجيا ثم تدرج بعد ذلك إلى مساعد أبحاث معامل جامعة ديوك واسمه ويليام رسل وقد ورد في تقرير منه عن صبى السادسة عشرة من عمره استطاع الحصول على نجاح كامل بالاستعانة بالتحدى على طريقة اللعب ومثل هذه النتائج كما أقول وأكرر أنها تتسق وما نسميه المألوف.. وفيها جميعها ظاهرة مشتركة وهى أنها تتفق وما نتوقعه منها، وهذا لا يعنى أننا نفهمها، فهذه العمليات التى نقوم بمقارنة هذه المقدرات الخاصة بها هى نفسها مليئة بالأسرار، ولكن ماذا نفعل والقاعدة التى يصير عليها المحافظون ليست هى الفهم بل التشابه مع ما هو مألوف ومعترف به.

وأوجه الشبه بين قدرات «بسى» والمألوف تتراكم فوق بعضها وأبلغ هذا الوجوه ف الشبه هو كونها بارزة ناتئة، ونعنى بهذا البروز الاتجاه نحو الصعود الكبير الذى يحدث في أحد نهايتى مجموعة من المحاولات التالية، فقد كان مستوى النجاح أعلى في التجارب الوسطى وحينما رسمنا رسماً بيانياً لنتائج التجارب كان هذا الرسم كحدوة الحصان طرفاه مرتفعان.

ومثل هذا الرسم البيان يظهر في عمليات إدراك مأرفة، فخذ مثلاً العملية التى يمكن التشبيه بها وهى عملية تكرار المقاطع التى لا معنى لها.

فإذا طلبت من الوسطاء أن يحفظوا عن ظهر قلب خمسة وعشرين مقطعاً تعرض عليها بترتيب منتظم، لوجدنا أن أعلى نجاح يصيبوه هو في البداية وفي النهاية، وأن الرسم البيانى للنتائج يشبه حدوة الحصان، حتى في التجربة التى نضع فيها الفأر المنحط عقلياً في مصيدة التعليم ليتعلم اجتياز الطرق الصحيحة بها نجد أنه أسرع في التعليم في التجارب الأولى والأخيرة منه في التجارب الوسطى.

وهناك الكثير الذى يمكن قوله حول ظاهرة البروز، فإن نهايتى أى صف أو سلسلة يكون لها بصفة عامة صفة البروز في حياتنا العادية، فالطفل حين يحفظ قصيدة من الشعر يتذكر الأبيات الأولى والأخيرة أسهل بكثير من الوسطى أو الرجل الذى يقوم بجمع عمود من الأرقام أو يقوم بعمل متكرر في سلسلة فأحسن عمله في الجزء الأول ويلى ذلك في الإجابة ما يؤدى في الشق الأخير، وعلى هذا تسير القاعدة وتبدو ظاهرة البروز مألوفة في حياتنا العقلية، وفي علم النفس المتحفظ نجدها مألوفة

لدرجة أنه قد أطلق عليها أسماء ثابتة مثل «آثار البداية والنهاية» و«درجة الميل» وكلها من التعاريف المتداولة.

ولكن هناك أيضا الأبحاث التى تحاول جهدها لإهار أن القدرات «بسى» عادية مألوفة وهذه الدراسات مازالت حديثة العهد جديدة ولا يعرف عنها إلا القليل خارج المعمل، وأن هناك في الوقت الحاضر عدد من الباحثين يقومون بجد دائب وأبرز هؤلاء الباحثين الدكاترة شميدلر وستيورات وهمفرى، والهدف العام لهذه الأبحاث هو اكتشاف حالات الشخصية ومميزاتها التى تؤثر في القدرات «بسى» وطريقة معالجة المشكلة هى استعمال أساليب علم النفس الإكلينيكى لاكتشاف الخواص العقلية سواء كانت عارضة أو ثابتة والتى تتصل بنشاط ا.خ.ا ومن الواضح أنه كلما زاد اكتشاف الصلات من هذا القبيل كلما وضح أن القدرات بسى تتكامل مع حياة الفرد العقلية المألوفة.

وأول خطوة كبيرة في هذه الناحية اتخذتها الدكتورة همفرى حينما اكتشفت أنها تستطيع أن تميز بين أولئك الوسطاء الذين يستطيعون أن يحصلوا على مستوى عالى في اختبارات ا.خ. ا ومن أولئك الذين يحصلون على مستوى منخفض وذلك بفحص رسوم اختبارية رسمها هؤلاء الوسطاء، وكانت تقوم بترتيب هذه الرسوم حسب نظام وضعته الدكتورة همفرى برسوم حصل علهيا الدكتور ستيورات كأجوبة في اختبارات .ا.خ.ا وقد رتبت هذه الرسوم حسب خصائصها من المط والتقصير، فالأشخاص الذين مططوا في الرسوم كثيراً كان مستواهم أعلى في اختبارات الجلاء

البصرى عن أولئك الأشخاص الذين ضغطوها وكان الفرق بين المجموعتين ذا مغزى، ولكن في التجارب المزدوجة للجلاء البصرى والتلباثى كان الترتيب عكسياً فمع أن الوسطاء كانوا يظنون أن الاختبارات هى لقياس التلباثى إلا أن مستوى الضاغطين كان أعلى من مستوى الماطين، وقد رتبت هذه الرسوم حسب درجة النجاح في ا.خ. ا بطريقة نظمها الدكتور ستيورات وأطلق عليها «المقارنة بالتفضيل« وهى طريقة مأمونة كطريقة مراجعة اختبارات الكروت إلا أنها أكثر تعقيدًا بدرجة لا تسمح بوصفها هنا.

والاكتشافات التى تحققت من هذا المشروع كثيرة جداً لدرجة لا يمكن حصرها هنا وأهم نقطة هى أن النجاح في ا.خ.ا له علاقة لها مغزاها بطريقة الرسم التى يستعملها الوسيط في ذلك الوقت وأن طابع الرسم– تبعا لما يقوله عالم النفس الإكلينيكى – يمكن أن يستخدم للدلالة على اتجاه خاص للشخصية، ويكاد يكون من المحقق أن هذا البحث سيوسع من أفق معلوماتنا عن دخل «بسى» في الكيان الإنسانى.

ومنذ عدة سنوات مضت حينما كان الدكتور ستيورات في جامعة ستانفورد قام بإجراء اختبار في الجلاء البصرى على رسوم موجودة في ظروف خطابات معتمة، ولكن ستيورات أعطى لمجموعة من الوسطاء اختبارًا للاهتمام وذلك بسؤالهم أن يؤشروا على قائمة مكونة من ستين موضوعاً من التى تثير اهتمام الشخص العادى وذلك بوضع علامات أمام ما يحبون ما يكرهون منها وقد رأى أن الزذواق تختلف تماماً بين المستوى

العالى معتمداً على اختبار الاهتمام السابق للتنبؤ مقدماً بذوى المستوى العالى والمستوى الواطى في اختبارات ا.خ. ا الجديدة التى تجرى هنا في جامعة ديوك، وقد جربنا ذلك في اثنى عشر سلسلة وكانت النتائج ذات مغزى ومتسقة مع بعضها في نفس الوقت، فإن المجاميع التى تنبأ لها بأنها ستكون ذات مستوى عالى أو واطى تختلف عن بعضها إلى درجة لاشك أنه لا دخل للحظ أو الصدفة فيها.

وأهم الطرق الإكلينيكية المستعملة في علم النفس حاليا هى طريقة «البحث» وهى تستغل استجابة الوسيط اللفظية لما يراه في سلسلة من بقع الحبر التى تعرض عليه واحدة واحدة على كروت ذات معيار ثابت، وهى تسمح له بعدة استجابات حرة لعدة مؤثرات عيارية وباستعمال هذه الطريقة التى يمكن بها تقدير المميزات الخاصة بالشخصية أمكن للدكتور شميدلر أن تصنف وسطائها في ا.خ. ا الذين تم اختبارهم بالطريقة الكلية «في الجلاء البصرى» إلى أربعة تراكيب من ميزتين، وكان التكيبان الحادثان من طريقة البحث هما المزموم ضد اللامزموم، والمنبيء الجيد ضد المنبيء الردىء»، قد وجدت أن أولئك الوسطاء الجيدى التنبؤ والغير مزمومين هم أولئك الذين برزوا بمستوياتهم الناجحة في اختبارات ا.خ.ا.

وفي هذه المجموعة استطاعت «الشياه» الذين يحبون ا.خ. ا أن يحصلوا علي مستوى مرتفع كثيراً عن «العنز» الذين تشككوا في حدوث الظاهرة والذين انخفض مستواهم جداً عن المجاميع الثلاثة الأخرى من الوسطاء، وكان الفرق ذا مغزى، وهناك أشياء أخرى تثير الاهتمام في هذا

البحث الذى يمكن تتبعه لمن يريد في التقرير الأصلى الذى نشر في مجلة الجمعية الأمريكية للمباحث الروحية.

أما ما استطاعت هذه الأبحاث أن تخرجه والتقدم الباهر الذى أحرزته جبهة ستيورات شميدلر همفرى النشطة فيمكن للقارىء أن يرجع فيها إلى التقايرر الأصلية، إلى المستقبل الزاهر الذى ينتظر هذا القطاع من البحث «بعد كتابة هذه السطور أصابت هذه الجبهة خسارة لا تعوض بفقد الدكتور ستيورات الذى توفي في ٢٣ مارس سنة ١٩٤٧ في سن التاسعة والثلاثين، وقد كان الدكتور ستيورات عضوا في هيئة الأبحاث في معامل جامعة ديوك للباراسيكولوجى منذ البداية، كما كان عضوا مؤسسا في مجلة الباراسيكولوجى في عام ١٩٣٧ ولقد كان مشغولا في وقت وفاته المبكرة فيما بدو أنه أحسن الأبحاث التى ساهم فيها.

وعلى ذلك فلا داعى لوصف ا.خ.ا، ط. ن. م بتلك النعوت والأوصاف مثل خارج عن المألوف وغير عادى وما شاكلها لأنها كلها عادية مألوفة حسب جميع المقاييس عدا المادية منها، وأن دراستها لم تعد في حاجة لأن يشار إليها بأنها خلاف المعهود بين أولئك العالمين بما جتمع لها من الأدلة والبراهين، ومن المهم جدا أن تتمشى لغتنا مع الحقائق التجريبية لنحن لم نعد نصف التنويم المغناطيسى بأنه ظاهرة باراسيكولوجية «أى ما وراد علم النفس» إن ا. خ. ا، ط. ن. م هى بالضرورة وظائف للعقل مجتمعاً وإن بدا أنها منعزلة عن مظاهر العقل الأخرى فذلك راجع إلى الطبيعة التحليلية لظروف الاختبار التى يجب أن يعمل فيها العقل

ليوضح هذه الظواهر، ولكن العقل الإنسانى بكامله هو الذى يسامهم في ا.خ.ا ، ط. ن. م تماماً كما يفعل في أى عملية عقلية فهذه المظاهر الخاصة «بسى» تمثل الطريقة المناسبة التى يعمل بها العقل تحت الظروف الخاصة باختبارات ا.خ.ا، ط. ن. م تماماً مثل كون الغضب والتعليم أو المذاكرة وظائف عادية تناسب المؤثرات الخاصة التى تثيرها.

وواضح الآن أين يقف ا.خ.ا، ط. ن. م في النظام العقلى، وهى تنسجم مع الوظائف العقلية الخاصة جداً والتى تمتيز عن الوظائف العادية التى تعتمد على العمليات الفسيولوجية الحسية والتى تلائم الكون المادى، وآخر ما وصلت إليه الأبحاث هو أنها أظهرتنا على أن ا.خ.ا، ط. ن. م تتلاقى مع ذلك الجزء الروحى الصرف من العقل لقاء يتسم بالانسجام اذى لا تنفصم عراه، إنها الطبقة العليا من الشخصية التى يبدو سلطانها في الإرادة الذكية التى تأخذ من الحياة وتعطى وميدانها المناسب هو علم النفس – سيكولوجى – وهو ميدان واضح البعد عن ميدان علم وظائف الأعضاء الفسيولوجيا.

فإذا كان التفكير الذى أوردناه في هذا الفصل سيما فسيوصلنا إلى حد بعيد إلى الخطوة الثامنة في طريقنا الصاعد، وإذا كانت القدرات «بسى» تتخطى الزمان أو المكان بقدر ضئيل أو في القليل النادر فهى تبدى خواصاً أساسية للعقل البشرى بكامله وهذه القدرة على التفاعل مع العالم العادى من خلال ا.خ.ا، ط. ن. م هى حصيلة مجتمعة وليست حالة عقلية عارضة تتسم بطابع العزلة والتفرد، وليست الطاقة الروحية التى لابد

من استنتاج وجودها لتفسير نتائج أبحاث ا.خ.ا، ط. ن. م هى اختصاص غريب شاذ منعزل، ويجب الاعتراف بأنها جزء حقيقى واقعى من الكيان الإنسانى المتكامل وعلى ذلك فما وصلنا إليه من مكتشفات يتصل تمام الصلة بالهدف الحقيقى من هذه الدراسة وهو الإنسان عموماً.

الفصل العاشر

الاعتراف بـ ا. خ. ا ، ط. ن. م

إن العلم الطبيعى ونحن في عام ١٩٤٧ لم يعترفْ بعد بـ ا.خ. ا، ط. ن. م كحقيقة مقررة وإن كان كثير من العلماء فرادى يعترفون بهما، ومدى علمى أن أولئك الذين أتيح لهم العلم بصفة عامة بالأدلة،

على يقين مما اكتشفناه، ولكن العلم – وأقصد به غالبية المشتغلين به – ربما مازال على اتجاهه التقليدى من النظر إلى هذه الأشياء كحديث خرافة، وكثير من العلماء في الغالب من النوع الذى تعمق في تخصصه ولا يمكن أن ينتظر منه أن يعلم الكثير عن التجارب الفنية في فرع صغير مثل الباراسيكولوجى، وتبعاً لهذا فسيمضى طويل وقت حتى يتاح للعالم الطبيعى العادى أن يحسن الإلمام بذلك الميدان الجديد، وأن يكون في موقف يسمح له بالحكم على جيرانه.

والسؤال الذى يحسن الإجابة عليه إلى حد كبير هو الأمل في الاعتراف، وهذا السؤال نستطيع الإجابة عليه بالإثبات والتوكيد وتتلخص الإجابة في أنه لا مفر من الاعتراف، فقد رددنا على ما أقيم ضد مكتشفاتنا ودحضناه.

وهذه كلمات قوية تملؤها الثقة، وفي خلال الثلاثة عشر عاماً اعتدت أن أكتب فيها عن القدرات «بسى» لم استعملها ولكنها الآن يؤيدها سلسلة من الأحداث التى تدعمها وتحل الثقة قسرا في نفوس أولئك المطلعين على هذه الاكتشافات، فلنستعرض قوة القضية ونحاول أن نقرر إلى أى مدى من القوة والثبات وصل موقف ظواهر «بسى» وسنبدأ مع ثم ا.خ. ا نستعرض في اقتضاب أبحاث ط. ن. م.

ففي تاريخ العلم الطبيعى،جمعه لا نجد ظاهرة لقيت مثل هذا التعسف في الاعتراف رغم وجود هذا القدر الضخم من الأبحاث التجريبية مثل ظاهرة الإدراك خارج، الحواس، ومما يثير الدهشة في نفس أى إنسان اكتشاف ما توفر لـ ا.خ.ا من الأدلة الكثيرة العدد.

فما كتب عن هذا الموضوع من الأبحاث يخرج عن طوقنا جميعاً، فقد نمى وترعرع وتنوع وانتشر في عديد النشرات بلغات عدة لدرجة تسمح لنا بالقول إنه لا يوجد واحد من الأحياء استطاع أن يقرأها كلها، ومهما كان فليس من المحتم قراءة كل ما كتب إلا إذا كان هناك حكم بالنفي، وغالبية الذين قرأوا كثيرا فيما كتب عن هذه الأبحاث وجدوا أنفسهم عاجزين عن الحكم ضدها.

وعلى ذلك فلا يمكننا الحصول على تقدير كامل لـ ا.خ.ا وإذا أمكن إصدار حكم جزئى عن مدى اتساع ما كتب عن ا.خ.ا من عدد التقارير التى نشرت لكان ذلك بالاطلاع على كتب «الإدراك خارج الحواس بعد ستين عاما»، وحين كتب هذا المولف في عام ١٩٤٠ جمعت

فيه قائمة بالتقارير المنشورة عن ا.خ. ا الحاوية لنتائج أمكن تقيمها رياضياً وقد أمكن حصر ١٤٢ بحثاً في الوقت الذى يمكن أن يضاف إليها عشرات من الأبحاث في كل عام من الأعوام التالية.

ثم لا ننسى أن هناك من الأبحاث ما لا حصر له وبعضها له طابع الإثارة ولكنها لم تكن مقومة رياضياً وعلى ذلك فلم تدخل في الحصر الذى عملناه، فمثلاً اختبارات التلباثى باستعمال الرسوم والتى كتب عنها سنكلير وبروك ووار كوليير وتتشنر وكذلك تجارب الجلاء البصرى الرحال بالتنويم المغناطيسى وكذلك أعمال جلبرت ومورى في التلباثى أخرجناها كما أخرجنا دراسات أخرى منوعة.

فلم يكن الكم هدفنا ولو أنه من الأهمية بمكان أن الإنسان لكى يستطيع الحكم على الأدلة أن يأخذ في اعتباره القدر الذى استطاع استيعابه مما كتب عن التجارب.

وقوة الدليل على ا.خ. ا لا تعتمد لأعلى عدد التقارير ولا عدد الاختبارات، فهناك الموضوع الأكثر من ذلك أهمية وهو كفاية التجارب وطابعها الممتاز وسلامة التفسير والأحكام المبنية عليها، فهناك مشاكل كثيرة يجب إثارتها في تقدير الأدلة بعضها له طابع العمومية في الأبحاث العلمية بصفة عامة وبعضها له طابع الخصوصية بالنسبة لمشكلة ا.خ.ا.

كما أن قضية ا.خ. ا لا يجب أن تعتمد على الحجية، وأنا أذكر هذه النقطة بسبب ما يعنيه هذا السؤال بالنسبة لكثير من الناس وهو إلى

أى مدى من القوة بلغت قضية الإدراك خارج الحواس؟ هل أقرها علماء النفس عموماً، والشخص العادى الذى ليس في وضع يسمح له أن يطلع على التقارير الأصلية بنسه يعتمد بصفة عامة على إقرار أصحاب المهنة للمزاعم الجديدة.

وهذه الطريقة للحكم تكون مأمونة العاقبة لو أن وقتاً كافياً قد مضى على هذه المكتشفات بما يسمح بانتشار المعلومات عنها، وكم كان بنا تؤدى إلى الضلال وسألنا زملاء جاليليو من علماء الفلك أو سألنا زملاء مسمر من الأطباء عن صحة ما استحدثاه من آراء، ولقد حدث أنه بعض مضى أربعين عاما على تقديم نيوتن أدلته على قانون الجاذبية أن كانت بعض المدارس في بلده تصر على استغلال سلطتها في مناقضته.

والتفوق في المهنة لا يعطى لأى الحجة في المكتشفات الحديثة، وفي بعض الأحيان كما يرينا التاريخ يكون أولئك الرجال المبرزون جداً في مهنة من المهن من أشد الناس صلاة في محاربة الأفكار الجديدة، فعالم التشريح النابغة كوفيه كان يحارب نظرية التطور بكل عنف، والعلام العلامة أجازيز وأستاذ جامعة هارفرد العظيم، وقد كان هو نفسه من الرواد في العلم الطبيعى ظل إلى آخر أيامه يؤمن بأن داروين كان على خطأ في نظرية الانتخاب الطبيعى، ولقد كان أعضاء المهنة هم الذين أذاقوا سملز فيزموسمر الأمرين وليس على المرء إلا أن يلاحظ كيف أن كثيراً ما كانت تقارير اللجان المؤلفة في أكاديمية العلوم الفرنسية وغيرها من الهيئات التى يعتد بها من رجال العلم سبباً في خنق المكتشفات الحديثة لذلك كان من الخطر بل

من قلة العلم أن يعتد برأى من هم حجة أو برأى الغالبية بين أولئك الذين «يفترض فيهم العلم أن يعتد برأى من هم حجة أو برأى الغالبية بين أولئك» الذين يفترض فيهم العلم، وعلى ذلك فلا جدوى من الاعتماد على رأى الغالبية بين علماء النفس فيما يختص بحدوث ا.خ.ا.

ولكن كيف يتسنى لنا معرفة أينا على حق؟ وكيف نستطيع أن نقرر القيمة العلمية لبحث ما؟ وإذا كان لا يوافق في رأى الأغلبية والاستشهاد بالثقات فكيف يعرف المرء ما هو الصحيح من عكسه؟

والإجابة على ذلك هى بالطريقة العلمية، ولهذا خلقت هذه الطريقة، فهى الطريقة المثلى التى يجب أن نلجأ إليها سواء كنا أشخاصاً عاديين أم علماء، وذلك لحل مشاكلنا فهى الطريقة الموصلة للحقيقة، وليست هناك طريقة أخرى معروفة يمكن أن يعتمد عليها الإنسان.

ويستطيع المجرب أن يحكم على أى نقطة من الضعف في عمله بمقارنته بنموذج أو هيكل مثالى للطريقة التى يمكن أن يسير بها البحث العلمى ليكون موثوقاً به، وهذا النموذج بعينه وقد عمم حتى أمكن أن يشمل أى مشكلة مفتوحة أمام أى عالم عليه أن يقرأ تقريراًعلمياً أو محر لجريدة علمية ليحكم على بحث تقدم إليه لنشره ولأى إنسان يجب أن يحكم بنفسه على قيمة أى تجربة علمية، والطريقة العلمية بالنسبة للباحث مثل الخريطة التشريحية بالنسبة للجراحو الخريطة الجغرافية للملاح والتصميم الأصلى على الورق الأزرق بالنسبة للمهندس.

وإن الباحث المدقق لكى يحكم على مزايا تقرير عن ا.خ.ا يجب أن يسأل عدة أسئلة من هذا القبيل:

أولاً: هل بدأ المؤلف وأمامه مشكلة محددة واضحة المعالم ومعينة وخالية من الافتراضات التى لاأساس لها؟

ثانياً: هل يبدى من الأدلة ما يبرهن على أنه قد استوعب ما يمكن الحصول عليه من معلومات حول المشكلة لها أو عليها؟ أو أنه جمع مالها فقط؟

ثالثاً: هل فكر في كل أنواع الأجوبة التى يمكن أن تكون لسؤاله والتى تعبر عن جميع وجهات النظر حول الموضوع؟ «أو أنه اقتصر على فروضه المحببة؟».

رابعاً: هل يوضح تقريره أنه استعان بالمنطق السليم والتجرد في اختيار نظريته من بين محاولات الأجوبة المختلفة والتى تتفق أحسن ما يتفق مع المعلومات الموجودة حول الموضوع؟

خامساً: هل استنبط من نظريته نتائج منطقية يمكن تجربتها بالتجربة الاختبارية؟

سادساً: هل رسم تجربة يمكن أن تكون محكاً صادقاً لنظريته؟

سابعاً: هل سار في تجربته إلى نهايتها المنطقة حسب الخطة المضووعة واحتياجات البحث؟

ثامناً: هل تفسيره للنتائج وأحكامه عليها تنبع قطعاً من ظروف تجاربه ونتائجها؟

تاسعاً: هل الحكم الأخير يعطي إجابة محددة حقيقية – أى أنها الإجابة الصحيحة الوحيدة الممكنة للسؤال أو المشكلة الأصلية؟

عاشراً: هل هذا البحث قد أيدته أبحاث أخرى مستقلة عنه؟

وبالمقارنة بمثل هذا النموذج يمكن الحكم على أى بحث بطريقة مأمونة وفي ظلله تبدو النقائض ويمكن تقديرها، ويمكننا أن نتابع المؤلف في تقريره إلى المدى الذى يسمح لنا به في طريقة بحثه، وبمثل هذه الطريقة فقط يمكن أن نحسن تقدير عمله بمعنى الكلمة، وبغير هذا النموذج نتبعه فلا حيلة لنا إلى الرجوع إلى التواتر أو الثقات أو أى أساس آخر غير كاف كأساس للحكم الصحيح، وبذلك لا يتفق حكمنا مع العلم الصحيح ولا يزيد على أن يكون رأياً فردياً.

وليس من السهل اتباع الطريقة العلمية لا في البحث ولا في تقديره، وبما أنها أعظم أداة عقلية بناها الإنسان فلا يمكن أن ينتظر منها أن تكون بسيطة ميسرة، فالقليل من الناس يستعين بها ولكن هناك بعض الناس يفعل فيطبقنها بشيء كثيراً أو قليل من الأمانة لحل مشاكلهم عموماً، وهؤلاء هم القلة التى تحسن تقدير الأبحاث الجديدة وبأثيرهم التربوى ينتقل الاقتناع إلى الآخرين، ولكن هذه عملية طويلة ويسبب الجهل العام

بالطريقة العلمية للحكم على الأشياء لابد من مرور الوقت الطويل الذى لا مبرر له للاعتراف النهائى بالمكتشفات الحديثة في الميادين الصعبة.

والوضع الحالى لـ ا.خ.ا في عقول السادة المتحفظين من علماء النفس لا صلة له إذن بقوة الدليل على ا.خ. ا وهذا الدليل قد وقف صامداً أمام نار المناقشة وأرغم الناقدين على السكوت، ولقد ظل حتى الآن تحت الرقابة الشديدة من النقاد منذ مدةطويلة لدرجة أنه يمكن أن نفترض أن كل نقطة ضعف قد كشفت وأن كل نقد قد دحض، ولم تأت هذه النتيجة عفواً.

فقد ظلت تجارب ا.خ. ا عدةأعوام توضع بالشكل الذى يتفق مع كل نقد ممكن وفي عام ١٩٤٠ وفي كتابى «الإدراك الخارج عن الحواس بعد ستين عاماً» استعرضت خمسا وثلاثين نظرية معارضة منفردة ومجتمعة في تقدير قيمة الدليل على ا.خ.ا وقد شملت النظريات المعارضة كل النقد الذى نشر ووجه إلى أبحاث ا.خ.ا ومن هذا النقد ما كان موجهاً من الباحثين أنفسهم فلم يكن هناك إلا ستا من ١٤٢ تقريراً منشوراً استطاعت أن تسكت تماماً كل الأصوات المعارضة بطريقة لا لبس فيها.

وبعض الاحتياطات التى اتخذناها ستبدو غريبة الشكل، وكان مستوى تلك الأبحاث الست أعلى من مستوى أى بحث علمى في أى ميدان من ميادين الأبحاث، وليست هناك تجربة واحدة في علم النفس سيكولوجى – بحسب ما نعلم من السجلات التى لدينا اتخذت فيها من الاحتياطات ما يخرج منها كل نظرية معارضة كما فعلنا نحن، فمثلاً هناك

العديد من الأبحاث مثل بحث مارتن وستربيك في جامعة كولورادو وقد أخرجت من قائمتنا المختارة، ذلك لأنه لم يكن حاضراً أثناء التجربة إلا مجرب واحد كفؤ وكان لزاماً الثقة فيه، ومثل هذه الاعتبارات لا يعتد بها إطلاقاً في الأبحاث العلمية العادية.

ولكن مع أنه فيما مضى قد استطاعت ستة تجارب مستقلة أن تتخطى حشد النقد في أشد تطرفه إلا أننا الآن لدينا أضعاف ذلك العدد، فمن بين التقارير التى نشرت في السبع سنين التالية لنشر الكتاب السابق يمكن أن نعد من بينها ما يزيد على العشرين من تقارير الأبحاث المستقلة والتى تؤيد وجهة نظرنا وفي نفس الوقت تستطيع أن تجتاز بنجاح ذلك المستوى العالى من النقد الذى كان قائما أثناء وضع الكتاب المذكور.

وأحسن طريقة لتقدير قيمة الأبحاث الحديثة أن نقيسها بقوة التقارير الأولي، أما لأولئك الأشخاص الذين يريدون طريقة سهلة مختصرة للتقدير فما يزيد إيمانهم أن يعلموا كيف واجه ا.خ.ا الاختبار في المعركة التى مر بها في الخمس سنوات الأخيرة من العقد الرابع من القرن العشرين.

فخلال المدة من ١٩٣٥ – ١٩٤٠ كانت هناك عاصفة من النقد انهالت على أبحاث ا.خ.ا وجاء وقت كانت فيه تقارير النقد أكثر عدداً من تقارير الأبحاث ذاتها، وفي استعراض لهذا الجدل كتبته دوروثى .هـ. بوب، ج.ج. برات في مجلة الباراسيكولوجى نجد هذه الأرقام: كان هناك خمس مقالات لنقد ا.خ.ا بين ١٩٣٥ – ١٩٣٦ وكان هناك اثنان

وأربعون في المدة ١٩٣٧ – ١٩٣٨، ثم اثنا عشر في ١٩١٩– ١٩٤٠ ولا شيء على الإطلاق بين ١٩٤١ – ١٩٤٢.

وكان النقد ينتقل من نقطة إلى أخرى أثناء فترة استمراره، وكانت أول موجة كبيرة من النقد موجهة إلى الطرق الرياضية المستعملة في تقدير النتائج لنقرر على أساسها إذا كانت نتائج الاختبارات يمكن أن نعزوها إلى الحظ أو الصدفة، والآن أصبحت هذه الطرق كما قلت قبل ذلك مقررة راسخة وأمكن تطبيقها فيما يربو على نصف قرن في أبحاث كتلك التى نقوم بها، وقد استشرنا فيها طويلاً كثيراً من الرياضيين الثقاة ولم يعد هناك أى شك معقول في تطبيق الطرق الإحصائية التى نستعملها ولكن أولئك الذين كانوا ينقدون أبحاث ا.خ.ا في عام ١٩٣٠ كان من الواضح أنهم ليسوا على علم بالتاريخ الطويل الذى استعملت فيه هذه الطرق، ومن الطبيعى أن أول ما نتجه إليه الأنظار في بحث قلب الأوضاع بنتائجه هو إلى الطرق الإحصائية المتبعة فيه لتكون مجالا للنقد لأن ذلك الفرع الرياضى أسهل ما يقع فريسة لإساءة الفهم والتعسف.

وأغلب الانتقادات المنصبة على الرياضة جاءت في البداية في ١٩٣٥ – ١٩٣٧ وليس من الضرورى أن نخوض في التفاصيل ولكن المعركة انجلت على أن آثار الجدل اهتمام بعض الثقاة من علماء الرياضة الذين تخصصوا في رياضيات الاحتمال وكان بينهم رجال من الأفذاذ جداً، وتفضل بعضهم في محاضرات ومقالات منشورة لأن يجلى ما غمض حول رياضيات ا.خ.ا وجاءت قصة الحبكة المسرحية لهذا الفصل من تاريخ

ا.خ.ا في الاجتماع السنوى للمعهد الأمريكى للرياضيات الإحصائية في مدينة انديانا بوليس في ديسمبر من عام ١٩٣٧ حين صدر تصريحات للصحافة يعززه المعهد وقد جاء فيه:

«إن أبحاث الدكتور راين لها مظهران، مظهر تجريبى ومظهر إحصائى، فمن الناحية التجريبية فليس لدى علماء الرياضة ما يقولونه بالطبع، أما من الناحية الإحصائية فمهما كان فإن الأحاث الرياضية الحديثة قد أثبتت الحقيقة أنه مع افتراض صحة الطريقة التى أجريت بها التجارب فإن التحليل الإحصائى لها جوهريا صحيحاً ثابتاً، وإذا كان هناك عدالة في نقد أبحاث الدكتور راين فيجب أن يوجه إلى نواحى أخرى غير النواحى الرياضية».

وجاء هذا التصريح الحر في وقته وكان لنا نعم المعين، وبعد ذلك بعدة شهور وفي ربيع ١٩٣٨ قام الأستاذ ا.ف. هانتجن وهو عالم رياضى من الأفذاذ في جامعة هارفرد يشرح تلخيص الحالة بالنسبة للناحية الرياضية المتصلة بأبحاث ا.خ. ا في مقال نشر في مجلة الباحث الأمريكى – أميريكان سكولار –وهذه المقالة الممتعة التى يمكن الاطلاع عليها – لأهميتها وفائدتها– انتهت بذلك السؤال الجاد «إذا كان الرياضيون قد تخلصوا بنجاح من نظرية الحظ أو الصدفة فماذا بقى لعلماء النفس ليقولوه حول نظرية ا.خ.ا».

وبالطريقة التى حسم بها المعهد الموضوع وقف النقد بالنسبة للناحية الرياضية ومنذ عام ١٩٣٧ لم تكن هناك إلا أصوات ضعيفة خافتة من

النقد لرياضية أبحاث ا.خ.ا فإن لم تكن الطرق الرياضية على خطأ فلابد أن تكون طريقة التجارب على خطأ، أو على هذا المنوال كان اتجاه الأفكار بعد عام ١٩٣٧، وتراكم النقد بسرعة في شتاء ١٩٣٧–١٩٣٨ وكانت تهدئةالشكوك فيما يختص بالرياضيات، كما اقترح الأستاذ هانتجن، كفيل بأن يجعل الموضوع برمته في مواجهة علماء النفس، وقامت جماعة صغيرة – ولكنها نشطة جداً – من النقاد السيكولوجيين فقبلت التحدى وحاولت أن تظهر بالمحاضرات والمقالات المكتوبة للمجلات العلمية والعادية التى للجمهور الأخطاء الموجودة في أبحاث ا.خ.ا من الناحية التجريبية، وكان هجومهم منصباً في أغلبه على أن ظروف الاختبار لم تكنْ كافية لتسمح بالوصول إلى حكم في صالح ا.خ.ا.

وهنا وجدوا على الأقل بعض ما يمكن أن يتحدثوا فيه، وكما يحدث عادة في الأبحاث الاستطلاعية فقد كان جزء كبير من التجارب الأولى في اختبارات جامعة ديوك له طابع الاستطلاع ولم يكن المقصود منه أن يواجه كل ما يمكن أن ينتظر من النقد –ومثل هذ العمل الابتدائى لا يضمن عادة في التقارير العلمية، ولكنى في وصفي الأول في كتابى «الإدراك خارج الحواس» فكرت في أنه قد يفيد بعض المجربين أمثالى أن أعطيهم القصة كاملة منذ بدايتها، وعلى ذلك ضمنت هذا الكتاب هذه التجارب الأولية، وذكرت ظروفها بالإضافة إلى ما أمكن اكتشافه بعد ذلك تحت ظروف متقدمة ودقيقة حتى يمكن استبعاد الخطأ منها.

وهذه الأخيرة هى التى تحمل أعباء النتائج التى وصلنا إليها، ولكن هذا العرض اتضح أنه لم يكن مفهوماً جيداً من بعض النقاد، وكانت الظروف الابتدائية الأولى التى كانت أكثر تحرراً هى هدف النقد كما لو أن كل شيء كان متوقفاً عليها.

وهناك أيضًا سبب آخر لهذا الارتباك كان من الممكن تفاديه بالعلم بكل هذه الأمور، لك أنه ظهرت في السوق في عام ١٩٣٧ بعض كروت ا.خ.ا كانت سيئة الطبع، وكانت الكروت تحمل موافقتى على حق نشرها، وكان العيب في هذه الكروت هو التواء لم يظهر في حالة طبع البروفات ونزلت الكروت السوق قبل أن يكتشف العيب، وهذا الإهمال من صاحب المطبعة استغله النقاد على الفور كدليل على ضعف ظروف التجربة الذى يمتد حتى يشمل السبع سنوات التى سبقت ظهور الكروت المعيبة، وذهب تحذيرنا الذى أذعناه بأن هذه الكروت أو كروت غيرها مهما كانت كاملة السلامة مقصود بها في جميع التجارب الجدية أن تختفي عن أعين الشخص الذى يجرى الاختبار عليه، أقول ذهب هذا التحذير أدراج الرياح وكأن لم يلحظه أحد، وانتشر الكلام حول هذه المشكلة وكان بعضه بعيداً جداً عن حدود الأدب – في مؤتمرات علم النفس التى أقيمت في عامى ١٩٣٧– ١٩٣٨.

ولم تكن النتيجة كلها سيئة، فعندما ثار الجدل واشتد دعى الاتحاد الأمريكى لعلماء النفس إلى مؤتمر مائدة مستديرة لمناقشة طرق التجارب التى سارت بها ا.خ.ا وكان ذلك في الاجتماع الذى عقد في كولومبس

باهيو في ستمبر عام ١٩٣٨ ولذلك تجمع كل النقد في بؤرة واحدة وربما للتخلص من مشكلة ا.خ.ا وقد نظم الاجتماع على أن يقوم ثلاثة ممن يمثلون أبحاث ا.خ.ا بعرض أبحاث قصيرة على طريقة المناظرة، ثم يعقب ذلك في النهاية مناقشة مفتوحة للجميع.

وكانت هذه الحلقة حادثاً مهماً في تاريخ أبحاث ا.خ.ا وكان عدد الحضور فوق العادة من محترفي علم النفس مما يشهد بأهمية الموضوع.

وكان بلاشك هناك تقدير لما يمكن أن يترتب عليه هذا الامتاع، وبالرغم من وجود توتر ظاهر فيه إلا أنه كانت هناك عدالة في الاستماع وكان الجمهور يحترم كل وجهات النظر المعروضة والتحم المتناظرون فوراً في المواضيع الرئيسية وكانت الاستجابة التى لقيها الدكتور ت.ن.ا جريفل وهو يستعرض رياضيات ا.خ.ا مما يوضح بجلاء أننا قد اجتزنا المصاعب والمشاكل فيما يختص بهذه الناحية.

ثم وضح بسرعة أننا يمكن أن نتفق على ما يجب أن يكون عليه اختبار ا.خ. ا – الجيد، وفي الجولة الثانية من الأبحاث كان هناك اتفاق أساسى بين المتحدثين على كفاية ظروف الاختبار في تلك الأبحاث اليت قدمت على أنها أكثر إقناعاً من غيرها وذكرت التجارب بالتحديد ووصفت، وأعرب المجتمعون عن الموافقة الاجتماعية على ظروف المتحدث الناقد وهو واقف يتحدث في الاجتماع، وكان هنا كاتفاق على أنه لو حدث مثلاً أن وضعت الكروت في مظاريف معتمة أو وضعت وراء ستار معتم أو في غرفة أخرى طوال مدة الاختبار كما هو الحال في كثير من

التجارب لأدى ذلك إلى إزالة كل شك في كفاية الاحتياطات ضد استعمال الرموز الحسية.

وكان هناك إجماع على ما اتخذ من الاحتياطات ضد أخطاء التسجيل.

وفي الجولة الثالثة من المحادثات أوضح الدكتور جاردنر مورفي بجلاء أن هناك الدليل الكافي والكفيل بمواجهة جميع ما تتطلبه تلك المشكلة وهى الدليل من الاختبارات التى سجلت فيها الكروت والأجوبة عليها في سجلات مستقلة، وبعرض هذا الدليل اختفي النقد في التو وخفتت أصوات النقد بعد هذا الاجتماع في عام ١٩٣٨ الذى دا حول ا.خ.ا وحينما نستعيد ذكريات ذلك الاجتماع يتضح بجلاء أن هذا الاجتماع في كولومبس كان نقطة تحول كبيرة في اعتراف العلم بأبحاث الإدراك خارج الحواس، وإحدى نتائجه الطبية المهمة هى أنها حررت الكثير من طاقتنا لنوجهها للمجهود البناء بدلاً إن كانت وقفاً على نشاطنا في الدفاع في الفترات السابقة.

ورغم ذلك فلم تنتهى المتاعب بعد، فلا يمكن أن نفترض أن الإجابة على النقد الموجه إلى أبحاث ا.خ.ا معناه اقتناع الجميع وفوراً به، ولكن العدالة والاهتمام الذين ظهرا في اجتماع كولومبس رفعت كثيرا من روحنا المعنوية، فبدأنا نخطط لتجارب جيدة وإن نراكم الاحتياطات فوق بعضها كمحاولة لخنق أى بقية من شك في كفاية الظروف في تجارب ا.خ.ا وفي

السنوات التى أعقبت مؤتمر ا.خ.ا قمنا بإجراء تجارب خاصة تحت أعقد احتياطات في ظروف التجارب.

وقد جعلت هذه الاحتياطات التجارب مثقلة جداً باللزوميات الفنية، وأحيطت الاختبارات بجو قاتم من الخشوع واختناق كل انتعاش في الصلات بين الوسيط والمجرب، ولا حيلة لنا في هذا فإن التجارب زادت في التعقيد، وكان هناك باستمرار مجربان أو ممتحنان ليراجع أحدهما على الآخر، كما كانت هناك صناديق مغلقة بالأقفال وكان على الوسيط أن يسقط فيها ورقة الإجابة، كما كان هناك عدسات لتصوير الكروت، كما كان هناك عدد من المستحدثات الأخرى في طريقة الاختبار في ذلك الوقت.

وكما هو متوقع تأثر مستوى الأجوبة من وجود ذلك الجو الخانق الذى أوحت به تلك التعليمات، ولكنها لم تتأثر للدرجة التى توقف ا.خ.ا عن العمل تماماً وحينما نشرت هذه الأبحاث لم يجد النقاد ما يقولونه إلا أنه كلما زادت الاحتياطات كلما هبط المستوى، وحتى لو سلمنا جدلاً بهذا على علاته فقد ظلت النتائج ذات مغزى، وحدث فعلاً أن بعضا من أعلى المستويات جاءت في ظروف تجربة أخذت فيها أقصى الاحتياطات ولما كان لم يعد هناك احتياطات معقولة يمكن أن تقترح علينا فقد خفت حدة الجدل وسارت أبحاث ا.خ.ا إلى آفاق جديدة، وتفوق التقارير اليت ظهرت منذ ١٩٣٧ في مداها ومغزاها كل ما سبقها.

ولم أذكر بعد الوجه الباقى من النقد الموجه إلينا، وكان هذا النقد هو الوحيد الباقى لدى أولئك المتعصبين ضد ا.خ.ا وقد جرهم هذا التعصب للشك في أن وجود التعصب لدى أولئك المجربين في ا.خ.ا هو المسئول عن النتائج والسؤال التالى الذى يشتم منه هذه الروح كان غالباً ما يوجه إلينا «هل لديكم تجارب تدل على ا.خ.ا قام بها مجربون لم يكن تم اقتناعهم بحدوث ا.خ.ا؟» وكما أن الإجابة تشير إلى أن عددًا من الذين قاموا بالبحث في نظرية ا.خ.ا كانوا يصرحون منذ البداية بأنهم يشكون في وجود ا.خ.ا، ولقد وصل الأمر ببعضهم إلى أن صرح لخواصة إنه ما كان يتوقع في البداية إلا النتائج التى تمليها الصدفة فلما وصل إلى نتائج إيجابية كان مندهشاً كأشد ما يكون الاندهاش.

وحالة الدكتور ريس تعطينا مثلاً طيباً ولدينا الإذن بأن نناقشها فلقد كان الدكتور ريس يعلن بصراحة إنه يشك في وجود ا.خ.ا حين بدأ سلسلة تجاربه المشهورة والتى ارتفع مستواها إلى أكثر من ١٨ نقطة من ٢٥ في ١٨٥٠ محاولة بالكروت وكان وسيطه يبعد عنه خمسمائة ياردة، فقد حدث أن أبدى بعض الانتقادات حول ا.خ.ا في فصل من فصوله في كلية هنترجين وجه إليه بعض طلبته التحدى في أن يقوم بفحص المشكلة بنفسه، وأخيراً وافق على شرط أن يقدموا إليه وسيطاً فيه كبير أمل، ولقد أدهشه ما حصل عليه من نتائج لدرجة أثارت في نفسه أشد التردد الذى لا يدرك كنهه في نشر تقرير عن مثل هذا المستوى الغير معقول، فلقد كان يعلم أنه سيقابل بنس الشك الذى شعر به قبل ذلك حول أبحاث غيره من المجربين في ا.خ.ا.

ولم يدر عامة الجمهور بما كان من هذه الاتجاهات الأولى، لأن الدوافع الشخصية للمجرمين نادراً ما تذكر أو تنشر، وعلى ذلك فقد كان هناك كثير من الناس الذين وجدوا أنه أسهل عليهم أن يفترضوا إن كل المجربين كانوا متعصبين لـ ا.خ.ا لدرجة جعلت من الطبيعى أن يرتكبوا الأخطاء من نوع ما لتحدث تلك النتائج العالية التى نشرت في التقارير، وكانت حالة عالم الرياضيات الإنجليزى الأستاذ صولا أمثل حالة، وقد سبق ذكر أبحاثه في التلباثى التنبؤية وتقريره عن آثار الزحزحة.

ومن السهل أن تقدر الاهتمام الخاص الذى أحاط بأبحاث الدكتور صول الناجحة في ا.خ.ا حين ظهرت في عام ١٩٤٠، فلم يكن فقط ناقداً علينا للأحاث الأمريكية التى تمت في ا.خ.ا ولكنه اندفع في تجاربه الخاصة في ا.خ.ا بعزم وروح لم تترك أى مجال للشك فيم كان يتوقع أن تكون عليه نتائجه وعلى ذلك فحين أعطت نتائجه النهائية مع ١٦٠ وسيطاً متوسطاً أحط بكثير من مستوى الصدفة لم يدهش أولئك الذين يعلمون بأهمية الاتجاه النفسى على اختبارات ا.خ.ا.

ولكن كانت هناك ظاهرة أدهشت الجميع حين بدأت، ولعل القاريء يذكر أن سول حينما طلب منه كارنجتون أن يبحث في سجلاته عن زحزحة الإصابات في الكروت إلى ما قبل الهدف أو ما بعده وجد أنه حصل على دليل قوى جداً على ا.خ.ا فقد وجدت الزحزحة إلى أمام الهدهف أو إلى ما بعده في ظروف معينة، وكانت النتائة ذات مغزى واضطر سول من نتيجة أبحاثه هوإلى التسليم بوجود ا.خ.ا ولقد نشر مكتشفاته

واستمر في البحث مع أحد الوسيطين اللذين بدت منهما ظاهرة الزحزحة، وبالتعاون مع السيدة جولدنى سار في بحثه الذى يعتبر أحد الأبحاث الفذة في هذا الميدان ألا وهو البحث الخاص بالتلباثى التنبؤية الذى سبق وصفه.

وكان بحث سول أحد معالم الطريق في أبحاث ا.خ.ا وبصرف النظر عن القيمة الذاتية لبحوثه وهى عالية القدر فإن الطريقة التى أرغمته بها نتائجه على تغيير اتجاهه فيما يختص بـ ا.خ.ا يضفي عليها منزلة خاصة.

وفي تاريخ الجدل حول ا.خ.ا تقف أبحاث محاذية لتلك الحادثتين الحريتين بالاعتبار وهما قرار المعهد الأمريكى لرياضيات الإحصاءات في عام ١٩٣٧، ومؤتمر ا.خ.ا أمام الاتحاد الأمريكى لعلماء النفس في عام ١٩٣٨.

والمراء، مهما كان، قلما يقنع أحدًا، فالمطلوب هو البرهان الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وفي الوقت الذى كاد ينتهى فيه النقد بدأت الأبحاث تعطى نوعاً جديداً من الأبحاث تعطى نوعا جديدا من الأدلة، نوع من ذلك الطراز الذى يحمل أكبر قدر من الإقناع للعلماء أكثر من أى شيء حدث قبله، وأهم ما يضفي على هذا الدليل الجديد سمة الإقناع هو موضوعيته، فإذا استطعنا أن نعالج ما لدينا من الأدلة وأن نراجع ملاحظتها وأن نكرر فحصها ثم نبرزها للآخرين فإن هذا مما يزيد في تأكدنا منها.

وكان هذا الطابع من الموضوعية التامة ما يعوز أدلتنا الأولى إلى حد كبير، كما كانت هناك مشاكل كبيرة أيضا في إعادة التجارب على قدرة يعوزها الاستقرار مثل ا.خ.ا ولكن حوالى عام ١٩٤٠ استطعنا أن نضع يدنا على أول ما يمكن تسميته تواضعًا بدليل البصمة وهى أدلة كانت تترك عفواً بغير تسجيل ولكن كان من الممكن فحصها وتحليلها بأى كان وذلك بمجرد أن تتجه الأنظار إلى وجودها، وكان هذا الاكتشاف فيه بعض الجدة كما كان محققا إلى درجة تدعو للدهشة للبرهنة على ا.خ.ا.

والدليل الجديد يأتى من السجلات القديمة نفسها وله طابع الاستقلال وكان حادثا عرضياً في تجارب ا.خ.ا ولم يكتشفه المجرب الأول بل اكتشفه من تابع فحص الأبحاث، وهو يسمو على كل الاعتراضات العادية على ا.خ.ا.

ولكى أوضح ذلك سأختار أبسط مثال عليه من تجارب ايستبروك في جامعة هارفرد التى سبق ذكرها، وكما يذكر القارىء كان ايستبروك قد قام بعدة تجارب على ا.خ.ا كان المرسل فيها ينظر إلى واحد من سلسلة من الكروت اختير عفواً وكان ايستبروك مقتنعاً بأنه حصل على أدلة انتقال الفكر – تلباثى، ولكن لو تردد الإنسان في قبول ا.خ.ا الثار الشك في نفسه احتمال استبعد الرموز الحسية بوجود بابين مزدوجين بين الغرفتين، وكما قلت قبل ذلك، هذا الاقتراح بوجود رموز سمعية مستغرب جداً من الناحية السيكولوجية لأنه لم تكن هناك فرصة للوسيط ليتعلم شفرة هذه الرموز وكان استبروك بنفسه هو المرسل، ولكن رغم ذلك فقد كان افتراض

وجود الرموز الحسية من الاحتمالات التى يفضلها معظم علماء النفس في ذلك، وقليل منهمه في وقتنا الحالى، على الإقرار وجود التلباثى.

وهذا الدليل الجديد يعالج هذه المشكلة علاجاً أمثل، وهذا الدليل يأتى من هبوط مستوى الأجوبة التى سبق ذكره والذى وجده ايستبروك في الدورة العشرين وقد لاحظ هبوط مستوى الإصابات ولكنه اعتبره حادثاً عرضياً – ولم ير فيه أى صلة بادلته والآن والآن ونحن نعيد فحص بياناته فإنا نجد أن هذا الهبوط في المستوى دليل قائم بنفسه على وجود ا.خ.ا في تجارب جامعة هارفرد، فإذا أخذنا الإصابات في العشر محاولات الأولى في الدورة في كل سلاسل ايستبروك ونقارنها بالعشرة الأخيرة نجد أن مستوى الإصابات يختلف إلى حد كبير بين شقى التجارب لدرجة لا يمكن أن تحدث إلا في حالة واحدة من خمسمائة حالة لو كانت الصدفة هى التى تلعب وحدها، ومن المعروف بين علماء الرياضيات أن احتمال واحد في المائة كاف لاستبعاد الحظ أو الصدفة كتفسير لأى ظاهرة.

وكان هذا الهبوط يحمل جميع ميزات التجارب الإيجابية، وكون ايستبروك لم يلاحظه في حينه مما يزيد قيمة هذا الديلل لنا اليوم، إذ أننا نستطيع أن نصل إلى أحكامنا عليأبحاث هارفرد بدون دخل من التقدير القديم لها – وبعبارة أخرى أن هذا الاختلاف في عدد الإصابات بين شقى التجربة لا يعتمد إطلاقا على مجموع عدد الإصابات وهو الذى أعطى للتجارب مغزاها الأول، وهذا الهبوط نفسه يحدث أيضا في السلسلة الرابعة من مجموعة ايستبروك وهى السلسلة التى هبط مستواها تحت الصدفة.

وفي الحقيقة فإن الهبوط الذى حدث في هذه المجموعة كان أكبر هبوط في الأربع سلاسل من الاختبارات التى قام بها.

ونظرية الرموز الحسية لا تنطبق على هذا البرهان الجديد، فقد كانت الظروف التى تسود التجارب واحدة في الشقين وعلى هذا فلا يمكن أن يكون ذلك سبباً في الاختلاف، يضاف إلى ذلك أن إدراك الرموز الحسية إن كانت موجودة يتحسن باستمرار التجربة ولا يضعف، كما أنه حدث في التجارب التى كانت المسافة فيها بين المجرب والوسيط أبعد ما تكون كان الفرق بين شقى التجربة أعلى ما يمكن.

وعلى ذلك فإن ا.خ.ا هو العلة الوحيدة لهذا الهبوط، وأزيد على ذلك بأن هذا الهبوط، وأزيد على ذلك بأن هذا الهبوط هو الهبوط النموذجى لـ ا.خ.ا كما أن هبوطاً مشابهاً وجد بشكل عام في اختبارات أخرى للنشاط العقلى مثل ط. ن. م وفي الذاكرة وفي التعليم، ولدينا في أبحاث ايستبروك مثل للرسم البيانى المشابه لحدوة الحصان بدون طرفها الآخر والمرتفع في النهاية، فقد كان الوسطاء بدون شك لا يعلمون باقترابهم من نهاية التجربة وعلى ذلك فلم تحدثْ الآثار المصاحبة لاقتراب النهاية.

وأبرز ملامح هذا الدليل الحادث من الهبوط هو أنه يمكن كل إنسان من أن يفحص ويعيد فحص البيانات، وكما نبهت بشدة قبل ذلك في حالة هبوط المستوى في ط. ن. م أن التحليل يمكن إعادته أى عدد من المرات نشاء، وهو بهذا يصبح قابلا للإثبات، فموضوعية هذا الدليل تجعله

في طبقة واحدة مع التشابه مع عينات التربة، أو الأجزاء التشريحية أو البللورات أو العينات النباتية، وهو يبدو أنه الرد على كل تلك الشكوك الخبيثة التى تعمل في صمت وراء الخفاء الملازم لكل المشاكل العقلية.

ومعظم الأدلة المبنية على هبوط المستوى أكثر تعقيداً من ذلك المثل المضروب ولكنها لا تقل عنه في مشروعيتها وحسمها، وكل المشكلة هى في صعوبة تقديمها بالاختصار والوضوح المطلوب هنا، وفضلاً عن ذلك فإن دراسة تأثير، الترتيب أو الوضع في المحاولة، على النجاح في ا. خ. ا مازالت طريفة وسائرة في طريقها، وحتى ايستبروك نفسه لا يدرى في هذه اللحظة التى كتب فيها هذه الفقرة أننا وجدنا أن الهبوط في المستوى الذى يظهر في بياناته يعطى فارقاً ذا مغزى، ولن هذا التحليل لم يطبقْ على جزء كبير من السجلات المتداولة عن ا.خ.ا وأن القليل منها فقط هو الذى نشر، وقد أوغلنا بالتحليل إلى حد كبير في المادة التى حصلنا عليها من اختبار ط. ن. م ولكن عددا من سلاسل الأبحاث في ا.خ.ا قد تم فحصها وأن الدليل على الفروق ذات المغزى في مستوى الإصابات يمكن بمفرده أن يثبت ا.خ.ا.

وبمثل هذه الأدلة يصبح الاعتراف العلمى مسألة وقت لا أقل، فهذه الفروق الداخلية ذات المغزى المترتبة على تأثير الترتيب أو الوضع في التجربة موجودة هناك في السجلات ثابتة مثبتة في انتظار إعادة فحصها. وهنا الموضوعية، فبالإمكان التحقق منها كما نتحقق من قراءات جهاز تسجيل ضربات القلب أو حركة العضلات.

والآن نستطيع في يسر أكثر أن نتبع النصيحة التى أعطاها الأستاذ ثوليس من جامعة كمبردج في عام ١٩٤٢ خاصة بالإدراك خارج الحواس وفحواها أن حقيقة وجود هذه الظاهرة يجب اعتبارها أنها قد ثبتت بالأدلة المؤكدة كأى حقيقة في الأبحاث العلمية يمكن البرهنة عليها.

فلنترك الآن عملية محاولة تكرار إقناع المتشككين بأن اثار «بسى» حقيقة واقعة وأن نستعيض عن ذلك بأن نحاول أن نفرغ أنفسنا للعمل في اكتشاف كل ما يمكن اكتشافه عنها، فباستجلاء طبيعتها أكثر من ذلك تصبح الصعوبات في الإيمان بوجودها أقل جسامة مما تبدو الآن.

وأشدد الأدلة على ط. ن. م قوة هى الموجودة في هبوط المستويات وكان ثبات تأثير الترتيب أو الوضع في المحاولة، على النجاح فيها مما شجعنا على المغامرة بنشر أول تقاريرنا بعد انتظارنا تسع سنين من ابتداء وقت العمل، وفي ذلك الوقت كنا نعلم أن لدينا في تأثير الترتيب أدلة كان ومازال الفاحص الخبير يستطيع أن يؤكدها بتحليل السجلات المتاحة.

وقد كنا على ثقة من الأدلة لدرجة أننا أذعنا دعوة لأى منظمة علمية لتعيد التحليل إن كان هناك أى شك جدى في التحليل الذى قمنا به.

ولما كنا لا نتوقع إجابة لدعوتنا فقد قمنا بأنفسنا بالفحص وعهدنا إلى الدكتور برات وهو زميل في هيئتنا لم يكن قام بأى تجربة في البحث المراد فحصه، وقد فعلنا ذلك لنرى بأنفسنا ما يمكن أن يجده باحث

خارجى إذا أتيح له أن يعيد تحليل آثار الترتيب، وقد وجد الدكتور برات في مراجعته الحرة المستقلة غلطة واحدة فقط وكانت غلطة بسيطة.

وسنعطى الآن أمثلة قليلة على تأثير الترتيب في ط. ن. م لنعاون على تقدير الأهمية الكبرى التى تترتب عليها.

وكان الهبوط الأفقى أول ما وجدناه، وقد شرحنا ذلك في الفصل السادس كما بدأ في المجاميع الثلاثية في السلسلة الأولى من الزهر العالى وكان أعلى مستوى في الدورة الأولي، يتلوها هبوط سريع في الدورة الثانية والثالثة، تلى ذلك الهبوط الأفقى الموجود في اختبارات الزهر التالى والزهر الواطى التى قامت بها مارجريت بجرام وقد وجد أن نفس الهبوط يظهر في الشق الخاص بالزهر العالى كما يظهر بالشق الخاص بالزهر الواطى، وبعد ذلك وجد هذا الهبوط في عدد كبير من السلاسل، ومع أنه توجد استثناءات لهذا الهبوط الأفقى إلا أنها قلة، فالاتجاه العام هو الهبوط في المستوى والوسيط مستمر في الاختبار معطياً مستوى أقل في النصف الأيمن من الصفحة أو المجموعة.

ولكن الهبوط كان أشد بروزاً، فقد كان هناك اتجاه عام للهبوط في مستوى الإصابات كلما استمر التسجيل إلى أسفل عمود السجل فكان عدد النقاط في النصف الأعلى أكثر تماماً كما لاحظنا ذلك في سجلات ا.خ.ا وكان هذا الهبوط الأفقى، وهو بلاشك أكثرها شيوعاً وأشد استرعاء للملاحظة كأثر الترتيب، وفي السلسلة تلو السلسلة كان النصف الأعلى

من صفحة التسجيل يبدو فيه فرق كبير ذو مغزى في عدد النقط من النصف الأسفل.

فإذا كان هناك هبوط رأسى وآخر أفقى في سلسلة ما، أمكن وجود هبوط ماثل «أى قطرى نسبة للقطر»، أى أن النصف العلوى الأيسر يحمل أكبر عدد من النقط وأن النصف السفلى الأيمن يحمل أقل عدد من النقط، وأن هذا الهبوط المائل أشد وضوحاً من كل من الهبوط الرأسى أو الأفقى، وكان الهبوط المائل الذى وجدناه في التوزيع الأولى إلى أرباع أشد بروزاً وأكثر ثباتاً، وكان هذا سبباً في أننا قررنا أن نعيد التحليل بنفس الطريقة على جميع البيانات المتاحة، وكان هناك ثمانية عشر من مثل هذه السلاسل التجريبية عندما ضممناها جميعا إلى بعضها بسبب اختلاف نوع الاختبار وكان معظمها مقسما إلى فرعين، أحد الفرعين خاص بالسلاسل الفردية وفيها الهدف وجه واحد من الزهر والآخر خاص بالزهر العالى والواطى وبخليط آخر من الأهداف.

وكانت الأرباع المزدوجة هى أشدها إقناعاً فالربع الأعلى الأيسر في كل من المجموعتين كان على ارتفاع كبير جداً من الربع الأيمن الأسفل لدرجة أنه لا يمكن أن يحدث ذلك بالصدفة إلا في حالة من كل مليون حالة، وأكثر من ذلك فقد كان منظر الخليط بعد ترتيبه يبدو جميلاً، وكان مستوى الإصابات في الربعين الثانيين من الصفحة وسط بين الأيسر العالى والأيمن الواطى وارتفاع النقط عن مستوى الصدفة يكاد يتعادل، والنسبة بين عدة الإصابات في كل ربع يمكن مشاهدتها بكل وضوح في التركيب

الذيي بنى على الاثنى عشر سلسلة «الفردية» وكان فيها الزهر برمى للحصول على وجه واحد بدلاً من مزيج من الوجوه، والربع الأيسر الأعلى يحمل رقم ١ والربع الأيمن الأسفل يحمل رقم ٤ وارتفاع الأرباع يعطى فكرة عن عدد الإصابات في كل، فوق معدل الصدفة.

ومن بين الستة سلاسل الباقية والمتاحة للتحليل أعطت الأربعة التى كان فيها الهدف إما الزهر العالى أو الزهر الواطى الازدواج الأرباعى الذى فيه الربع الأيسر الأعلى أعلى من الربع السفلى بدرجة تكفي لاستبعاد الصدفة حسابياً.

وقد وجدنا نفس التركيبة في المجموعة كما هى في الصفحة، والمجموعة هى عبارة عن تناسق طبيعى بين دورتين أو أكثر، وقد كان هناك مجموعتان في بعض الصفحات، كما كانت هناك ثلاثة أو أكثر على صفحات أخرى، كما كانت هناك أحجام وأشكال مختلفة لهذه المجموعات وحينما أوجدنا الازدواج الأرباعى لهذه المجاميع كان الربع الأيسر العلوى أعلى في النقط كما كان الربع الأيمن السفلى أدناها، كما كان الهبوط المائل كبيراً جداً واحتمال الصدفة هو واحد في المليون أن يحدث الهبوط من الربع الأول إلى الربع الرابع، وبذلك يظهر الازدواج الإرباعى للتسع سلاسل الفردية التى كانت تصلح للتحليل.

كما يظهر أن سلسلة الزهر العالى وسلسلة الزهر الواطى قد أعطت أعلى هبوط مائل، وإن كان عدد المحاولات أقل، ومع هذا فالهبوط ذو

مغزى، وهذه الازدواجات الإرباعية ثابتة الشكل بدرجة مدهشة وقوية المشروعية في قدرة إنسانية شديدة الحساسية والتغيير مثل ط. ن. م.

وجاء الدليل من الازدواجات الأرباعية من عدد كبير ومختلف الظروف، فقد كان هناك أنواع مختلفة وأحجام متغيرة من الزهر المستعمل، كما كان يقذف بالزهر باليد وبالآلة وبأعداد تتفاوت في الرمية الواحدة من اثنين إلى ستين، كما أن أهدافاً مختلفة وأحجام متغيرة من الزهر المستعمل، كما كان يقذف بالزهر باليد وبالآلة وبأعداد تتفاوت في الرمية الواحدة من اثنين إلى ستين، كما أن أهدافاً مختلفة من الوجوه ومجاميعها قد استخدمت، وكان هناك اختلافات أخرى كثيرة في السلاسل التى عاونت في إيجاد دليل الازدواج الأرباعى، وبعض التجارب كانت محكمة الضبط كما كان البعض الآخر مجرد محاولات استطلاعية قام بها المجرب ليقنع نفسه، ومع ذلك فإن نفس القانون يمتد فينطبق على كل هذه الفروق الكثيرة.

ولأول وهلة يبدو لنا أن مشكلة الزهر المنحرف لا قيام لها، فنفس الزهر قد استعمل في كل الأرباع كما استعملت نفس الطريقة في القذف وكان بعض الازدواجات الأرباعية الجيدة جداً قد حصلنا عليها من سلاسل القذف بالآلة، أما الأخطاء أو التعب أو الهلوسة وكل التعليلات المعارضة فلا تأتى إطلاقاً في الصورة بالنسبة للازدواج الأرباعى لهذه العوامل لا تتغير بتغير تركيب عمود السجل أو مجموعة الأعمدة أو حتى الصفحة بكاملها، ومهما كان السبب لتعليل الهبوط في مجموعة ما فإنه يجب أن يفسر الصعود في المستوى الذى يتلوه في أول المجموعة التالية.

وعلى ذلك فإن الازدواج الأرباعى يسمو على كل الشكوك ويقدم لنا قصة الدليل على ط. ن. م. التى ظلت ترقد مختفية بين سطور صفحات السجلات.

فلماذا لا يقبل هذا الدليل فوراً من العلماء؟ والجواب على ذلك أن السبب ربما كان نفسياً أكثر منه منطقياً.

إنه الخوف أكثر من أى شىء آخر هو الذى يقف عثرة في سبيل الاعتراف بظاهرة «بسى» فأولاً هناك الخوف من الازدواج أى قبول شيء كحقيقة واقعة وهو في نفس الوقت لا يتمشى أو ينسجم مع الفلسفة المادية، فرجال العلم يرون أنهم بقبولهم لـ ا.خ.ا، ط. ن. م. يجب عليهم الاعتراف بعدم مادية هذه الظواهر، وهذه الخطوة تعتبر مشكلة خطيرة بالنسبة للعلم الطبيعى، فالاعتراف بوجود حادث غير مادى سبب وجود نوعين من الحقيقة الواقعة وبذلك ينشق عالمه، وهذه الخطوة تبدو في نظرة كأنها رجوع إلى الوراء رجعية إلى تلك الأيام التى كان فيها شيء اسمه خارق للطبيعة.

والعلم المتحفظ يقول بوجدو نظام طبيعى واحد، وأن الازدواج أو أى شيد يقرب منه معناه الكفر بالعلم، وكراهية ذلك تشبه كراهية الاعتراف بالفراغ في الطبيعة، ومما يسترعى الاهتمام أن نراقب العالم وهو يتجه إلى أبحاث «بسى» يحمل الاعتقاد الخاطيء بأن هذه المكتشفات ربما أمكن إدراجها تحت القواتنين الخاصة بالمغناطيسية الكهربائية ليجد نفسه

مضطراً إلى التملص من الموضوع برمته كما لو كان قد أحرق أصابعه حين يكتشف أن نتائج التجارب ستحمله بعيداً عن قوانينه المادية.

وليس في الرغبة لتوحيد العلم عيب، ونحن لا نستطيع بالطبع أن نقبل حركات المماحكة التى تمد في المعلومات أو تختزلها حتى توائم بين النظريات القائمة وهذا مما يؤدى في الغالب لرفض مكتشفات جديدة لا سبب إلا أنها لا نسجم تماماً مع المعتقدات القائمة، وهذا ما يمكن أن نسميه بربرية العلم، والأفضل أنه إذا وجد التضارب بين المكتشفات الجديدة والقديمة كان ذلك علامة على وجود مجاهل من البحث لم تكتشفْ بعد والواجب ارتيادها واكتشافها حتى يمكن إيجاد التوافق المطلوب.

والخطأ هو التفكير في أن ا.خ.ا، ط. ن. م يؤديان إلى الازدواج، ووجود الدليل على التفاعل النفسى المادى الذى وصلت إليه الباراسيكولوجى يتعارض منطقياً مع وجود أى ازدواج أساسى في طبيعة الإنسان، ففي العقل نفسه الذى يتفاعل فيه العقل والجسم مع بعضهما يتوحدان بالضرورة إلى حد ما في نشاط واحد تماماً كما يؤدى تفاعل مادتين في كأس من كئوس الكيمياد إلى وجود وحدة فعالة من المادتين، ولا يستطيع أحد أن يتصور تفاعل نظامين أو جهازين بدون افتراض وجود خواص مشتركة بينهما، فلابد من وجود تسلسل واستمرار وصلة بين المتفاعل الأول حتى يتحول إلى المتفاعل الثانى في كل ما يحدث في الطبيعة ولا يشذ عن ذلك التفاعلات التى تحدث بين العقل والمادة ولا ندرى عن طريقة أخرى لفهم التغير المسبب من أى نوع خلاف ذلك.

وعلى ذلك فأى ازدواج في النظام الطبيعى يجب أن يكون نسبياً، وأغلب الحدود الأكاديمية التى تحد الطبيعية قد أصبحت الآن حدودا نسبية بعد إحكام فحصها فالحدود المطلقة القديمة قد ذابت، وعلى ذلك يجب اعتبار الصلة القائمة بين العقل والمادة كما تظهر في ظاهرة «بسى» كمثل آخر من النسبيات، والنظامان، لاشك أن لهما خصائصهما التى ينفردان بها، فأحدهما مادى والآخر غير مادى وهذا مدى ما نعلمه من فروق بينهما، ولكنهما يتفاعلان وعلى ذلك فيجب أن يكون بينهما اتحاد إلى درجة ما في هذا التفاعل، وهذه النسبية بعينها تصبح سواء أحاول المرء فرض الوحدة أو الازدواج على عالم التفاعل العقلى المادى وهذه الاعتبارات القديمة من فردية وازدواجية قد أصبحت لا تنطبق على عالم يبدو تزايد النسبية في ملامحه.

وطبيعة الحدود المشتركة بين العقل والمادة مازالت غامضة تماماً، وكل ما نستطيعه هو أن نستنتج وجودها ونعتبرها هدفاً كبيراً لأبحاث المستقبل وربما ظهرت كنظام تحتى من الطاقات المتعادلة التى ليست روحية أو مادية ولكنها قابلة للتحول إلى مظاهر إما مادية أو عقلية، أو ربما ظهر أنها لا تزيد عن نقطة تحول مجردة.

والشيء الذى يمكن أن نطمئن إلى الوصول إليه هو أن حقائق الباراسيكولوجى لا تعوز المرء لأن يكون من أنصار نظرية الازدواج بل إنها لا تسمح له بذلك.

وأما عنصر الخوف الثانى الذى يمنع الاعتراف العلمى بـ«بسى» فهو عنصر اجتماعى وهو الخوف من أن يفقد المرء مكانته في محيطه الفنى.

وأنا لا أحب الخوض فيه لأن في ذلك ما يبدو كنوع من القسوة ولكن في العلم يستباح الهجوم على كل ما يعترض طريقنا ولاشك أن هذا الجبن مما يعترض الطريق.

وقد قام كثير من العلماء بإجراء التجارب على ا.خ.ا و ط. ن. م في السر وفي بعض الأحيان نسمع عن هذه النتائج بطريقة ملتوية إلا إذا حدث وكانت النتائج في مستوى الصدفة، فمن دواعى الاطمئنان بل من حسن السمعة نشر المكتشفات السلبية، ولكن في بعض الأحيان نسمع عن نتائج قيمة ناجحة ولكن يصدمنا الاعتراف أنه لأسباب خاصة بالمهنة فلن يكون هناك تقرير ينشر، كما قال أحد هؤلاء المجربين «إن أسرتى في حاجة إلى الطعام»، وكما قال آخر «إن معهدى يعترض»، وأردف آخر «سيقوم كل أعضاء هيئة التدريس بقسمى بنقدى وأنا مرشح لكرسى الرئاسة» كما يعتذر آخرون بأعذار شفافة مثل «أنا لا أعتبر التجربة قد تمت بعد» أو «لقد قمت بها لإقناع نفسى ولم تكن للنشرى، وفي مكنة المرء أن يضع كتاباً ولو أنه كتاب حزين عن هذه الاستجابات الرعديدة.

وهى تمس هذه الأبحاث في عدة نقط مهمة ولكن الذى يعزينا هنا هو مسألة الاعتراف، وأن المستقبل أهم من الماضى وأن نجد حلاً لهذا الأشكال الذى خلقه الجبن.

والحقيقة في بساطة هى أن الخوف من فقد السمعة بسبب الباراسيكولوجى لا أساس له، ولو أنى أعلم علم اليقين كيف يبدو هذا الخوف وكأنه حقيقة، فلقد كنت أبحث عن الحقائق في هذا الموضوع لمدة عشر سنوات، لأن هذا في غاية الأهمية عند تقديم المشورة للشباب وهم مقبلون على ميدان التجربة وأعتقد أن لدى الآن ما يكتفي من البيانات للوصول إى قرار.

فما هى الأشياء التى تؤيد أو تعارض ظاهرة «بسى» والتى على العالم أن يأخذها في اعتباره؟ لنبدأ أولا بفحص الوسيط المثقف الذى سيجده، وأى طراز من الرجال قد سبقوا في مشاركته الاهتمام بهذا الميدان؟ ويليام جيمس، ويليام مكدوجال، سيجموند فرويد، شارل ريشيه، بيير جانيه، سير ويليام كروكس، س.ج. يونج، ويلهلم اسكل، هنرى برجسون، هانز دريش، ويمكن أن تستمر القائمة فتشمل عشرات من العلماء الأفذاذ موزعين بين جميع الأمم التى انتعش فيها العلم، ولقد ذكرت الأسماء القديمة المعروفة فقط ولو أن كثيراً من أفذاذ المحدثين يمكن أن تضمهم القائمة.

وقد وجدنا من القواعد أنه كلما كان العالم مبرزاً كلما كان اتجاهه نحو تجارب «بسى» أكثر تسامحا، ويمكن للمرء أن يطمئن على سمعته العلمية مع رجال مثل ألبرت اينشتين لو قام بتجارب «بسى»، كما نعلم أن مثل ذلك كان يمكن وقوعه مع لويس باستير ومع أسرة كورى، ومع كثير غيرهم من طبقة النجوم العلمية هذه.

فما الذى يدعو الباحث الروحى إلى الخوف وأمثال هؤلاء يقفون إلى جانبه؟

ومدى ما وصل إلى علمى هو أنه لا يوجد أحد في العشرين عاماً الماضية من المشتغلين بالباراسيكولوجى قد أصابه مكروه في سمعته أو مركزه أو مرتبه بإقباله على البحث في أبحاث «بسى» بل إن هناك قلة من علماء النفس ممن يعترفون بأن مركزهم تحسن نتيجة لمساهمتهم في أبحاث ا.خ.ا صحيح أن هذا حدث أخيراً ولكن لهذه الظاهرة معناها فيما يختص بالمستقبل.

ولاشك في وجود المعوقات وما يدعو للارتباك، ولكن كل شيء هين حين تحوطه هائلة من المجد حول ميدان للبحث يحوطه الجدل، فإن وجد من ينعت عالم الباراسيكولوجى بأنه «مهفوف» فهناك من ينعته بأنه رائد شجاع، ثم فوق ذلك فهناك الدافع القوى بأن الباحث يقوم برسالة لها أكبر الخطر بالنسبة للإ,سانية وبأنه في ميدان مازال بكراً وبأنه عضو في جماعة صغيرة من الباحثين ألهبها الشوق والاهتمامببحثها، ثم إن في هذا لاعمل مجلاة لملكات الإنسان لأ, العمل من الجسامة بحيث يستغرق كل جهود الباحث.

وعلى ذلك فأنا لا أستطيع أن أشارك أحداً في الخوف من ميدان عملت به وعشت ناعماً بالسعادة لمدة تزيد على العشرين عاماً، ثم إن هناك جوائز غريبة في هذا العلم بالذات، صحيح أن الإنسان معرض فيه

لقدر كبير من إساءة الفهم، ولكن إذا وهب نفسه لبحثه وسار يه بأمانة وذكاء فلا يمكن أن يصاب بخسائر جدية.

والأمور تسير مع علم الباراسيكولوجى بما يدعو للتفاؤل، وهناك علامات كثيرة مشجعة تدل على حدوث تغيير، وبعضها محسوس جدا لدرجة كافية تدعو لذكره.

فقد قام مركز آخر للأبحاث على «بسى» في هذه الديار، فقد انضم بعض العلماء الشبان في علم النفس في منطقة نيويورك إلى الجمعية الأمريكية للمباحث الروحية في جهودها وذلك لمصلحة الطرفين وكان ذلك تحت قيادة الدكتور جاردنر ميرفي، وأحسن الجارب الحديثة في ط. ن. م قد قامت نتيجة لهذا التعاون، وأنا أشير هنا إلى أبحاث لورا ابوت ديل، كما سبق وأشرت إلى أبحاث الدكتور شميدلر وهو عضو آخر في جماعة نيويورك.

وفي إنجلترا بدأت تتضح معالم خطة مشابهة، فقد رصد مبلغ من المال لكلية ترينيتى بجامعة كامبردج وكان ذلك في عام ١٩٤٠ وذلك للإرفاق منه على أبحاث الباراسيكولوجى وبعض أساتذة كامبردج الذين لهم حق الإشراف على أبحاث هذه المنحة على علاقة رسمية بجمعية المباحث الروحية، وكان أول عامل في هذه المنحة هو المرحوم هويتلى كارنجتون الذى كان موظفاً بالجمعية المذكورة، وكانت وفاته في عام ١٩٤٧ وهو في وسط أبحاثه الكثيرة خسارة لا تعوض، ومن يسره أن يلقى نظرة على أبحاث

كارنجتون فليقرأ كتابه عن التلباثى الذى نشر في لندن – شركة متون في عام ١٩٤٥ – وفي نيويورك في عام ١٩٤٨.

والأبحاث على المشاكل الباراسيكولوجية على قدم وساق في عدة كليات ومعامل جامعية هنا «أمريكا» وفي الخارج، وكل ما هو مطلوب هو زيادة في عدد هذه المراكز، وعونا أكبر لتلك التى بدأت، وهذه الأحاث تستغرق وقت الباحث بأكمله وتتطلب باحثين منقطعين قد أحسن تدريبهم.

وبعد أن أفاقت أوروبا من كابوس الحرب بدت علامات على استئناف الجامعات لنشاطها في الباراسيكولوجى، وقد وافقت جامعتان في السويد على أن تسمحا بالبحث في الباراسيكولوجى إذا أمكنها الحصول على النفقات اللازمة، وكانت هناك دراسات في هذا الميدان في عدة جامعات في هولندا قبل الحرب وهناك أدلة على استئناف ذلك النشاط كما أن أبحاثاً لها أهميتها قد بدأت فعلا في فرنسا ويوغوسلافيا، كما أن هناك بشائراً على الاهتمام المتزايد في غيرها من البلدان.

وربما كان أحسن برهان على الاعتراف المتزايد بأبحاث «بسى» هو ما قامت به عدة جامعات إنجليزية كبيرة في السنوات الأخيرة من منح الدكتوراه على أبحاث على الإدراك خارج الحواس، وقد فعلت جامعة لندن لذلك مرتين مقتفية في هذا أثر جامعة ديوك التى منحت ثلاثة شهادات دكتوراه، منهم شهادة دكتوراه في العلوم التى منحت للسيد س.ج. سول على دراسته القديرة لانتقال الفكر المتنبيء، كما أن جامعة كمبردج

واكسفورد قد منحتا الدكتوراه في الفلسفة والدكتوراه في الطب على رسائل في الباراسيكولوجى.

والعلم في إنجلترا يبدو أنه أكثر تسامحا منه في أمريكا، إذا كان محك الاختبار هو الباراسيكولوجى، فقد مرت أعوام على الجمعية البريطانية لعلم النفس وهى تستمح بقراءة أبحاث عن «بسى» يها، وأكثر من ذلك يستطيع المرء أن يجد بين أعضاء جمعية المباحث الروحية في إنجلترا عدداً كبيراً من أبرز علماء بريطانيا في السبعين عاماً الماضية.

والتطور يأخذ مجراه على جانبى الأطلنطى، فمنذ عشرة أعوام فقط كان تصرف الجامعات الإنجليزية المذكور يقابل هنا بالدهشة، ولكن الأفكار تتغير بسرعة، وهناك من العلامات ما لا حصر له على أن الزمن يعمل سحره في الاعتراف بـ ا.خ.ا و ط. ن. م وكلما مرت الأعوام واستمرت أبحاث «بسى» والنتائج المدعمة لها تترى فلابد أن يأتى اليوم الذى يتم يه الاعتراف الإيجابى الكامل بهذه القدرات، والمخاوف التى وصفتها ستهدأ وستزول الغربة ويحتل زعم جديد غريب منصة الجدل والنقاش.

الفصل الحادى عشر

الاستغلال المرتقب

> من الآن فصاعدا سأفترض أن العلم سيسلم في الوقت المناسب بظاهرتى ا.خ.ا، ط. ن. م وأن «بسى» هى قدرة إنسانية مألوفة، وأن طبعيتها غير مادية، أما الآن فنحن في حاجة للبحث في مكان ا.خ.ا، ط. ن. م في المعركة للبقاء وأى دورتلعبه لسد الاحتياجات العملية في الحياة.

والإجابة عن الحاضر فهى أنها ليست على استعداد للاستعمال الموثوق به، فكلتا الخصلتين الباراسيكولوجيتين لا يمكن الاعتماد عليهما والوثوق بهما الآن للإفادة منهما في الحياة الشخصية أو العملية للفرد.

وليس معنى أن نقول إن «بسى» لا فائدة لها حتى في الحاضر، فبعض حالات «بسى» الذاتية كان لها فائدة عملية في الحياة اليومية، ولنضر مثلاً طيباً على ذلك بالحادثة المشهورة لوصية شافن وميزتها أنها حالة قد أحسن تسجيلها، وهى تنصب على حلم كانت نتيجته اكتشاف وصية ثانية بعد أن كانت الوصية الأولى قد نفذت.

وكانت الوصية الأولى، قد أحكم تسجيلها وإشهارها بشهادة الشهود وكان تتنص علي إعطاء كل ما تملك الأسرة إلى أحد أبنائها

الأربعة، وى الحلم الذى رآه أحد الثلاثة أبناء الآخرين – وكان ذلك بعد مضى أربع سنوات على تنفيذ الوصية الأولى – جاء الأب وطلب من ابنه أن يبحث عن وصية أخرى في جيب معطف الوالد القديم، ولما وجد المعطف في منزل أخ آخر اكتشفت به لفافة من الورق قد خيطت فيه وفي هذه اللفافة جاءت إشارة إلى صفحة خاصة من إنجيل الأسرة، وفي هذا الإنجيل حين فتحت الصفحة إليها وجد به وصية ثانية ثبت أمام المحكمة أنها قد كتبت بخط الوالد، وهذه الوصية الأخيرة تجعل للأولاد الأربعة أنصبة تساويه في مال أبيهم وهذه الوصية قد اعترفت بها المحكمة في مقاطعة دافي في كارولينا الشمالية بدون معارضة.

وهذا المثل المضروب هو بلاشك مثل شاذ، ولكن هناك من الأسباب ما يحملنا على التفكير في أن ا.خ.ا تلعب دوراً خفياً في القرارات التى نتخذها يوماً بعد يوم، وفي كثير من الأحيان نحكم على أشياء بدون معرفة كل الحقائق المتصلة بها، وفي مثل هذه الظروف تعاوننا القدرة «بسى» كجزء من عملية الإلهام، وربما دخلت بطريقة لا شعورية في تلك اللمحات الهادية التى نسميها بالإلهام أو البصيرة، كما يمكن أن تكون عاملاً أساسياً في العبقرية التى نسميها بالإلهام أو البصيرة، كما يمكن أن تكون عاملاً أساسياً في العبقرية على اعتبار أن العبقرى هو الشخص الذى له بالإضافة إلى مزايا أخرى ميزة الحذق في استعمال «بسى» بحكمة دون نظر إلى الاعتماد عليها، وأنا أقول هذا كنوع من المقترحات، والمهم في الموضوع هو أن أى معونة تقدمها لنا «بسى» هى عون مفيد وإن كان غير منظم، فإن «بسى» كما نعلم الآن لا تعمل بطريقة ثابتة النسبة من

الصحة لدرجة تسمح بتنظيم الاعتماد عليها، ومن الخطأ البين استعمالها إن كان هناك أى بديل لها موثوق به.

وهناك تقارير عن بعض الأفراد النادرين الذين يبدو أنهم قد أوتوا القدرة على ا. خ. ا لدرجة أنهم يستطيعون استغلالها في أى وقت شائوا، فقد كتب الدكتور ب.ج. ف لوبشر من جنوب أفريقيا وهو طبيب في الأمراض النفسية وعلامة في أصل الإنسان في أحد تقاريره عن حالة أحد السحرة المعالجين من الأهالى واسمه سليمان دابا والذى تكرر منه إظهار ا.خ.ا بهذه الطريقة العارضة، فقد ذكر الدكتور وبشر اختبار قام به وورد في كتابه «الجنس والعادة والأمراض العصبية»، قال: «لقد شرحت لسليمان دابا أننى لا يمكننى قبول المزاعم الكثيرة عن وجود قوى خارقة وفي أتباعه إلا إذا استعطت أن أتحقق من ذلك بنفسى فوافق على أن يضع نفسه رهن أى اختبار أرغب في تطبيقه عليه»، وعلى ذلك فقد قررت أن أدفن شيئاً ما ثم اختبر قواه في زيارتى القادمة له.

«ولما كان سليمان دابا يقطن على ستين ميلا من كوينزتون، فقد دفنت كيساً رخيصاً ملفوفاً في ورق بنى وأنا في طريقى إلى كوخه، ووضعت على نقطة الدفن حجراً مسطحاً بنياً وفوقه حجراً مسطحياً رمادياً، ولم يكن بمرأى منى أثناء عملية الدفن مخلوق، كما أننى منذ قررت القيام بهذ العملية لم أفش سرى لأحد، ومنذ اللحظة التى أحضرت فيها الكيس لم يره أحد، ولم يكن أحد سواى يعلم بطبيعة الأدوات التى سأستعملها في الاختبار، وتركت مساعدى في العربة وانطلقت نحو الغابة إلى المكان الذى سأدفن

فيه الكيس، وعند مغادرتى المكان سرت بسرعة متوسطها خمسة وثلاثين ميلا في الساعة، وأنا أذكر ذلك حتى أقطع الطريق على أى معارض يقول إن أحدا من العدائين سبقنى إليه وأخبره.

وبعد وصولى بفترة قصيرة طلبت رقصة الجلسة الروحية وأخبرته أننى قد أعددت اختباراً، وفي أثناء الرقص وصف سليمان دابا بالتفصيل الدقيق طبيعة المكان الذى حدث فيه الدفن، والورق البنى الملفوف فيه الكيس، كما وصف لون الحجارة وفي أثناء الرقص لم أعط أى إشارة تدل على أنه على جادة الصواب، وهذه واحدة فقط من التجارب العديدة التى أبرأ فيها سليمان ذمته جيداً جداً».

وفي كتابته وفي خطاباته يسرد الدكتور لوبشر أمثلة أخرى ملحوظة عن استغلال دابا لخاصية ا.خ.ا وأحد هذه الأمثلة حادثة فذة دخلت فيها قراءة المستقبل فيما يختص بسلوك الدكتور لوبشر وصحته سبقنها بمدة بثلاثة شهور، وكانت هذه الاستعراضات بشبه ذاتية وللمرء أن يتسا هل يستطيع دابا أن يستمر على هذه الدرجة من النجاح؟ وهو سؤال مهم جداً، وعلى أى حال فهذه الثقة التى يتحدث عنها الدكتور لبوشر في تقاريره لا يهظر لها في دوائرنا المسفسطة والخاصة بـ ا.خ.ا.

والسبب في أننا لا نستطيع أن نصنع ثقتنا في استعمال هذه القدرات ليس في عدم قدرتنا على التحكم فيها، فلكى يكون في استطاعتنا توجيهها إلى هدف خاص في زمان ومكان محددين يجب أن تكون هذه القدرات طوع إرادتنا أن تكون اختبارية، فلماذا أذن لا نوجهها

نحو الأسرار التى تعذر علينا اكتشافها؟ وليس ذلك لأنها بالطبيعة ضعيفة فهناك أشخاص فيهم هذه القدرة قوية إلى حد كاف، فإن كان هناك وسطاء يستطيعون باستمرار أن يبرزوا هذه القدرة بكامل قوتها لكان أولئك الذين استطاعوا أن يسلجوا في اختبارات ا.خ.ا ٢٥ نقطة بصفة غير منقطعة من الذين لا يتطرق إليهم الخطأ وكل المطلوب هو أن نكتشفهم وأن نطلقهم. للعمل، ولكن إذا كانت ا.خ. ا كما يبدو في الغالب ضعيفة جدا فلماذا لا تقوم بصقلها وتنميتها؟ وإذا كانت القدرات الأخرى تتحسن بالمران فلماذا لا تخضع «بسى» للتعليم؟

والجواب على ذلك يأتى من مظهر واحد لـ«بسى» وينطبق على ا.خ.ا، ط. ن. م، ذلك أن «بسى» هى عملية أو نشاط مراوغ لدرجة لا يمكن تصديقها، وهذا لا يعنى فقط أن ا.خ.ا، ط. ن. م كمظاهرة طبيعية كان من الصعب إظهارهما بل ربما كانتا أصعب الظواهر العلمية التى لقيها العلم، ولا يعنى ذلك قلة وجود «بسى» في الكون أو لأن الجهود الموجهة لاقتناصها كانت عاجزة أو لنقص في هذه الجهود.

والعكس هو الصحيح فقد ظلت «بسى» قدرة مجهولة لأمد طويل وتهربت ببراعة من الباحثين وعلى العموم ظلت موهبة لا يوثق بها، وذلك بسبب ميزاتها الخاصة وهى المراوغة الملازمة لطبيعتها السيكولوجية.

والقصة الكاملة للبحث في خاصية «بسى» تشهد لها بهذه المراوغة، وكل المصاعب تقريباً التى تنشأ في التجارب سببها هذا وحتى المشاكل الأخرى التى تقود إليها أبحاث «بسى» يمكن أن تعزى بطريقة غير مباشرة

لهذه المراوغة الطبيعية الملازمة لـ ا.خ.ا، ط. ن. م، فمن هنا إذن نرى أثر هذه المتاعب في البحث في «بسى» لأنها توضح بالضبط ما نحن سبيله من الوصول إلى استغلال هذه القدرة، ومن المؤكد أنه بمجرد أن نتغلب على العقبات الأساسية في التجارب على ا.خ.ا، ط. ن. م سوف تتمكن من استغلالها بطريقة مؤكدة موثوق بها.

وأول مكان نبدأ به هو المجرب نفسه، فكما رأينا قبل ذلك فإن ا.خ.ا، ط. ن. م يهربان تماماً من بعض المجربين، وقد جاء فيتقارير عدد من الذين أجروا تجارب على ا.خ.ا، ط. ن. م أنهم لم يحصلوا على أى دليل على وجود القدرة «بسى» وهولاء المجربون الفاشلون أقلية ضئيلة، وفي حالات كثيرة أظهر التحليل فيما بعد لنتائجهم وذلك باستعمال طرق أحسن أظهر هذا التحليل الدليل الذى لم يتمزوه في البداية، ولكن هناك مجربين فاشلون، وقد يكون الخطأ في الوسطاء ولكن كانت هناك حالات كان فيها الوسيط المرتفع مع مجرب، ينخفض مستواه مع مجرب آخر حتى يصل إلى مستوى الصدفة، وفي ضوء هذه النتائج فمن الجلى ليس فقط أن المجرب يلعب دوراً خطيراً في نجاح اختبارات «بسى» بل إن الخاصية نفسها في منتهى الرقة حقاً بدليل أنها حساسةجداً للفروق بين الأشخاص القائمين على التجربة.

ثم هناك أيضا أن المجربين الذين لازمهم النجاح قد يفقدون هذه الموهبة بعد ذلك، فهناك حالات مسجلة عن باحثين وجدوا الدليل على القدرات «بسى» في سلسلة أو أكثر من التجارب ثم أضحى نجاحهم أقل

في التجارب التالية حتى في نفس ظروف التجارب التى لم تتغير، وهذا الفشل معقول بالطبع بالنسبة لفقد حب الاستطلاع الأصلى والحماس الدفاع، ولكنها توضح بجلاء المراوغة المتناهية الملازمة لـ«بسى».

وبصرف النظر عن المجرب فإن قدرة «بسى» نفسها لا تتمتع إلا بالقليل جداً من الاستقرار، فقد يحدث مع نفس المجرب أن يرتفع مستوى وسيط في ثوم ثم ينخفض في اليوم التالى وفي الواقع قد يكون هذا التغيير بين ساعة وأخرى أو حتى بين دقيقة وأخرى، حقا إن «بسى» هى أكثر القدرات المعروفة تحولاً وتغيراً، فمثلاً في الاختبارات التى أجريت على الطفلة ليلان التى سبق ذكرها، فقد بدأت معها الآنسة بجرام وكان المستوى أعلى من مستوى الصدفة بقليل، وفي يوم ما ارتفع مستوى – ليليان إلى ٢٣ نقطة، وفي الفصل التالى ارتفع المستوى إلى ٢٥ ثم بعد ذلك هبط إلى مستوى الصدفة ثانية، وكانت ظروف الاختبار واحدة لم تتغير إطلاقاً فالذى تغير إذن هو ليليان، فقد ظلت ا.خ.ا تعمل بمنتهى الدقة تقريبا في دورتين، كل منهما ربما استغرقت دقيقة ثم بعد ذلك أثبت وجودها بمراوغتها.

والقاعدة المجربة هى أن الوسيط يفسد إذا استمر مدة طويلة في نفس الاختبار، ولا شيء أفعل في جلب اليأس للمجرب وجعله يخبط كفاً بكف من رؤيته لوسيط ممتاز ينهار، كما فعل كثير منهم بمرور الزمن.

وكان غالباً ما يحدث أو يتخذ كتكأة لفقد الوسيط لقدرته حدوث حادثة أو ما شابه ذلك ولكن كل الوسطاء المرتفعى المستوى هبط مستواهم بعد استمرارهم فترة طويلة سواء حدثت حادثة أم لم تحدث.

وكان بين الوسطاء المرتفعى المستوى في أيام جامعة ديوك الأولى واحداً فقد قدرته خلال أزمة عاطفية مرت به، واخر هبط مستواه بعد الزواج وأعلى وسيط معروف – وهى السيدة التى أجرى الدكتور ريس أبحاثه عليها – هبطت إلى مستوى الصدفة حين سقطت صريعة «الانهيار العصبى» وكانت تعالج من زيادة إفراز الغدة الدرقية، وكثير من الوسطاء المرتفعى المستوى انطفأوا، بعضهم بالتدريج، وبعضهم مثل ليليان دفعة واحدة، ولا توجد إلا حالة واحدة معروفة ظهر عليها التحسن، وهو النجم الذى اكتشفه مارتن وستريك في جامعة كولورادو، فكان مستواه يهبط بعد العطلة السنوية ثم يرتفع بعد ذلك إلى حد كبير أثناء السنة الدراسية التالية، ولكن بمرور السنين هبط مستواه.

إنه ميدان للبحث محير، فنحن نقضى على الظاهرة أثناء محاولة العمل لإظهارها وفي هذا الدليل على أن الاختبارات نفسها تعترض طريق القدرات التى ما وضعت هذه الاختبارات إلا لقياسها.

وبالطبع فإن الاختبارات في أى مدان هى حادث مصطنع، ولكن هذا الاصطناع يصبح له أهميته خاصة فيما يتصل بالإنسان، وفيما يتصل بالدرات الرقيقة السريعة العطب تكون له كل الأهمية، وقد يكون هناك بالطبع بعض المواقف التى تعمل فيها «بسى» بطريقة موثوق بها ومن

الممكن أن يكون جهلنا بالظروف الصحيحة للاختبار هو السبب في هذا كله، فنحن نعلم علم اليقين أن ظاهرة «بسى» تحدث تلقائياً، وأن هذه الحالات التلقائية تبدو غالباً بدرجة من الدقة تدعو للدهشة والاستغراب، فإذا أضفنا إلى ذلك الحقيقة الخارجة من التجارب المعملية وهى أن الوسطاء يبدأون بمستوى عالى ثم يهبطون أثناء السير في التجارب لبدالنا كأن العامل الحيوى الذى نفقده في ظروف الاختبار هو التلقائية، وربما بدأنا نفقدها بمجرد دخول الوسيط كفيل في ذاته بقتل كل الدافع التلقائى.

والتلقائية بالطبع هى الذات تعنى عكس العمل تحت ظروف مقيدة، والقول بأن «بسى» تحتاج للتلقائية لكى تعمل هى طريقة أخرى للتعبير عن أنها نجحت في الهروب من تكتيكاتنا الحالية في البحث، ومن الواضح أنها لا يمكن أن توضع تحت ضبط موثوق به لا في الدراسة التجريبية ولا للاستفادة العملية، طالما كان هذا هو الحال، وحين نمسك بها في ظرف اختبارى فستستمر في أن ترشح خارج بناء الاختبار، تاركة ورائها فقط ذيلاً من الخيبة والهبوط ليدل على مدى نجاحها في الاختفاء.

وهناك أكثر من طريقة يستطيع بها ا.خ.ا و ط. ن. م الهرب منا، فهناك في بعض الأحيان تخلى محدد واضح عن الهدف، ورفض التجاه إلى الهدف يهبط بالمستوى إلى ما تحت مستوى الصدفة، وإذا استمر ذلك طويلاً، كما حدث في عدد من الأبحاث فسيصل الانحراف الكلى السالب إلى درجة لا يمكن معها أن نعزوه إلى الصدفة، وفي بعض حالات رفض الهدف التى لا تعزى إلى الصدفة مفيدة وممتعة حتى تكتشف ولكن المشكلة

هى أنها دائماً لا تأتى وحدها بصورة نقية، فبعض الأحيان ينزل الوسيط تحت مستوى الصدفة لمدة فصل أو مرحلة كاملة ثم يسجل مستواه فوق مستوى الصدفة في المرحلة أو الفصل التالى، وقد لا يعلم هو نفسه ما الذى يتأرجح به هكذا، وأسوأ من ذلك أنه قد يبدأ الدورة على جانب من مستوى الصدفة ثم يتأرجح للجانب الآخر عندما يصل إلى ختام الدورة، أو قد يهبط إلى تحت المستوى في وسط الدورة ويرتفع عنه في أولها وآخرها، أو قد يتعادل طرفا الانحراف وتخرج السلسلة كلها بمستوى قريب من مستوى الصدفة، ومع أن عالم الإحصاء قد لا يساوره أى شك في أن «بسى» تعمل إلا أنه لا يمكن الوثوق في استغلال موهبة متقلبة كهذه.

ونوع آخر من حيل التخلص التى توجد في ا.خ. ا هو الزحزحة وكما نذكر القاريء فإن كلا من كارنجتون وصول اكتشفنا أن الوسيط يتجه بإصاباته نحو الهدف المجاور للهدف الأصلى، أى أنه يتجه رأسا إلى الكارت أو الرسم الذى سيستعمل في المحاولة التالية أو إلى الوراء نحو الكارت الذى انتهى استعماله فورًا، وهذه المشكلة لا تصل إلى حد الخطورة لو أن هذه الزحزحة بصورة منتظمة فتعلم أن الوسيط يتجه بإصاباته نحو الكارت المجاور للهدف المطلوب منه، كما أن الزحزحة قد تتعدى الكارتين المجاورين سواء الأمامى أو الخلفي وتقفز إلى كروت أخرى، فمثلاً حين كان سول وجولدنى يختبران وسيطهما ب. س كانت الزحزحة في الاتجاهين حين يكون أحد المجربين هو الذى ينظر في الكروت، وفي اتجاه واحد حين يكون المرسل شخصاً آخر، وأن الزحزحة قد تكون للكارت التالى أو للذى يليه تبعا للسرعة التى يسير بها الاختبار، ومن الواضح أن تأثير ا.خ.ا قد

يتلاشى تماماً وبكل بساطة نتيجة لهذه الزحزحة، وقد تلاشى بعض الوقت حين ابتدأ ب.س في الاختبار مع الدكتور سول ولم تكن الزحزحة قد درست بعد، وهذا الاستعداد في ا.خ.ا لأن تتزحزح يستبعد إلى حد كبير الاستفادة من هذه القدرة.

ونحن نعلم بالطبع أن لهذه المراواغة من «بسى» مشروعيتها، فهناك أسباب لها، وفي يقينا أن اكتشاف هذه الغرابة مما ييسر فهمها، ولكن من البين أنها عقبة في الاستغلال الناجح كما كانت مصدر المتاعب في الأبحاث.

والمشاكل التجريبية المنبعثة من ا.خ.ا، ط. ن. م ليست هى كل المشاكل، ولكن المشاكل الأخرى هى إلى حد كبير نتيجة لمراوغة «بسى» وأنا أذكر المشاكل الاجتماعية التى تصاحب مشاكل الأحاث، والتى تظهر نتيجة لأن «بسى» لا ثقة في ظهورها وفي تفسيرها خروج على العقائد السائدة، والالتباس مع عدم الاستقامة يساير خزعبلة أو خرافة، وقد جبل الناس على ألا يقبلوا أى زعم لا يستقيم وعقائدهم السائدة إلا إذا تأكدوا من الظاهرة التى تؤيده ومدى الالتباس أو عدم الثقة الذى يتصل بظهور ا.خ.ا جعل طريق البحث في «بسى» وعر بصفة خاصة.

والعلم لا يعيش في الفراغ، وما يقوله الناس عن البحث يؤثر كثيراً على نسبة العالم الذى يقوم به والاعتبارات الاجتماعية لا تؤثر فقط على سعادته وسمعته ورزقه بل حتى على الفرص المتاحة له ليستمر في عمله في

الميدان الذى اختاره، وكل هذه تتوقف على عامل الالتباس وعدم الثقة التى نحن بسبيله.

ووراء كل المتاعب تقف خاصية واحدة لـ«بسى» فهناك عنصر مشترك في ا.خ. ا، ط. ن. م هو السبب لا في المشاكل التجريبية والاجتماعية والالتباس الذى ذكرناه فقط بل في عدم استطاعتنا حاليا أن نفيد من القدرة «بسى» أيضاً، فإذا انزاحت هذه الخاصية تبخرت كل هذه العقبات.

وهذه الخاصية التى تعتبر مفتاح السر في نشاط «بسى» هو أنها لا شعورية، فالوسيط في معظم الأوقات لا يدرى باستعماله لـ ا.خ.ا، ط. ن. م فهو لا يشعر بحدوث أيهما، ولا يعرف أنها حدثت وليس لديه ما يقدمه بما أصابه من نجاح أو فشل، وعليه أن يكتشف خلال إدراكه الحسى متى عملت «بسى».

ونحن نستطيع أن نلاحظ أنفسنا بالاستيطان وهى تحس وتتذكر وتتعلم وتمارس الانفعالات وغير ذلك من أنواع النشاط العقلى المعروفة ولكن نشاط «بسى» لا يخضع للاستيطان، ويبدو أنه من الصعب جدا إخراجها إلى ميدان الشعور.

ولقد اختبرنا إدراك الوسطاء لصحتهم في اختبارات ا.خ.ا ولكن لم يبد من أحد منهم حتى الآن ما يدل على قدرة ثابتة على التحكم في استيطان ما يدور حين تحدث ا.خ.ا أو ما يدل على أنها قد عملت بدقة.

ولنفترض ولو للحظة أن نافذة منيرة للاستيطان على ا.خ.ا، ط. ن. م قد وجدت، لكان من جراء ذلك أن تختفي كل المتاعب الجسيمة التى عددتها فوراً، وكل إنسان لديه القدرة على ا.خ.ا كان يستطيع إظهارها بمنتهى الكفاية لأنه لن يكون هناك أى تسجيل لأى استجابة حتى نتأكد بصفة شعورية أن «بسى» بدأت تعمل وسيصبح هذا مهما كان حدوث ا.خ.ا منقطعا، ولن يعدو الأمر حينذاك إعطاؤه الوقت ليعمل، وقد يبطيء ولكن لاشك في حدوثه.

ولن يكون هناك انحراف سلبى أو زحزحة أو هبوط، فإذا كان الوسيط مدركاً لـ«بسى» وهى تعمل لن يسمح لها باتخاذ طرق الهرب منه، ولن يرفض الرمز أو الكارت المطلوب منه أن يحدده، أو يدل على ما يجاوره بدلا منه، أوى فقد القدرة مؤقتاً، بعد بضع محاولات ابتدائية وسيتساوى المجربون فكل منهم سيصلح مكان الآخر، لأن العلاقات الشخصية المخاتلة تقل أهميتها في القدرات التى نتحكم فيها شعورياً ولن يكون هناك عمليات التقييم الإحصائى المعقدة اللازمة لأغلب الأبحاث إذ يمكن أن يطلب من الوسيط أن ينتظر حتى يتأكد تماماً قبل أى محاولة، وسيتخلص البحث تقريبا من كل العقبات الملازمة له.

وفي الناحية الاجتماعية من البحث ستكون هناك ثورة أيضاً، فبحصولنا على وسيط واحد عنده الثقة الباطنية في عمل «بسى» لن يمضى طويل وقت من تكراره لإظهارها بانتظام حتى ينتهى كل شك يطل برأسه، وستخرج المعامل أبحاثه على «بس» إلى ضوء الشمس وستفخر

بنشرها بدل أن تتكتمها لأسباب دبلوماسية، وسيرحب محرروا المجلات العلمية بالتقارير عن الأحداث التى تؤيد ا.خ.ا، ط. ن. م وفي الوقت المناسب تكون المبالغ اللازمة للبحث قد جمعت من أعتى الموسسات الإنسانية محافظة، وستختفي فوراً اللعنة التى حلت على الباراسيكولوجى سواء أكانت لعنة حقيقية أو متخيلة.

وإذا خضعت ا.خ.ا، ط. ن. م للتحكم الشعورى فلنا أن نتوقع استعمالات مدهشة لهما، وهنا يحسن أن نلقنى بتحذير وهو أن أشد التنبؤات محافظة فيما يتعلق بما يلى ستبدو خرافية وغير معقولة، إذا فقبل أن نرسم بعض النتائج الرئيسية للتحكم الشعورى لـ«بسى» دعنى أذكر القاريء أن كل ميدان من الميادين القديمة للعلم قد مر بمرحلة من التوسع المدهش المشابه للصور التى سأرسمها، ومن الطبيعى أن يبدو هذا الاتساع والتقدم غير معقول لو أنه صور قبل وقوعه.

فكن على استعداد لما سنلقيه إليك في الفقرات التالية مما يصعب تصديقه، والذى أكتبه وإنا افترض أن قلة من وسطاء ا.خ.ا قد استطاعوا التحكم الشعورى في قدرتهم، وهو كل ما أطلبه فانظر ما يحدث فهؤلاء الوسطاء سيقلبون بسرعة عالم العلاقات الإنسانية، وستكون النتيجة أن تتجه الأنوار الكاشفة إلى جميع الأسرار المتعلقة بالإنسان وبالطبيعة والوجود، فنحن نعلم أن المسافة والمكان لن يعوقان ا.خ.ا ولن يكون هناك دفاع أو إجراءات مضادة يمكن اتخاذها ضد هذا الهجوم لباراسيكولوجى وإذاكان العقل برغم كونه محدوداً الآن قد استطاع أن

يتميز كارتاً في مجموعة من الكروت تبعد عنه آلاف الأميال فما الذى يمنع أى معلومات مخبوءة في أى مكان في العالم من أن تقع في قبضته؟

وما على الوسيط إلا أن يعلم متى يكون على صواب، وكل ما نفترضه هو أن يكون هذا البيان الإضافي وفي استطاعته أن يستمر في المحاولة والانتظار حتى يحس بطرقات الوصول قبل أن يبدأ في تسجيل انطباعاته وسيحل الإشكال الزمن وعدد كاف من الوسطاء، حتى ولو لم تكن له مقدرة على «بسى» أكثر من تلك التى أظهرناها.

ونتائج هذا على أحوال العالم ستكون هائلة، فأى تصميم على الحرب أو على خطط ماكرة من أى جهة من العالم يمكن أن تراقب وتكتشف وباكتشافها يستبعد حدوث الحروب، ولن تكون هناك ميزة المفاجأة والأخذ على غرة، فكل سلاح سرى وكل خطة استراتيجية ستكون عرضة للفضيحة وتستريح الأمم من الشك والقلق من جراء خطط غيرها السرية.

وستختفي الجرائم من جميع الدرجات طالما أن الستر الذى يغطيها سينفضح، والمكر والاستغلال والكبت لن يستمر إذا كانت المؤامرات السوداء التى يحبكها قوم خبثاء ستنفضح.

ومثل هذه القوة يمكن بالطبع أن يساء استغلالها، ولكن حتى وقتنا هذا فإن تطور الأجهزة التى تعمل على اتساع رقعة العلم لم يكن له من نتيجة إلا مضاعفة الفوائد التى استمتع بها الناس بعد ذلك، ومتى سقط

الضوء على أى رقعة في العلاقات الإنسانية فإن المساوئ القائمة تختفي كما تختفي الحشرات التى تكره الضوء.

وإلى هنا كانت كل الفوائد التى استعرضنا لـ ا.خ.ا من النوع الدفاعى ولكن استغلال القدرات «بسى» في أهداف أكثر إيجابية لا يقل عن فوائدها الدفاعية، فستتسع رقعة العلم في ميدان الإدراك وسيكون هذا الاتساع أنفذ من أى أداة ابتكرت، فلن يستطيع داء–متوطن أو مرض خطير أو أى مصدر مجهول من مصادر الخطر أن يختفي عن أعين البصيرة الخارجة عن الحواس إذا اتجهت إليه لتكشفه، كما أن أماكن الثروة المخبوءة في العالم سواء كانت ثروة معدنية أوغيرها يمكن أن تحدد على خرائط، وأى لغز في حياتنا الأرضية يستطيع أن يقف في وجه الإدراك «بسى» الذى يفوق المجهر «الميكرسكوب»؟ وأى مشاكل للعالم يمكن أن تبقى بغير حل لأنه لم تكتشف وسائل لفحصها؟

ولقد قلت إن ذلك سيبدو حديث خرافة، ولكنى أقول إن هذه الصورة التى رسمتها في كلمات قلائل صورة متحفظة، وفضلاً عن ذلك فقد عالجت ناحية واحدة من «بسى» وهى ا.خ.ا ولم نقدم أى افتراض لما يمكن أن يحدث بامتداد هذه القدرة إلى ميدان التعلم، ولو أنه من الطبيعى أن نفترض وجود هذا التطور، وعدم قدرة ا.خ.ا على التحسن راجع إلى أنها حتى الآن عملية لا شعورية، والتعلم يحتاج لإدراك نجاح أو فشل المجهود المخصص له، وإلا لا نتفي التوجيه للعملية بما يضمن لها السير في طريق النجاح، وطبيعى ألا يستطيع إنسان أن يوجه عملية لا شعورية تماماً.

والآن لنرى ما يمكن أن تفعله ط. ن. م إذا أصبحت تحت التحكم الشعورى، وهنا يطير الخيال فورا إلى ميدان الطب النفسى – الجسدى، أى قدرة العقل على شفاه جسده، وصورة ط. ن. م وقد وجهت شعوريا لتكون علاجاً قوياً للشفاء تصبح فوراً احتمال معقول، ثم نذكر أن التجارب قد أوضحت أنه لا الكتلة ولا المسافة ولا أى خاصية مادية أمكن اختبارها يمكن أن تؤثر في إظهار ط. ن. م ولنفترض أن هذه السيطرة التى للعقل على المادة لا تحدها المادة وإنما حدودها من ناحية العقل.

وهنا يتردد المرء في أن يصرح بما يمكن أن يحدثه الافتراض الواحد المتواضع والذى تتوقف عليه هذه النتائج – وهو كيف نوجه ط. ن. م بالإرادة شعورياً؟

ويجب أن نعترف بهذه الحقيقة: وهى أن ط. ن. م تتضمن قوة طبيعية أخرى، وقد اكتشف الإنسان فعلاً عدداً كبيراً من الصور الطبيعية للقوة، وهى صور تستعصى على الحصر، فهناك القوى المائية المختلفة، وقوة البخار، وقوة احتراق الغازات، وقوة الانفجار الكيميائى وقوة الكهرباء، وأشكال القوة النفاثة، وأخيرا قوة الذرة، وليست هذه هى كلها، والواجب أن نكون الآن على استعداد لأن نميز المراحل الأولى لتطور قوة جديدة، كان من الطبيعى أن تكون كل تلك الصور للقوة في قوة ما ضعيفة وغير موثوق في ظهورها، وكل واحدة منها بدت كأنها غريبة وغير معقولة للجمهور الذى قدمت له، فلا يدهشنا إذن حين نتذكر ردود الفعل هذه

التى صاحبت المكتشفات الأولى أن نجد أن القوة النفسية المحركة تعطينا صورة صادقة لظاهرة جديدة كل الجدة.

فحين أجرى فرانكلين تجاربه على الشرر الكهربائى حاول أن يجد لها صلة بالطبيعة فاختبر البرق وحين نفكر في مستصغر الشرر الذى تظهر به ط. ن. م في نتائج اختبارات الزهر نذكر ما نشر عن الحوادث المادية الخارقة مثل الانفجار الذى أحدثته سكين الخبز في منزل طبيب الأمراض النفسية الذى سبق ذكره، ثم يمر على مسرح الذاكرة طابور طويلمن الظواهر التى نشر عنها والتى لو صحت صلتها بـ ط. ن. م لاحتاجت لقدر كبير من القوة رذا قيست بتلك اليت تظهر في تحريك الزهر، وهناك بعض من هذه الحوادث العنيفة التى لا يمكن للمرء أن يرفضها إلا لسبب كونها لا تجد تفسيراً طبيعياً، وليس غرضى أن أزكى قبول هذه الأحداث كحقيقة بل الغرض من أن أعبر عن الأمل أن يأتى فرانكلين العصر الحديث ويستطيع أن يقرر بالتجربة إذا ما كانت إحدى هذه الحوادث المادية يمكن أن تكون مظهراً لـ ط. ن. م كما وضح أن البرق من الكهرباء التى أظهرتها تجربة فرانكلين على طائرة الهواء الورقية.

وربما مج بعض القراء هذه الاستنتاجات التى يلعب فيها الخيال، كما قد يطلب البعض الآخر أن أزيد عليها، وكل سيعطيها من الأهمية ما يتفق وتفكيره، ولكن أهميتها تتوقف كثيراً على احتمال الوصول للتحكم في ا.خ.ا، ط. ن. م عن طريق تطور الاستيطان.

وهناك دليل جزئى على أن ا.خ.ا قد يدركها الشعور في بعض الأوقات، ولا يوجد أى دليل تجريبى على ذلك ولكن في كثير من الخبرة التلقائية بـ«بسى» تترك في نفس المدرك لها انطباعاً أو تأثيراً بأن ما شعر به صحيح، وكانت التجربة كلها تقريبا شعورية، وأبرز مثل لهذه الحالة في الإدراك المفاجيء والمصحوب بانفعال شديد على أن شخصاً عزيزاً قد لقى حتفه فجأة، وعلى غير ما يحدث في اختبارات ا.خ.ا فإن هذه التجربة التلقائية تكون في بعض الأحيان من الوضوح بدرجة أن أى قدر من الاستمالة لا يمكن أن يقنع من وقعت له بأن ما رآه كان حلماً أو اضطراباً في الخيال.

ومع أن هذا النوع من الحالات معروف، إلا أنه من الأنسب أن نعطى مثلاً عليه، فقد أخبرنى أحد زملائى في جامعة ديوك أنه حينما كان شاباً خرج في رحلة مع جماعة من الأصدقاء ليقضيا أسبوعا في رحلة ممتعة، ولم تتقضى بضع ساعات في الرحلة حتى شعر بأن شيئاً ما قد حدث في منزلهم وكان رجوعه معناه حرمانه من كثير من المتع المتوقعة من الرحلة ولكنه كان متأكداً من الحادثة التى وقعت في منزلهم لردجة أنه قرر رغم احتجاج رفاقه أن يعود على أعقابه، وحين رجع وجد منزلهم رماداً.

وحين نجد، كما وقع في هذه الحالة أن اليقين وصل من القوة إلى درجة تؤدى إلى تصرف لا يقره المنطق فلاشك في أن القلب تأكد مما حدث وصحيح أنه قد تحدث انطباعات خاطئة عن مثل هذه المآسى، خصوصاً في أشخاص يعوزهم الاتزان، ويجب أن نكرر مرة أخرى أننا لا

نعترف بأن مثل هذه التجارب التلقائية يمكن أن تقوم دليلاً على وجود حالة ا.خ.ا ولكنا على أى حال نقترح أنه لو كان ا.خ.ا يعمل في مثل هذه الحوادث المنوه عنها، كما يحتمل ذلك نتيجة لتجارب ا.خ.ا لكان وقوعه في هذه الأحوال – كما يحدث غالباً – أن ينبثق على عتبة الشعور في صورة واضحة لا يخطئها الفهم.

وغالبا ما تقع حوادث «بسي» التى تكون مصحوبة بمثل هذا الشعور باليقين في الأحوال المشابهة لها، فيستيقظ الحالم من نومه وهو على يقين من مغزى ما رآه في المنام وفي الغالب يصر على أن ما رآه لم يكن حلماً.

وقد أرسل إلى حديثاً أحد الأطباء هذه القصة: «السيد و. استيقظ في صباح ١٨ نوفمبر سنة ١٩٤٥ على صوت زوجته وهى تنتحب، ثم أخبرته أن «جاك قد مات» وكان جاك ابنهم المجند وكان على وشك العودة من منطقة المحيط الباسيفيكى، ولم يستطع السيد و أن يهدئ من روعها فاستدعى الطبيب الذى أعطاها مهدئاً، وبعد ذلك بخمسة أيام أى في ٢٣ نوفمبر حدث نفس الشيء واستدعى الطبيب أيضاً ولكن حالة السيدة كانت من شدة الاضطراب لدرجة استدعيت نقلها إلى المستشفي ليفحصها طبيب الأمراض النفسية، ولم يكن هناك سب لتوقع أخباراً محزنة عن جاك فالحرب قد انتهت، ورغماً عن ذلك فقد وصلتهم برقية في أمسية ٢٣ نوفمبر تخبر الأسرة المنكوبة أن جاك في طريق عودته قد قتل في حادث سقوط طائرة فوق جزر هاواى في ١٧ نوفمبر، وكانت السيدة

بعدما حدث في صبيحة ١٨ نوفمبر لا تتراجع لحظة عن اقتناعها بأن جاك قد مات».

إن الدراسة المستفيضة لمثل هذه الحوادث قد يكون لها أكبر العون في أبحاثنا، فنحن في حاجة للعلم بكل الحالات المقابلة التى يمكن أن نصل إليها لما يمكن أن ترشدنا إليه من حلول فمثلاً قد نخرج برأى له قيمته من معرفة أن كثيراً من حوادث «بسى» القوية تحدث إما في النوم أو في حالة قريبة منه، فيكون من السهل تحويل العمليات الشعورية التى تحتل المركز في مسرح العقل عن مكانها، أو أن حدود الاستبطان قد هبطت قليلاً. ونحن بلاشك لا ندقق، ومن المحتمل جدا أننا نستطيع الحصول على معونة قيمة فيما يختص بهذه المشكلة من علماء التحليل النفسى الذين ارتادوا تحليل الأحلام، وقد أظهر كثير منهم اهتماماً صريحاً بـ ا.خ.ا وخصوصا في حدوثه تلقائياً.

وبين آونة وأخرى يصرح أحد الأشخاص في اختبارات ا.خ.ا بإحساسه بشعاع من اليقين بصحة إجابته ويعبر عن ذلك بإيمان عاطى لا يترك أى شك في أن نظرة استبطان غير عادية قد حدثت فمثلا حدث أن وسيطة كانت تساهم في اختبار للجلاء البصرى كنت أقوم فيه أنا وزميل لى بتداول مجموعة الكروت على مسافة عشرين قدماً وراء ظهرها، وفجأة رفعت صوتها وقالت: «نجمة .. إن الثلاثة كروت التالية نجوم»، وقد كان انفعالها الواضح لشعورها الذى لا تستطيع تفسيره باليقين أقنعنا بأن هذه

الحالة لا عهد لها بها، ولكنها لم تتكرر، وقليل جداً من هذه الملاحظات كان يقع في التجارب.

وعلى أى حال، فهذه الاستجابات القليلة النادرة للاختبارات، لو أخذت مع الحوادث التلقائية لأشارت بأن اندفاع ا.خ.ا إلى حيز الشعور قد حدث مراراً، وأن كل ما هو مطلوب هو إيجاد طريقة تحفظ هذه النافذة الاستيطانية المهتزة مفتوحة لوقت أطول.

وعلينا نحن المجربون أن نركز جهودنا بقوة على هذا التحكم الشعورى إنها مهمة استراتيجية فلو استطعنا أن نقوم بعدة أبحاث متقابلة تستهدف هذه المشكلة لانفتح باب الأمل في أنه قد يمكن أن نضيق الخناق عليه وأن نحصره في حيز محدود، وأحد مشاريع هذا البحث ربما قادتنا إلى دراسة حالات عقلية خاصة يحدثها الاستهواء، أو العقاقير، أو بالتدريب العقلى بشكل أو آخر وذلك كله بحثاً عن طريقة تهبط بعتبة الشعور فتسهل لـ«بسى» عملية العبور.

وهناك عدة مقترحات يمكن فحصها بهذا الخصوص، فمثلاً ذلك الطبيب الساحر أو الكاهن مثل سليمان داباً يمكن أن يعلمنا شيئاً، وكما سبق القول فإن الثقة النادرة يعزوها المراقبون إلى أولئك المجربين الأميين ويحدثنا عالم الأجناس البريطانى جيوفرى جوررفي كتابه «إفريقيا ترقص» عن معلومات تفصيلية وثيقة أعطت له في زيارة قام بها هو وتابعه بنجا لكهنة وطنيين على ساحل إفريقيا الغربية.

«فقد راعينا ومترجمنا مع الكهنة، وبعد لحظة عاد إلينا وقال لى: «هل تعيش في بيت أبيض على تل تحوطه الأشجار، ولك أم وأخوان يتمشيان الآن بين هذه الأشجار «وهو وصف كاف لمنزلى وعائلتى، ومن المحتمل جدا أنهم في هذا التاريخ ٢٣ يونيو كانوا يتمشون في الحديقة في المساء»، ثم التفت إلى بنجا وقال له: «ليس لك بيت وفي المكان الذى تظن أن لك فيه بيتا يوجد أناس كثيرون، وأختاك بخير ولكن زوج أمك المتوفاة قد سقط صريح المرض الشديد منذ يومين، ولكنه سيشفي على أى حال قبل أن تلقاه ثانية، وكان هذا صحيحاً في جميع تفاصيله: ففي ٢٣ يونيو أصاب زوج أم بنجا مرض شديد كما تبينا ذلك عند رجوعنا إلى داكار وكان في دور النقاهة قبل أن نعود، ولقد كنا على مسافة تزيد على الألف ميل من داكار في ذلك الوقت ولم يكن قد وصلنا أى بريد من هناك لمدة تقرب من الشهر، ولو أن مكالمة تليفونية قد تمت مع بيته لما استطاعت أن تأتى بمثل هذه المعلومات الدقيقة التى وصلت بنجا».

إن الاحتمالات الموجودة في هذه الحالات الشديدة الغرابة يجب أن تستطلع تماماً، وإن تحديها لمن النوع المثير، ولكن يجب في نفس الوقت أن نحث الخطى في تلك البرامج التى بدأها بنجاح الدكاترة همفرى وستيوارت وشميدلر، وإن برنامجهم لحصر الخصائص للشخصية الملازمة لمستوى الإصابة العالى والواطى في اختبارات «بسى» قد فتح باب الأمل إلى طريق التحكم في عملها.

وهناك اقتراح آخر مغرى.. وهو أنه إذا كنا نتعامل مع عمليات لا شعورية فلماذا لا نستفيد بالاستجابات اللاشعورية لنسجل الانطباعات الرئيسية الدالة عليها ونسير في العملية بكاملها في ميدان اللاشعور؟

فإذا كان الوسيط يحصل على المعرفة الآتية عن طريقة ا.خ.ا بطريقة لا شعورية فلندعه يسجلها بحركة العضلات اللاشعورية، وهناك عدة عمليات تلقائية «أتوماتيكية» «١» يمكن الاستفادة بها في هذا الغرض مثل الكتابة الأتوماتيكية، واستعمال لوحة أوجا «٢» أو العصا السحرية، وقد تم بعض الفحص الجدى لقيمة هذه الوسائل الأتوماتيكية في الاستجابة، ولكنى أعتقد أنه من المعقول القول بأن عالم الحركات الذاتية أو التلقائية – أتوماتزم– يصلح لدراسة تجريبية جامعة في ضوء الطرق والمعايير الحديثة والعلم بالبراسيكولوجى.

ومن العدل أن نقول إن أحدا في ميدان الباراسيكولوجى كان يستهدف التطبيق العملى، فمثلاً هذه الاعتبارات قلما نفكر فيها، وقد شرحت في صدر الكتاب كيف أن ميدان الباراسيكولوجى قد افتتح نتيجة للاهتمام الخاص فيما قد يلقيه من ضوء على طبيعة الإنسان، وهذا الهدف بالنسبة لنا نحن المشتغلين في هذا الميدان يسمر فوق أى اعتبار لما ينجم عنه من فوائد علمية.

وكما سأحاول أن أوضح في الفصل التالى، فحق هذه المكتشفات التى استطعنا الوصول إليها حتى الآن فيما يختص بطبيعة الإنسان تستطيع أن تقف على قدم المساواة في مغزاها الاجتماعى مع الفوائد المأمولة لـ«بسى» والتى صورناها بريشة الخيال.

الفصل الثانى عشر

الآثار على العلاقات البشرية

إذا قورنت المكتشفات التى سردناها في هذا الكتاب بما نتوقع أن يكتشف لبدت هزيلة، فكل اكتشاف وصلنا إليه آثار من المشكلات أكثر مما أدافه من حلول، فلقد كنا نفتتح حقلاً جديداً للبحث ولم نكن مستفيد حقلاً قديماً، وكانت أبحاث «بسى» استطلاعية أكثر منها تفسيرية.

فقد اكتشفنا أن هناك قدرة على الإدراك خارج نطاق عمل الحواس، وهذه القدرة الخارجة عن الحواس يمكن أن تمهد لنا العلم بالحالات الموضوعية بصفة مؤكدة مع احتمال معرفة العقل، ونحن الآن نعلم أنه لا الزمان ولا المكان بذى أثر على هذه العملية وإن كان أثرهم معروف على كل الظواهر المادية ومن هذا يبدوأن العقل في عملية ا.خ.ا يخرج عن نطاق المادة كما يخرج عن وساطة الحواس، فهى عملية لا تعتمد على أى نوع من القوانين المادية المعروفة أو التى يحتمل أن تخرج من الفيزياء الزمانية المكانية القائمة في العصر الحديث.

ففي ط. ن.م يتفاعل العقل مع الهدف نفسه بطريقة تبدو غير مادية ولكنها تحدث آثارا مادية، وأكثر من ذلك أن ط. ن.م تتكامل

كأحسن ما يكون التكامل مع ا.خ.ا والاثنان يكونان عملية «بسى» وهذه بدورها تنسجم مع العقل المادى للفرد، هذا إذا استبعدنا العمليات الحسية والعضلية القريبة من العمليات الوظائفية للأعضاء الفسيولوجية من الصورة وبعبارة أخرى فإن ظاهرتى ا.خ.ا، ط. ن.م ما هى إلا مظاهر للشخصية العادية تحت الظروف التى يفرضها الاختبار.

وأبحاث «بسى» تظهر أن العقل الإنسانى الطبيعى يمكن أن يتخطى الحواجز المادية تحت ظروف معينة، فالعقل يتفاعل مع المادة تحت ظروف معينة، فالعقل يتفاعل مع المادة فعلا لا فيما يختص بالصلة بين الفكر والمخ فحسب بل أيضا صورة اتصال بالأشياء الخارجية في تجارب ا.خ.ا، ط. ن.م ومع ذلك فهذا الفعل النفسى المادى لا تنطبق عليه القوانين المعروفة بعلم الفيزياء «الطبيعة» ويبدو أنه يخضع للقوانين الحاكمة المعروفة فعلاً في الدوافع الإنسانية، فهى تعمل كما نتوقع للعقل أن يعمل ولكن لا كما تعمل المادة، وعلى ذلك فقد وضح الفرق بين العقل والمادة وهذا ازدواج نسبى عن طريق تجارب «بسى» وسواء أردنا أو لم نرد فالدليل أصبح قاطعاً.

ومع ذلك فالتفاعل نفسه بين العقل والهدف يحيلهما عملياً إلى نظام واحد ويؤيد الازدواج القائم، كذلك العقل والمخ يجب أن يتكاملا حينما يتفاعلان مع بعضهما في العمليات العادية للخبرة ويحتمل أن المشاركة في العمل بين ما نسميه عقل وما نسميه مادة تحدث نتيجة لوجود خواص مشتركة، فالفعل النفسى – المادى يحتاج إلى حدود مشتركة يمكن أن نقول

بوجودها استنتاجاً فقط، وقد تكون نوعاً من «القارة الغارقة» «تشبيه بالزعم القائل بوجود قارة غارقة اسمها اتلانتيس» في سببية الظاهرة ويلزم لاكتشافها عمل جسات «تشبيه بالجسات الهندسية لقياس الأعماق» خاصة لم تتيسر للعلم حتى الآن، وعلى أى حال فمن البداهة افتراض ضرورة وجود أساس مشترك يقوم عليه التفاعل النفسى المادى، طالما أن هذا التفاعل يحدث.

وإثبات أن العقل يختلف عن المخ في بعض النواحى الرئيسية مما يؤيد النظرية الروحية للإنسان، وهذا يعنى أن العقل عامل قائم بنفسه في الهيكل العام للشخصية وعلى ذلك فإن عالم الفرد لا يتركز تماماً في العمليات العضوية للمخ المكون من المادة.

وقد استعملنا في البداية عند الكلام على المشكلة الأساسية لطبيعة الإنسان كلمات عن النظرية الشائعة للروح لأن في هذا عوناً على تحديد المشكلة، وذلك أقل إدراك لمعنى الروح تماماً كما نقول إن العقل جهاز غير مادى، ولكن هذا المعنى ربما كان المعنى الوحيد للكلمة الذى يفهمه العالم، وبالطبع لدى علماء الدين كأفراد معانى أخرى للكلمة ولكنا لا نستطيع أن نعالج هذه المعانى هنا والمشكلة هى «هل هناك شيء خلاف المادة، أى روحى، في طبيعة الإنسانى؟

والجواب الذى تمليه الدراسة التجريبية هو بالإيجاب، فلدينا الآن الدليل عليأن هذا العامل الخارج عن المادة موجود في الإنسان، ونظرية الروح كما حددناها قد تثبت بالمعنى الذى حددناه بها، ولم نقصد بالروح

المعنى الخارج للطبيعة أو الأصل العلوى لها أو انتقالها بين العالمين أو خلودها فالحق الذى يقال هو أننا لم نلمس إلا حقيقتها الأولية «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً»، «المترجم» ولن ندخل هنا في الخضم الذى دبجه التأمل من النظريات المتصلة بالروح والتى تكونت على مر التاريخ الطويل للعقائد وما كان من الممكن أن نخوض فيه بأى حال حتى يتضح لنا أن هناك شيئا يسمو على المادة في كنهه وموجود في الإنسان.

وما اكتشفناه يمكن أن نطلق عليه الروح السيكولوجية أو النفسية، وهذا الوصف ينفع مؤقتاً ليميزها عن المعنى الدينى للروح، صحيح أنه حتى الآن لم يبد أى تعارض بين المعنى السيكولوجى والمعنى الدينى للروح.

ولكن المعنيين يختلفان حينما نصل إلى المنطقة التى لم ينقب العلم فيها بأساليبه ويجب أن نؤكد أنه بدون قيام هذه النظرية المحدودة عن الروح فسيكون من ضعف الجدوى أن نسير في التنقيب عن المظاهر الأخرى لنظرية الروح كما تقدمها تعاليم الدين.

ولذلك فقد كانت الخطوة الأولى – رغم تواضعها – ضرورية، وقد استطاعت أن تحسم إشكالاً لم تستطع ملايين المناقشات أن تحسمه، وهذه البداية تمثل انحسار المد الذى استمر ثلاثة قرون من تسلط النظرية المادية على العلم الخاص بطبيعة الإنسان، وسيكون لهذا أكبر مغزى ثورى ولو أن نتائجه ستكون بطيئة التحقيق– وهكذا الأيام لا تدور فجأة.

بقى بعد ذلك الموضوع الذى يهم الجميع وهو نتيجة التقدم العلمى الذى نحن بسبيله على ما يتوقع أن يكون من أثر على الصلات بين بنى البشر، ومن الواضح أن أكبر هدف اجتماعى هو قيام روابط أسعد بين الناس بتطوير نظام الحياة العالمى إلى ما هو أحسن، ورجال الأحاث يتزايد إدراكهم بالتدريج للضرورة التى تقضى بأن يقيسوا نتائج قرائحهم بمعايير أثرها الطيب على تقدم الثقافة في المستقبل.

بالطبع لا يمكن أن تقوم الروابط الطبية بين البشر على التسليم أو التخمين والحدث، إنما تقوم نتيجة لفهم كنه الإنسان، وقطب الرحى في كل العلوم المتصلة بالعلاقات الإنسانية يجب أن يكون علم النفس.

ولكن كر الغداة ومر العشى قد جعل هذا القطب ينحرف عن موضعه فبعد عن مركزه نتيجة للضغط الشديد عليه من مدارس الفكر المادية.

ولكن علم النفس الحق هو الذى سيتأثر من أساسه بالتطورات الجديدة التى حدثت في وليده الباراسيكولوجى «علم ما وراء النفسى، ويبدو عدلاً أن نقول إن هذا الأثر الإصلاحى لن يمضى عليه طويل وقت حتى يشب عن الطوق ليتغلب على الانحراف القائم، ولكن كم سيمضى من الزمن قبل أن يتحقق لك، فهذا مهم حقاً.

وكما هو الحال فإن اهتمام العالم بدأ يتركز على علم النفس السيكولوجى أشد من أى وقت مضى، فإن دراسة الطبيعة البشرية من كل

فروع المعرفة يجب أن يدفع بها إلى الأمام بقوة وحماس وبكل الطرق المتاحة، إذا كنا نريد أن نتفادى عالماً تسوده الفوضى اليت حذرنا منها وذكرتنا بها القوارع، وهناك من المفكرين من يخشى أن يكون القطار قد فاتنا وإن جهلنا بالقوى التى تعمل من داخلنا فيه حتفنا قبل أن نتداركه بالإصلاح أو نتخذ من الإجراءات ما يعالج نتائجه المرعبة.

وقد حان الوقت للتطورات الضخمة التى عالج علم النفس من جذوره وبقيام النظرية الروحية للإنسان يعود علم النفس – السيكولوجى – بمعنى أوسع إلى أن يكون علم الحياة العقلية – وبذلك يعود الإنسان كإنسان إلى ضوء المسرح في علم النفس بدلاً من أن يكون في صورة دمية مسلكية «نسبة إلى علم النفس المسلكى» أو إنسان آلى يحركه مخ وهى الصور التى كان قد مسخ إليها.

وكذلك سيتحدد الآن مجال الدراسة المميز لعلم النفس، فلن يكون امتداد فقط لعلم وظائف الأعضاء «الفسيولوجيى» فالعلم الخاص بالنفس له مبادئه المميزة وقوانيه وحدوده الواضحة المعالم وفوق ذلك تفرده ومجاله الصحيح يبدأ حيث ينتهى علم وظائف الأعضاء، الحسية الحركية أما إلى أين ينتهى فلا يستطيع كائن حى أن يتنبأ به.

وسيرحب الكثير بهذا الانتقال لمركز الثقل في علم النفس، وأغلب هؤلاء من بين صفوف العاملين بين الناس والذين يتلهفون على حسن الفهم لهم، وسيتجاوب علم النفس فعلياً مع احتياجات الثقافة في العصر

الحديث، وسيبدأ في فهم الناس كما يعيشون حياتهم، لا كأشباه لأجهزة مادية معروفة.

وأكثر من ذلك فسيفهم الناس علم النفس ويستعملونه ويفيدون منه وكل الميادين البشرية الواسعة كالدين والتربية والصحة والعقلية والاقتصاد ونظم الحكم وعلم الأخلاق يجب عليها هى الأخرى بدورها أن تتجاوب مع التطورات الجذرية التى لا محيص عنها في علم النفس تماماً كما فعل الطب منذ أجيال قلائل حينما تجاوب مع الاكتشافات البيولوجية الثورية عن العدوى بالميكروبات.

ونستطيع هنا أن نتبع الآثار المترتبة على تركيز علم النفس حول الروح على جميع الروابط البشرية التى ستتأثر بذلك، ولم يعدْ لدينا متسع إلا لموضوعين هما معنى المكتشفات الجديدة في الباراسيكولوجى بالنسبة للدين وبالنسبة للأخلاق.

فإن ما اكتشفته الباراسيكولوجى عن الإنسان يؤثر بصفة مباشرة على الدين فتأييدها المبنى على أساس من التجربة للمعنى الروحى في الشخصية وهو ما كان يأخذه الدين كقضية مسلمة يبرز أهمية الباراسيكولوجى للدين، فيدون صعوبة كبيرة نستطيع أن نحيل معظم العقائد الرئيسية في الدين إلى مشاكل تجريبية في الباراسيكولوجى، فكلاهما يعالج مشاكل وعقائد تتركز في العوامل الشخصية في الكون والتى لا يعترف بها العلم المتزمت وكلاهما يهدف إلى اكتشاف واستغلال كل قوى الشخصية وقدراتها التى يمكن أن تعين الناس على حياة أفضل فيما بينهم،

والعلاقة بين الباراسيكولوجى والدين، من الوجهة النظرية، تشبه إلى حد كبير بين علم وظائف الأعضاء– فسيولوجى – والطب، أو علاقة علم الطبيعة الفيزياء والهندسة.

وإلى هنا وتأثير الباراسيكولوجى على الدين تأثير بناء وأقصى ما نستطيع قوله هو أن اكتشاف الدليل على أن الإنسان أكثر من مائن مادى يؤيد ويدعم العقائد الأساسية والعامة في الدين، وهى أن للإنسان طبيعة روحية وبالطبع قد لا يشعر رجل الدين الشديد التحفظ والذى بلغ إيمانه بالمراجع الدينية لشيعته حداً قوياً بزنه ليس في حاجة إلى هذا التأييد من ناحية العلم أو أن هذا تطرف قد لا يفيد كثيراً، ولكن غالبية المفكرين من الرجال والنساء والذين ذاقوا المعركة الفكرية حول الذين سيرحبون بأى دليل طالبعه التجربة الصحيحة السليمة ليقدم لهم الحقيقة عن أى معتقد دينى أساسى.

وفي الواقع فإن كثيرا من الناس يحبون أن يعرفوا إلى أى مدى يمكن أن يذهب العلم وهل هناك من العقائد السائدة في الدين ما يمكن أن يدعمه البحث العلمى، فقد رأوا في كل ميادين التنظيم والتطبيق كيف كانت الطريقة العلمية منتجة إلى أبعد الحدود وليس هناك من سبب لأن ننظر فقط للوراء في منابع العلم القديمة في مجال الدين ولا نتجه للأمام وماذا يكون موقناً وفعلنا ذلك في مجال الزراعة مثلاً، وغرابة المنطق في هذا الرأى تبدو لو أننا اتجهنا نحو القدماء نطلب منهم العلم بالقوانين الهندسية التى نستعملها في بناء الكبارى أو أجهزة الراديو وآلات الأشعة السينية

فما بالك بما هو أهم من ذلك بكثير جداً ألا وهو هندسة حياة الإنسان على أسس دينية، والتعليم والطب العقلى مثلها مثل الدين في الاهتمام بمشاكل الناس، وكلاهما مستمر في تقدم وفي توسيع رقعته بالإفادة من الطرق العلمية في الاكتشاف، فهل يليق بالدين ومشاكله أعظم منها أن يقل عنها في جهوده في هذه الناحية.

والواقع أن الباراسيكولوجى قد غزت ميدان العلم، ولا يمكن لأى أن يفترض أنها ستقف مكانها وخصوصاً أن القدرات التى عالجناها وهى ا.خ.ا، ط. ن.م ستجرنا بطريقة طبيعية إلى مشاكل باراسيكولوجية تمس المعتقدات الدينية في الصميم، فمثلاً في ميدان الدين وخارجه يتسائل الناس عن دور ا.خ.ا في الصلاة، وكل ما يمكننا قوله وكإجابة ممتعة على هذا السؤال ما ورد في كتاب جيرالد هيرد «مقدمة للصلاة« وهيرالد يعطى ا.خ.ا دوراً إيجابياً كبيراً في نوع من الأنواع الثلاثة اليت قسم الصلاة إليها وعالجها في كتابه، وكذلك الدكتور فرانك سى. لوباخ، يتحدث عن هذه العلاقة في كتابه الأخير «الصلاة» أما الدوس هكسلى فيتكلم بصفة عامة فيحمل مكتشفات الباراسيكولوجى مباشرة إلى صميم بعض هذه المسائل الكبيرة في الفكر الدينى في كتابه «الفلسفة المعمرة».

وحتى البحث الجارى الآن في الباراسيكولوجى يمس مسائل أخرى مهمة في الدين فإذا كان عقل الإنسان شيئاً غير مادى فمن الممكن تكوين صورة عن نظام غير مادى أو عالم غير مادى يجمع كل تلك العقول في عروة وثقى، وهذا يجرنا إلى صور من التأملات عن نوع من الروح الشاملة

أو الجامعة أو المتسلسلة أو المكونة لعالم له نظامه وقوانيه وخواصه وإمكانياته ويمكن أن يتصور المرء أن هذا الهيكل الكبير المتكامل تفرداً يسمو على طبيعة الأفراد المكونة له حتى ليسميه البعض لاهوتا.

أما في مشكلة الخلود فكثيراً ما يلتقى الدين والباراسيولوجى.

وهذا الموضوع قديم نسبياً بالنسبة لبقية الأشياء وذلك في علم الباراسيكولوجى الحديث فمنذ البداية حاولت جمعيات المباحث الروحية أن تعالج هذه المشكلة وهى بقاء الإنسان بعد موته الجسدى وبهذا تجد حلاً للمشكلة، وكانت جهودهم مركزة بصفة خاصة على تحليل وتفسير «الرسائل» الواردة عن طرق الوسطاء الروحيين، والمزعوم أنها آتية من الأرواح، وفي خلال خمس وسبعين عاماً من دراسة الوسطاء اقتنع قليل من العلماء العالميين الأعلام وعدد كبير ممن يقلون عنهم في المرتبة بأن الرسائل – أو على الأقل بعضها –تعطى بكل تأكيد دليلاً على استمرار البقاء لشخصيات ماتت ولأرواح بدون أجساد.

ومهما كان فإن هؤلاء العلماء الكبار لا يمكن أن يعتبروا حل في مشكلة البقاء بعد الموت ولا يغيب عن ذاكرتنا أنهم قبلوا الأدلة الأولى على وجود التلباثى والتى اتضح بعد ذلك أنها يمكن منطقياً أن تعزى إلى الجلاء البصرى وحده، وتدخل ميلهم الأكيد للإيمان في تفسير الأدلة على التلباثى وربما لعب استعدادهم غير المناسب للتسليم في قرارهم المؤيد لقضية البقاء، وفي الحقيقة كان هناك آخرون فسروا الدليل نفسه على أنه قدرة من الوسيط الروحى على ا.خ.ا بالإضافة إلى قدرة الوسيط على

الانفصال بسهولة «كأن تذهب في غيبوبة مثلاً» ورغبتها في استحضار رسائل ودية لتعزية زبائنها وموهبتها التمثيلية على لبس الشخصيات.

ومشكلة البقاء أو خلود الروح مشكلة صعبة جداً جداً، حتى المشكلة نفسها من الصعب تحديدها بوضوح لأن الناس تفهمها على معانى مختلفة حتى لو استعملت نفس الألفاظ ولكى نتحاشى الغموض في التعبيرات الذى يدعو إلى اليأس فيجب أن نضع المشكلة في أبسط صورة على هيئة سؤال:

هل يبقى أى جزء من الشخص بصورة يمكن اكتشافها بطريقة ما لمدة ما من الزمن بعد موت الجسد؟

وحتى بعد هذا التبسيط في السؤال فلا تودج إجابة عليه، كما أن الإجابة بالسلب بطريقة موثوق بها تكون من الصعوبة بمكان إن كان هناك احتمال لوجود هذه الإجابة، ولكن من الصعوبة بمكان أيضا أن تجعل لمثل هذا الدليل الإيجابى الذى حصلوا عليه أى قيمة، فبعضه يبدو أنه من المعقول جدا تفسيره في صالح نظرية بقاء الروح، ولكن هذه النظرية ليست كل التفسير المنطقى للدليل الموجود ولا يمكن أن يقطع بأن هذا الدليل حاسم إلا حين يكون الدليل على البقاء من القوة بحيث يستبعد معه كل الاحتمالات الفكرية الأخرى مهما بدت متعسفة، وهذا هو المستوى والمعيار الذى كان على التطورات الأخرى في علم الباراسيكولوجى أن ترتفع إليه قبل أن تكون على استعداد لقبولها كحقيقة ثابتة، ولكن البحث

الذى أجرى على مشكلة البقاء أبعد بكثير من هذا المستوى في الوقت الحاضر ومع ذلك فلا يمكن تجاهله.

ولقد عملت أبحاث «بسى» الكثير لمشكلة البقاد، فمن ناحية نجد أننا كلما توسعنا فيما نعلمه عن عمليات ا.خ.ا، ط. ن.م كلما أصبحت نظرية البقاء أكثر قبولاً عقلاً وفي الوقت نفسه يزيد البحث فيها صعوبة وهذا الأثر المتضارب لأبحاث ا.خ.ا، ط. ن.م يحتاج لبعض التفسير فكثير من أولئك المهتمين جدًا بمشكلة البقاء لا يقدرون الصلة بينها وبين ما اكتشف عن ا.خ.ا، ط. ن.م القدر الكافي وبعضهم ينفذ صبره لأننا لا نكرس أنفسنا فوراً وبدون تحفظ لمشكلة البقاء.

تأمل أولا وجه التأييد من أبحاث ا.خ.ا، ط. ن.م لنظرية البقاء، فإذا كان المنطق وحده هو الذى يحكم الموقف لكان في الدليل على ا.خ.ا الدليل الكافي على نظرية البقاء من الوجهة المنطقية، ولكن لا يغيب عن الذاكرة أنه حينما اكتشف أن ا.خ.ا يعمل بدون حدود من الزمان والمكان كان معنى هذا الاكتشاف أن العقل يستطيع العمل مستقلاً إلى حد ما عن النظام الزمنى المكانى في الطبيعة، والآن فكل ما تعنيه كلمات الخلود أو البقاء أوعدم هو التخلص من آثار الزمان والمكان فالموت يبدو أن بنوع ما مسألة توقف في عالم الزمان والمكان وعلى ذلك فالحكم بأن هناك نوعاً من البقاء الفنى على الأقل يمكن أن تكون نتيجة منطقية من أبحاث ا.خ.ا.

ونحن نعرف أننا لا يمكن أن نعتمد على الحوار الأكاديمى للإجابة على مثل هذا السؤال – أو بالأحرى يجب أن لا نعتمد عليه بعد الآن ونستطيع القولأن أبحاث ا.خ.ا تثير بطريقة مباشرة مشكلة المكان الذى تحل فيه الشخصية في نظام الزمان والمكان وأنها تقدم لنا اقتراحاً إيجابياً في مصلحة البقاء، وحتى لو لم يكن تحديد سابق لمشكلة البقاء لاثارتها أبحاث ا.خ.ا و ط. ن. م، وكان لابد أن يكون حالها على ما هو عليه مهما كانت الطريقة التى عولجت بها، فأولاً يجب أن نعرف الحدود والملابسات التى تحيط بعمل «بسى» قبل أن نخطط من التجارب ما يكفي لمعالجة نظرية البقاء أو الحياة بعد الموت، فبعد أن نحصل على الدليل على شيء أبعد مدى في تفسيره من ا.خ.ا و ط. ن. م فمن هنا فقط تبدأ قضية البقاد، وعلى ذلك فقد كان في الماضى يستحيل قيام بحث شامل منظم على مشكلة البقاء بسبب الجهل بكل من ا.خ.ا و ط. ن. م ومع ذلك فلسنا حتى الآن على استعداد لحملة تجريبية على هذه المشكلة ولكن الدراسة المبدئية الطويلة للطرق التى تلتزم لمعالجة مشكلة البقاء يستحسن أن تبدأ الآن.

وهناك صلة أخرى مهمة بين ا.خ.ا و ط. ن. م والحياة بعد الموت، فإن لم يكنْ هناك القدرة على ا.خ.ا و ط. ن. م في بنى البشر لكان من الصعب تصور مكان البقاء بعد الموت وبالتأكيد كان يستحيل اكتشافه فهو على علاقة ظهور لنشاط غير مادى للعقل، والإدراك وحيد الممكن في حالة فناء الجسد هو الخارج على الحواس، كما أن الطاقة النفسية المحركة ستكون هى الطريقة الوحيدة للتأثير على أى جزء من العالم المادى.

وحتى لكى يتصل عقل الإنسان بعقل حى فلابد من احتمال تدخل ط. ن. م والتلباثى أو انتقال الأفكار تبدو أنها الطريقة الوحيدة للاتصال بين الأموات والأحياء أو بينهم وبعض.

ومن هنا يظهر كيف أن الأزمة الحديثة حول التلباثى «ذكرت في الفصل الخاص بالتنبؤ» كانت من الأهمية بمكان وكيف أنه من الضرورى أن مثل هذه المسائل يجب جلاؤها تماماً قبل أن نحاول أن نلتحم بالمشكلة الكبيرة المعقدة مشكلة البقاء بعد الموت.

ويجب أن نوفر كل عناصرالتأييد والتشجيع في معالجة مشكلة البقاء حتى يمكن التغلب على الصعاب القائمة فيها، ومما يعين علي رعاية المشكلة بشكل هائل لو أننا أزحنا من أمامها المصاعب الفكرة أولاً، وهذه الخطوة المبدئية ليست خطوة سهلة علي أى حال لأن الدليل على المطابقة الوثيقة بين النشاط العقلى والكيان الجسدى تتحدى بشكل قاس نظرية البقاء، فحين يقوم الطالب بدراسة علم الحياة ويرى التطور الطويل الذى مربه الجهاز العصب يويرى الصلة الوثيقة بين العقل وتطور الأنسجة المختصة في المخ وحين يكتشف هذه المطابقة الوثيقة في التطور العقلى المخى في الطفل، وحين يعلم كيف أن النطفة ووظائف الأعضاء تقرر شخصية الفرد يصعب عليه جداً أن يرى كيف يمكن للعقل أن يستقل بنفسه بأى طريقة أو إلى أدنى الحدود.

فالبقاء بعد الموت حيال علم الحياة الحديث يبدو من المستحيل تصوره ورغم ذلك فالصحيح أن بعضاً من أولئك الذين آمنوا بنظرية البقاء

كانوا من الدارسين طبياً لعلوم الحياة بصفة خاصة، كما يجب أن نذكر أيضا أنه في بعض مراحل البحث تبدو بعض النظريات مستحيلة ثم تصبح بعد ذلك معقولة مفهومة حين تظهر حقائق أخرى، فمثلاً لم يكن هناك شيء يبدو مستيحلاً في نظر العالم النفسى العادى منذ عدة أجيال مضت مثل بعض ظواهر التنويم المغناطيسى ولم يتردد لحظة في أن يحكم عليها بأنها دجل، وهذا ما حدث أخيراً مع ا.خ.ا و ط. ن. م ومع ذلك ومع ما كانت تبدو عليه هذه القدرات من استحالة، فقد أمكن إظهارها بمظهر القدرات الطبيعية المألوفة، وإذا كنا نتوقف دائماً أمام ما يبدو مستيحلاً فما كنا لنتقدم بعيدا في العلم، فمشكلة البقاء يجب أن تظل مفتوحة للبحث بالطريقة العلمية، ولن تواتينا الجرأة على إهمال مسألة بمثل هذا الخطر.

ولكن البحث في هذه المشكلة يحتاج قطعاً إلى طريقة جديدة، وهذه حاجة ملحة فبدونها سيظل البحث في مشكلة البقاء غير حاسم، فالارتباك والالتباس الذى يصاحب القيام بتحليل ما يقوله الوسطاء الروحيون قد حير – إن لم نقل هزم –كثيرا من الباحثين، وتحليل سجلات الوساطة الروحية كان ينقصها الكثير من الضمانات والضط المحكم لدرجة تجعل الوصول إلى حكم عليها الآن عملية خطرة، ومع أنه لا أمل في أن تصل إلى ما يعادل اختبار ا.خ.ا بالكروت أو اختبار ط. ن. م بالزهر، ففي إمكاننا أن نعمل الكثير لتبسيط وضبط الدراسة التجريبية للوساطة الروحية، وهذه الدراسة المبدئية للطرق يمكن أن تبدأ دون إبطاء في التخطيط القادم لرفعة ا.خ.ا و ط. ن. م.

وأحسن خطة لمشكلة البقاء تطلب الحملة عليها من عدة نواحى والمستكشفون لهذا الميدان يجب أن تكون لديهم الحرية في العثور على أى ظاهرة تتصل بالبحث في أى مكان كانت – وربما كلما أوغلنا في البداوة «الناس على الفطرة» كلما كان ذلك أحسن، فعلماء الأجناس يحدثوننا عما يبدو لهم كأنه من اصطناع العفاريت والأفراح بين أقوام متوحشين فمن الطبيعى أن نرحب بكل الفرص في دراستنا المبدئية، فإن صحت حالة من عشر حالات أو حتى من ألف حالة من تلك الحالات وكان لها ثماراً حقيقية فإن ثمنها لا يقدر، فإن كان التقرير عندها جدياً ومع التسليم بصحتها، فيجب أن تفحص وتبحث، والحياد العلمى يؤدى إلى الاستعداد لكل ما لم يكن متوقعاً في النتائج.

وهناك ثغرة أخرى في مشكلة البقاء، وهى تتصل بتحليل التقارير المكتوبة عن الأنواع المختلفة من التجارب الباراسيكولوجية التلقائية والتي تحمل أى إشارة توحى بعمل من قبل الأرواح، وعلينا بالطبع أن نجمع التقارير من كل نوع عن هذه التجارب وأن نكون متيقظين لكل قد عديم النظير منها منتلك التى توحى بصفة خاصة إلى أعمال شخصيات فنيت أجسادها، ولكن يجب أن تكون على حذر من أى ميل للاعتماد على هذه التقارير كدليل قطعى حاسم، ولكن بالدراسة المقارنة لها يمكن أن نرى كيف أن أشياء معينة يبدو أنها تحدث وهذا ما يؤدى بنا في النهاية إلى أن نقدر على تخطيط وسيلة جديدة لمعالجة الموضوع يكون لها الطابع التجريبى لوضع الفكرة موضع الاختبار.

ولدينا خطط أخرى يمكن أن يعقد عليها نفس الرجاء ولو أنه لا يمكن شرحها باختصار ويحدث باستمرار أن الطرق والأساليب تتزايد وتضاعف كلما سار البحث الاستطلاعى في طريقه قدماً.

وأى نوع من أنواع البقاء لأى جانب من جانب الشخصية ولأى مدة من الزمن له مغزى بالنسبة للتفكير والشعور الإنسانى لدرجة تغطى على اكتشاف علمى لو قورن به، وما عليك إلا أن نتأمل إلى أى مدى سيتسع إدراكنا للوجود بالنسبة لما نعرف عنه في الحاضر، ولا حاجة بنا للتوسع وأن لم نبالغْ في أهمية نظرية البقاء، فبقاء هذا الاعتقاد طويلاً وعلى أساس الإيمان وحده دون تأييد شهادة بليغة بفائدته الثقافية وقيمته الاجتماعية – وهذ القيمة يمكن أن تصبح فعالة على أى حال في حالة حصولها على التأييد العلمعى الصحيح فقط.

ولكن تأمل أيضا الوجه الآخر للمسألة إذ يجب أن تواجه بما يترتب على المسائل ونتائجها، ماذا يمكن أن يحدث إذا كانت نتيجة الأبحاث المستفيضة الدقيقة المنوعة على المشكلة الفضل في العثور على دليل على البقاء؟ والنتائج السلبية لا تستطيع إطلاقاً أن تنفي البقاء، ولكن النتيجة أن ييأس الجميع إذا لم يؤد البحث الطويل إلى وجود دليل، فإن حديث هذا فهناك شيء مؤكد وقوعه، ففي الوقت الذى نصل فيه إلى ملء جميع الفراغات لنكمل معارفنا الحالية المتناثرة والتى تتصل بالعقل البشرى شاملة لنظام ا.خ.ا، ط. ن. م الذى يعمل عبر الزمان والمكان، فيكون لدينا نظام من القوى والخواص قد انتظم عقده بطريقة بديعة لدرجة أن هذا المطمح

الخاص بالبشرية نحو الخلود لن يفتقده أى فرد طويلاً– فستتسع نظرة الإنسان والمجتمع الثقافية وتنمو وتتغير ملامحها بما لا يقاس نتيجة لما يتم من مكتشفات مهما كان الاتجاه الذى تنتحيه فسينضج البشر ويشبون على نظرة للعالم توائم مجموعة الحقائق الواسعة والتى تزيد اتساعاً بالأبحاث.

فإذا كانت اكتشافات المستقبل تمنع من أى احتمال لقبول نظرية البقاء فيمكن أن نتنبأ ونحن مطمئنون بأن نظريات البعث بجميع أنواعها لن يعبأ بها أحد أكثر من الأفكار الماضية عن الملائكة ذوات الأجنحة.

وعلم الطبيعة البشرية مازال حدثاً، وكميدان ومجال فقد استوى عوده للمكتشفات العظيمة المقبلة، وقد يكون البقاء أحد اكتشافاته الكبيرة وقد لا يكون فهناك أدلة كثيرة يبدو أنها تؤيده، ولكن ليس بينها دليل واحد حاسم من النوع الذى يتطلبه العلم، ومهما كانت نتيجة البحث، فالاحتمال المعقول هو أننا في هذا الوقت بالذات أبعد ما نكون عن تقدير طبيعة جسامة الصورة التى سيكون عليها عالم العقل كبعد الكيميائى القديم باراسلسس من تصور جسامة وعمل القوة الذرية أو بعد ابقراط من التنبأ بعلاجات مركبات السلفا.

وليس من الحكمة في شيء التمسك الشديد بآراء العصر حول مدى وقوة ومستقبل العقل السرمدى لأن ذلك رهم بالمكتشفات التى ستحدث في المستقبل.

وأخيرا نأتى إلى أشد المشاكل إلحاحاً في عصرنا الحالى، وهى الحاجة إلى آداب خلقية فعالة في عالم قد اختلط عليه الأمر في أخلاقه، وهذه الآداب يجب أن تنبنى على أساس يمكن أن نحترمه عقلياً.

وليس الأمر في حاجة إلى إقناع أحد أن هذا هو مطلب البشرية الأول، وقد قام كثير من الأصوات التى هى أبلغ من صوتى ومنذ زمن طويل بتأكيد هذا، والآن يستطيع أن يراها كل مفكر بنفسه.

إن «عدم إنسانية الإنسان للإنسان» قد أحاطها كثير من القيود الثقافية ورغم ذلك فمازالت القلق رقم ١ بالنسبة للعالم، فمازالت الخصومة منتشرة بين الناس والأمم وفي عصر كعصرنا نتضاعف القدرة على الشر إلى ما لا يخطر على قلب بشر، ولكنا على أى حال قد اقتنعنا أخيراً بأنه يجب علينا أن نجد طريقة نعالج بها علتنا الخلقية كما نجحنا قبل ذلك في علاج أمراضنا الأخرى وعلى أساس من العلم بدلاً من الرأى المفروض أو العاطفة أو التقاليد وطلبا لهذا العلم يجب أن نتجه لعلم الشخصية الإنسانية، وليس هناك من مورد غيره.

ومعاملتنا للناس تعتمد بوضوح على رأينا فيهم مثل معاملتنا لأى شيء آخر، وهى الطريقة الوحيدة دون سائر الطرق التى تتسم بالذكاء.

فشعورنا نحو الناس يتوقف على أفكارنا ومعلوماتنا عنهم، وكلما انسقنا في التفكير والنظر إلى إخواننا البشر على أنهم آلات متحركة، وأجهزة مادية جبرية أو أمخاخ فقط كلما سمحنا لأنفسنا بأن نتعامل معهم

بطريقة أنانية خالية من العطف، على حين أننا كلما زدنا تقديراً لحياتهم العقلية كشيء فريد في الطبيعة شيء خلاق أشد أصالة زدنا تقديرا لحياتهم العقلية كشيء فريد في الطبيعة شيء خلاق أشد أصالة من العلاقة الزمنية المكانية الوزنية للمادة كلما زاد اهتمامنا بهم واحترامنا لهم وتقديرنا لآرائهم وعواطفهم، وبذلك ترتفع معاملتنا المتبادلة للأشخاص إلى مستوى كريم من الاهتمام والفهم والزمالة المتبادلة.

وليس شذوذا في التاريخ أن نجد أن النظم العقائدية التى أعلت من قدر الإنسان وأضفت عليه من الخواص ما ارتفع به عن المادة هى النظم التى تنفرد بأنها رفعت من تقدير الإنسان للإنسان حتى أوصلته إلى مستوى الآخرة التى يسودها الاحترام، وعلى ذلك فكل ما يؤيد النظرة الروحية للإنسان من المعرفة الموثوق بها سيؤدى بوضوح إلى تدعيم الأساس لروابط أسعد بين البشر.

وبالطبع فإن الأخلاق تشتمل على أكثر من الميول المبادلة بين الناس، فكل نظام خلقى يعتمد على الحرية الفردية، أى الإرادة الحرة، ونصف السم الاجتماعى الكائن في النظرية التى تتركز علي المخ يأتى من الحقيقة في أنها لا تسمح للإنسان بحرية الإرادة كما لو أن عجلة في الة سمح لها بالسيطرة على بقية الآلة، فلكى تتوافر الحرية في أى جهاز أو نظام فلابد من أن يكون فيه جزء لا يتحكم فيه اخر، وهنا ينساب ضوء البحث على مشكلة العصور والأيام إلا وهى الحرية، لأن تجارب ا.خ.ا، ط. ن.م قد أوضحت أن العقل متحرر من قوانين المادة.

وفي الواقع فإن هذه الأبحاث تعطينا أساساً تجريبياً لنسبة يمكن أن نرضى عنها من الحرية التى يتمتع بها العقل في قيادته للنفس.

ومدى هذه النسبة من الحرية سؤال يقرره البحث القادم، وطبيعى أنه كلما اتسع هذا المدى كلما كبرت طاقة الفرد الخلقية وكلما زاد تحكمه في نفسه وقيادها، ولا نستطيع الافتراض بأننا قد أوفينا على الغاية من العلمع بكل قوانا، وكل إضافة جديدة في القوى والخصائص المميزة للإنسان تزيد من نسبة حريته بمجرد تميزها، وعلى ذلك فاكتشافنا بأن حياتنا العقلية تختلف أساساً عن تلك الصورة التى اعتاد العلم حتى الآن أن يرسمها يزيد في حريتنا الخالقة إلى حد كبير ويوسع أفق نمونا الشخصى.

ولكنا لن نستفيد تماماً من ذلك إلا إذا علمنا وقدرنا تماما هذه السيطرة التى للعقل على عالمه المادى الخاضع له، وفلسفتنا في الحياة تتأثر كثيراً بمعتقد زائف كما تتأثر بمعتقد سليم، فالإنسان قد يستعبده – إلى درجة اليأس – الجهل كما يستعبده الجبروت والظلم.

وبالطبع لسنا هنا بصدد البحث فقط عن نظام أخلاقى للفرد، وليس هذا بمطلبنا الأول حالاً، فعقولنا اليوم تهتم إلى أبعد حد بالصلات الإنسانية ذات الطابع الخلقى التى على مقياس واسع، فلقد انتهت الحرب العالمية الثانية – وانتهت بذلك أكبر مجزرة في التاريخ بعد أن لطخت وجه الأرض وصفحات التاريخ والعن من ذلك وأقسى ذاكرة البشر الحساسة، فالمفكرون ذوو العزم من الرجال والنساء ينادون بكل ما في نفوسهم من حرارة بأن هذا لا يجب أن يحدث مرة ثانية، وأن الذروة العليا من الخراب

التى حدثت في نجازاكى وما صاحبها من تردد الصدى عن أسلحة قد بلغت القمة في الكمال حينما انتهت الحرب، قد تركت البشرية في قبضة الأفكار السوداء فيما يختص بالمستقبل الخاص بالنوع الإنسانى.

فكنا نطالب بالسلام، ونحن في لهفة إليه نريده الآن، ولكن الناس لا يكافحون طويلاً من أجل الأهداف السلبية السلام في أحسن صوره ليس هدفاً إيجابياً، إنه انعدام الحرب وهذا كل ما فيه، والمخاوف الحية الآن في عقولنا تنتهى بمرور السنين وبعودتنا إلى أعمالنا المعتادة.

فالسلام رذن ليس هدفاً أولياً حقيقياً بالدرجة الكافية، إنه هدف أجوف وعلينا أن نملأه ونحصنه بالأهداف الإيجابية القوية وأقواها لن تكون قوته كافية ويجب علينا أن نطمع في شيء أبعد من السلام مع إخواتنا في البشرية، وإلا فشلنا حتى في الحصول عليه، ويمكن توضيح الأمر ببساطة – إذا لم نكره الناس ونحاربهم، فعلينا أن نتعلم كيف نعطف عليهم ونعينهم ونحبهم، ويجب أن ننمى في أنفسنا العواطف المشتركة القوية.

ولأنى الآن بشيء على وجه الخصوص، فالمكان الذى تحتله الحرب بسهولة في عقولنا عند أقل استثارة يجب أن يملأ بالتقدير الأخوى المتشابك الإيجابى بين الناس والأجناس والجماعات والبشر في كل مكان والرابطة التعاونية بين الناس حول العالم وتبادل الثقافات والمحاصيل والأفكار،والسياحة، والقيم على مقياس كبير ببناء يقاوم الاستغلال والمنافسة الفتاكة والسيطرة التى لا ترحم، وبمثل هذا فقط يمكن أن نأمل في

إثارة روح الانسجام في العلاقات الإنسانية والتى لا تستطيع الرغبة في التسيطر أن تنافسهما في عقولنا.

والآن فعلى أرض صلبة من البحث نسير نحو هذا الهدف، وباكتشافنا للتجارب التى تصادق على الرأى الروحى للإنسان يمكن أن نرتفع بتفكيرنا في الناس في كل بقاع العالم عن أنهم مجرد أجساد، فنحن نعلم لا عن إيمان فقط بل بالبرهان، أن لهم عقولاً مستقلة وحرية إرادة حقيقية في إيداع مصير حياتهم وأن بهم طاقات شخصية مميزة لتعين بتفردها في بناء ثقافة عالمية، والتفرقة السطحية بين الطبقات وهى ذات الطابع المادى تتضاءل أهميتها حينما نقدر مغزى الحياة الباطنة للعقل الإنسانى حق قدرها، إن قدرة الروح على ربط المجموع بخلاف المادة وأن التكامل بين الناس يمكن اعتباره قوة قادرة فعالة وحقيقية كأى قوة في الوجود.

وهذه القوة الرابطة البنائة التى للبشر على بعض هى أهم سلاح للسلام ولقد رأينا أنه على أساس السلطة والإيمان وحدهما استطاع الإنسان بتسليمه بوجود عامل محرك حر يسمو على جهازه الخاضع لقوانين الفيزياء «الطبيعة» والكيمياء أن يرتفع بنفسه فوق نوازعه الوحشية الأنانية المشاكسة والتى أملتها عليها طبيعته البدائية وأن يسمو بهذا الإدراك إلى المستوى الآمن الذى تحققه القوانين العلمية سيعطيه قوة من التأكيد والإقناع الذى لا يستطيع الإيحاء وحده أن يصنعهما، وسيتطلب الأمر المزيد من قوة معرفة الإنسان لطبيعة شخصيته لكى يمكن إنقاذه من المأزق الحالى الذى أوقعته فيه قدرته الممتازة على الابتكار ولكنها ليست منسقة.

وما يمكن أن نتوقعه من الاتجاه نحو البحث عن الحقائق يتضح لنا مما حدث في الطلب، فقد مر وقت كانت فيه صحة الإنسان وصلاته بالآخرين كلاهما في منطقة نفوذ العقيدة فكان زعيم القبيلة هو طبيبها وهو نفسه القاضى فيها، وحدث أن جاءت الطريقة العلمية لحل المشاكل فعنيت بجسد الإنسان أولا فكانت النتيجة كما نرى اليوم مما يضيق الوصف عن مقارنته بما عليه العالم الآن من صحة بتلك التى كانت له منذ ألف سنة مضت، والآن نتقدم الطرق العلمية بقوة ولكن بالتأكيد لتعمل عملها في النطاق العقلى للإنسان، وحين تخرج الشخصية الإنسانية من حالة العقيدة المضطربة والكفر والنزاع والحدس والغموض فإنها هى أيضا ستصبح موضوعاً للمعرفة لا للآراء المفروضة.

وهذه المكتشفات الحديثة في علوم الحياة العقلية مؤيدة بالبرهان التجريبى مطمئنة به ستنشر لواءها على العالم بنفس القوة التى لعلوم الجسد وبكل تأكيد فلنا أن نتوقع نظاما أسمى، من التفاهم الأخوى والتعاون يظل البحار والعمار، تماماً كما أعقب التطبيب والصحة خطوات المعرفة في الطب والصحة.

ومن الحقائق التى تصدم الإنسان أن ما نعرفه عن الذرة في الحاضر يفوق ما نعرفه عن العقل الذى يعرف الذرة، فإذا استطعنا أن نصل في مجال العقل إلى نصف ذلك الفهم الصحيح الذى حققه علم الفيزياء «الطبيعة» بالنسبة لعناصر المادة لكان في استطاعتنا أن نستخلص ونستغل قوانين هادية لا يمكن تصور مغزاها بالنسبة للحياة الإنسانية والمجتمع.

وقد وضعت الأبحاث الذرية لنا معياراً، فقد أرتنا بعضاً مما يحق لنا أن نتوقعه من البحث المركز جداً إذا أراد النوع الإنسانى حقاً أن يعلم شيئاً.

والمسألة هى مقدار رغبتنا الأكيدة في اكتشاف «السيكولوجيا النووية أو الذرية» ووجه المقارنة مع علوم الذرة يفرض نفسه علينا من الأحداث، ولهذا فأنا أتساءل: هل نحن على استعداد بعد لإعطاء الأولوية للمشكلة الإنسانية؟ وهل نقدر ما يمكن أن يكون لاكتشافنا للقدر الكافي من الموارد الباطنة في طبيعة الإنسان الروحية من قيمة وأن نطلق القوى الأخلاقية والشعور الاجتماعى الذى يحرر عقله للأبد من الخوف من أخيه الإنسان؟

ولكن هناك ناحية تواجهنا فيها المنافسة بين الإنسان والذرة، وعلينا أن نقرر أيهما أحق بالأفضلية في الدراسة في السنوات القادمة، قوة الإنسان، أم قوة الذرة وأيهما سيكون الدافع والهدف للعلم في العشرين أو الأربعين سنة القادمة، وعلى أى حال فسيكون لكليهما نصيب من الاهتمام الكبير، فهذه ليست حالة من التعارض الأساسى ولكنها الحيرة بين أن تحصل المشكلة الإنسانية على حظها الكافي من البحث العلمى وبالسرعة الكافية لإنقاذنا من سوء استعمال المكتشفات الكبيرة الأخرى التى أخرجها، ومازال يخرجها العلم، ومن الممكن تصوران الطابع الثقافي للعصر الذى نحن مقدمون عليه والتقدم الاجتماعى في المستقبل البعيد قد

يعتمدا على السرعة التى تتحرك بها مشكلة طبيعة العقل الإنسانى نحو بؤرة البحث العلمى النشيط.

هامش ٢٣٤

١- الكتابة التلقائية هى من بعض الأساليب التى يلجأ إليها في التخاطب مع الأرواح، فالكتابة التلقائية أن تستولى روح ما على ذراع الوسيط فتبدأ يده تتحرك بالكتابة السريعة.

٢- لوحة أوجا هى سبورة صغيرة تستعمل لكتابة الأرواح عليها، والعصا السحرية هى فرع من شجرة مخصوصة يستعملها بعض الناس في تحديد أماكن وجود المياه.

الفهرس